الطاهر عبد الله

الحركة الوطنية التونسية

رؤية شعبية قومية جديدة

الطبعة الثانية

دار المعارف للطباعة والنشر

الحركة الوطنيّة التونسيّة

رؤية شعبية قومية جديدة

1830 - 1956

الطاهر عبدالله

منشورات دار المعارف للطباعة والنشر
سوسة/تونس

العدد المسند من طرف الناشر 90/271
تم ايداعه بالمكتبة الوطنية في شهر ماي
* * *
ISBN ـ 9973 ـ 712 ـ 67 ـ 6 : تدمك

الإهــداء

إلى أرواح الشهـداء الـذين استشهـدوا وهم مبتسمـون لفجـر الخلاص الذي يحرر بلدهم من العبودية والذل والاستعمار . . .

إلى أرواح شيـوخ الشهـداء وأعمـدة النضال، إلى عبد العزيز الثعـالبي ومحي الدين القليبي والدكتور الحبيب ثامر وعبد الكريم الخطابي والمهدي بن بركة وصالح بن يوسف ومصطفى ابن بو العيد وشيحاني بشير وسي العربي بن المهيدي وإلى كل من ساهم من أبناء المغـرب العربي في هذا الكفاح المجيد أهدي هذه الصفحات فهي للانارة لا للاثارة.

وأخيـرا إليـك أيتهـا الأمّ العربيـة . . حبيبتي الأولـى . .

الطاهـر . . .

كلمــة الناشــر

لقد سبق لهذا الكتاب أن طبع في بيروت في أوائل السبعينات ونفدت تلك الطبعة دون أن يطلع عليها القارئ التونسي سوى عدد محدود من المثقفين تحصلوا على الكتاب بوسائل غير عادية.

وأمـام رغبـة المـواطن التونسي الذي بلغ درجة من الوعي السياسي والثقافي، والذي أصبح يسعى إلى معرفة المزيد من الحقائق حول فترة صاخبة بالأحداث من تاريخ الحركة الوطنية التونسية، رأينا اعادة طبع هذا الكتاب لما فيه من عناصر مميزة، من أهمها أنه يعرض القضية من منـظور جديد وبوجهة نظر لم تقل للمواطن التونسي من قبل. إذ ظل يسمع ويقرأ عن تاريخ بلاده المعاصر من وجهة نظر واحدة تلح على غسل عقله ليكون وعاء فارغا لا تختمر فيه تيارات وآراء غير ما كان يقال له، وقد نجحت هذه الخطة لفترة ما، مما جعل المواطن العادي يعيش أزمة ـ عابرة ـ يتوهم فيها أن تونس لم تنجب إلا رجلا واحدا، وانحصر همه في أمر واحد هو كيف يمكن أن يطول عمر هذا الرجل حتى لا تحل به الكارثة بعد مماته.

ومن أهمية هذا الكتاب أيضا، هي أن المؤلف عاش الكثير من وقائع الأحـداث، ومن هذا المنطلق تتجلى قيمة الكتاب باعتبار كاتبه شاهد عيان على ما جاء فيه من معلومات، وبذلك يصبح الكتاب مرجعا قيما يقدم مادة خام للمختصين. وهذه ميزة الكتاب التي تنقذه من الهبوط عن مستوى منهجية المؤرخ المختص.

وبالرغم من اننا نجد الكاتب في كثير من المواقف ينحصر في حدود مشاعره الذاتية مما يخرجه من دائرة سوضوعية المعالجة في بعض الأحيان، الا أنـه يبقى منسجـما مع قلمـه وحياته بين خضم التيارات السياسية والاجتماعية التي عاشها متشردا لاجئا فترة في بعض البلدان العربية وفترة اخرى في بلدان أروبية . . .

ولاشـك ان التحليل السياسي للحركة الوطنية التونسية من منظور الـرؤية القومية التي كان يعتنقها الكاتب قد اضفت ضوءا جديدا على حقيقـة ارتبـاط النـظام البـورقيبي بالاسـتراتيجية ألاستعمارية الجديدة والتحالف بينهما مما جعلها لا تقتصر على الشؤون التونسية فحسب بل تتعـداها إلى النواحي الاستراتيجية العسكرية والاقتصادية والاجتماعية على مستوى الوطن العربي كله.

ولتـوضيح هذه النقـطة بالـذات نكتفي بمثـال واحـد وهـو موقف (الحبيب بورقيبـة) الـرافض لفكـرة الـوحـدة العربية بأي شكل من الاشكال، وكان في أفضل الأحوال يقول عن تحقيقها « . . . أمر يتطلب مائة سنة »، وهذه طريقة بسيكولوجية معروفة في ضرب عزيمة الشعوب.

ولم يقف هذا العمل عند التحليل السياسي للأساليب البورقيبية في الفترة التي سبقت الاستقلال والتي تلته مباشرة، وانما تعداها إلى محاولة فهم بواعثها ونقاط ضعفها وكشف جرائمها، وأضاف عنصرا مهما سيعتبر نقطة تحول في فهم الكثير من القضايا التي ظلت حتى الآن محل غموض وريب تتعلق بحقيقة وطنية عدد من الشخصيات التي برزت على ساحة الحركة الوطنية التونسية، واعتبر البعض منها في زمرة الخونة في حين أن البعض الآخرعدّ من أبطال الحركة الوطنية، والحقيقة التي يتجلى البعض منها في هذا الكتاب عكس ذلك.

ونحمد الله ان السابع من نوفمبر أتى بإرادة صادقة لردّ الاعتبار إلى أصحـاب الاعتبـار، فبعدما كنا نسمع عن الشيخ الزعيم عبد العزيز الثعالبي الكثير من المس في وطنيته، يأتي نظام العهد الجديد ويحيي ذكراه بالوسام الأكبر وكذلك فعل مع الزعيم صالح بن يوسف، وهذه بداية لارجاع الأمور إلى نصابها والحق إلى أصحابه، وهذه إحدى الشواهد على صدق نوايا العهد الجديد.

حسن احمد جغام

المقدمـة

تجري الآن محاولـة متعمـدة باصرار ودأب شديدين لتشويه نضال الأمة العربية وتزييفه ممثلا في تاريخ نضال شعب من شعوبها، وهو الشعب التونسي. وهي محاولة اعـد لها باتقان وسخرت لها كافة الأجهزة الاعلامية ومؤسسات الدراسات التاريخية والسياسية، حتى تصبح هي الحقيقة ولا شيء غيرها. وفي نفس الوقت يجري نشاط محموم لمطاردة أي كلمة حق صادقة تصدر عن أي شخص وفي أي مكان يمكن أن تهز الصورة التي يعملون على نشرها وتكشف عن زيفها. وبعد أن تم خنق كل صوت آخر ومصادرة أية كلمة اخرى، بدؤوا يحاصرون المواطن بصورة تاريخية مصطنعة عن تاريخ بلاده. وانــطلقت مراكـز الأبحـاث والـدراسـات تضفي ثوبـا من البحث والموضوعية المزيفة على كل ذلك. وسارعت العقول الأمريكية « النيرة »لتدعيم هذا النشـاط « العلمي » فأخـذتْ تمول الأبحـاث والـدراسـات ذات الصبغـة العلمية « النزيهة » مثل « مركز البحوث والدراسات الاقتصادية والاجتماعية » التابع للجامعة التونسية اسما والذي تموله مؤسسة فورد الأمريكية. وأخذ النظام يفلسف كل شيء، ويسخر كل شيء لخدمة هذه الصورة، وابتدأ سيل من الكتب والدراسات التي تخدم هذاالمخطط القديم الذي وضعه الاستعمار الجديد منذ عشرين عاما في المنطقة، عندما قرر اجـهــاض حركــة الـكفــاح الشعبي المسلح المتنــامية في تونس والجــزائــر والمغرب : فأعطى الحركة الوطنية في تونس الاستقلال الداخلي، وأرجع محمد الخامس من منفاه للتفاوض معه، وجعل جناحا من الحركة الوطنية ينظر إلى اسلوب المفاوضة كبديل لأسلوب الكفاح المسلح، وحول الصراع ضده إلى صراع بين القوى الوطنية نفسها على السلطة، وجزأ وفتت نضال الشعب العربي في المغرب وعمل على تفكيكه

بدلا من طريق توحيده الذي اختطته الحركة الوطنية لنفسها، واستخدم « الوطنيين » المتعاونين معه عونا له على تصفية جيش التحرير والمقاومة في كل من تونس والمغرب معـا، وبذلك تحقق له التآمر الناجح ضد حركة الكفاح الشعبي المسلح في هذين القطرين، واستشهد بن بركة بالذات لأنه كان أول المحذرين على نطاق شعبي واسع من مخطط الاستعـار الجديد سنة 1960 لتحويل المغرب العربي نموذجا للاستعمار الجديد، وسبقه إلى الشهادة صالح بن يوسف هو الآخر. وحتى هذه اللحظة يبدو ان مخطط الاستعمار الجديد قد نجح في كل من تونس والمغرب، وأن حركة التحرر الوطني قد انتكست في هذين القطرين اللذين مازالا يرزحان تحت صورة نموذجية من نفوذ الاستعمار الجديد. ولكنْ هذا الوضع لا يمكن ان يبقى طويلا ولن يجدي كثيرا هذا السيل الجارف من الكتابات المشوهة التي يصدرونها لتزييف الوعي التاريخي العربي لدى جماهير الشعب في تونس، والتي لن يكون آخرها الكتاب الذي كتبه رئيس تحرير مجلة « الفكر » في تونس بعنوان « الشخصية التونسية، خصائصها ومقوماتها » والذي صدر في العام الماضي والذي يتحدث فيه عن الأمة التونسية ويعادي بشراسة مفهوم الأمة العربية الواحدة . . لأن كل هذه الكتابات لا تملك من الحقيقة والصدق الا أنها طبعت على ورق وكفى . . ولن يستطيعوا مهما فعلوا أن يزيفوا تاريخ شعبنا ونضاله. ويكفي أن نذكّر ان ببعض الاشارات السريعةإلى جهاد شعبنا ونضال عماله وفلاحيه المسلح ضد المستعمـرين حتى ينهـار التـاريخ المزيف الذي أراد ان يصنعه لابسو الـطرابيش في بلادنـا. فتاريخنا ليس هو تاريخ مجموعة تحالفت وتفاوضت وأخذت وطـالبت، وتهـادنت مع استعمار قديم وتحالفت مع استعمار جديد، وانما هو تاريخ نضال جماهيره وحركاتها الشعبية وانتفاضاتها الوطنية المسلحة التي لا يمكن ان يسرق ثمرتها حكام وقفوا ضد شعوبهم.

وهـذا الكتـاب لا يعدو ان يكون خطوة أولى في طريق التأريخ الشعبي الوطني الصحيح لنضال شعبنا وكفاحه في سبيل حريته واستقلاله، التي مازال يجاهد حتى هذه اللحـظة من أجلها. واننا لنأمل بهذه الصفحات أن نعرف القارئ العربي في المشرق والمغـرب العـربيين بنضال الشعب العربي في تونس الذي لم يكن الا جزءا مكمـلا لنضال الأمة العربية في كافة العصور وقد أرادت بعض العناصر الاقليمية المرتبطة بالاستعمار الجديد في تونس ان تجهد نفسها وتحاول بشتى الطرق والوسائل ان تطمس نضال الجماهير الشعبية في تونس وتسدل عليه ستارا من النسيان وهي تهدف من وراء هذا كله إلى ابرار تاريخ مزيف معتمد أساسا على الافتراء وأرادت أن تظهر نفسها هي وحدها مصدر الحقيقة وان نضال شعبنا العربي في تونس هو نضال الحزب

الدستوري الجديد ورئيسه وكفى فأردنا أن نساهم مساهمة متواضعة بهذه الصفحات لكي تتضح الحقيقة أمام أعين الجماهير الشعبية وأمام الأجيال الصاعدة من أبناء شعبنا التونسي وأمتنا العربية العظيمة التي سوف تتحطم على صخرة حقيقتها وصخرة نضالها كل قوى الزيف والتضليل والخداع التي عملت ولازالت مستمرة في زيفها وتضليلها لتوجيه الشعب حسب ارادتها ومشيئتها وكأن لم يكن في تونس شعب كافح طيلة ثلاثة أرباع القرن من أجل حريته واستقلاله وربط مصيره بمصير اشقائه العرب في المشرق والمغـرب هذا الارتبـاط الـذي عبر عنه شعبنا العربي في تونس منذ القديم ولسوف يعلمون ان طريق الزيف والخداع سوف ينكشف أمام الحقيقة التي آمنت بها الجماهير وهي ان تونس جزء لا يتجزأ من الوطن العربي الأكبر.

الطاهر ابو القاسم عبد الله .

20/ 9/ 1975 م .

الفصـل الأول

فجر الحركة الوطنية في تونس

ـ 1 ـ

بعد حملة نابليون على مصر . . واحتلال الجزائر :

منذ شعرت الشعوب المغلوبة على أمرها في آسيا وافريقيا بما هي عليه من تأخر وتخلف، بالنسبة لما عليه حالة شعوب أوروبا من تقدم وحضارة ورقي عمراني وتشييد، بدأت هذه الشعوب تعي حقيقة ما هي عليه من تخلف. وقد وعت هذه الشعوب أسباب تخلفها عندما حلت الكارثة على مصر بعد حملة نابليون بونابرت، بعد مرور خمسة قرون من النوم العميق. حتى ان الأميرال نيلسون عندما وصل الاسكندرية بأسطوله لم يهتم به حاكم مصر من المماليك، وقال لمن جاء يخبره بالخطر المحدق بمصر ويقول له بأن هناك حملة فرنسية تريد احتلال مصر . . قال له الحاكم المملوكي : دع الأمور تجري، فهذه أرض أمير المؤمنين، ولن يجرؤ على الاعتداء عليها أحد من العالم!.

وفي غمرة هذا النوم العميق دخل نابليون بونابرت مصر، واستولى عليها بعد معارك دارت بينه وبين الشعب المصري المكافح . . على اثر هروب المماليك بعد معركة دامية كل ذلك لأن شعوب المنطقة قد انقطعت صلتهم بالحضارة والرقي منذ قرون، وناموا نومة أهل الكهف، حتى هزتهم الكارثة، وداهمهم خطر الاحتلال الذي وصل إلى عقر الدار. ونجد خير تعبير عن اثر هذه الصدمة على وعي المثقف العربي المستنير فيما كتبه الشيخ عبد الرحمن الجبرتي. ولكن تلك الحملة النبوليونية لم تدم إلا ثلاث سنوات بسبب الخلاف الذي كان قائما بين فرنسا وانجلترا، والخلافات داخل فرنسا كذلك مما اضطر نابليون للخروج من مصر. لكن سنوات الاحتلال الثلاث قد خلفت آثارا عميقة لدى الشعب العربي في مصر، فتكونت روح الوعي وتجديد التفكير، وظهر الميل لتقليد الحضارة الغربية. وجاء محمد علي الكبير ـ المهم انه جاء وحقق ما حقق ولا يعنينا هنا البحث وراء دوافعه ـ وبدأ يتجه في تفكيره نحو الاصلاح ويعمل على أن تصبح مصر على غرار ما أصبحت عليه أوروبا في ذلك العهد.

وعلى هذا الأساس سعى في جلب الأساتذة والمهندسين من الخارج بحيث تكونت حركة في مصر لتقضي على أسباب التخلف على اثر ما أصاب مصر من حملة نابليون، وقد استطاع أن يفعل الكثير مما جعل الاستعمار الأوروبي يعجل بالقضاء على هذا الخطر الذي ظهر في الشرق.

(احتلال الجزائر):

بعد مرور ستة وعشرين عاما على غزو مصر، فكر الفرنسيون جديا في تنفيذ احتلال الجزائر. بعد ان هادنوا الانجليز ومهدوا العلاقات من أجل ذلك مع الدول الأوروبية الأخرى كروسيا وغيرها، وانتهزوا فرصة خلاف بسيط بين قنصلهم وبين داي الجزائر، وادعوا ان قنصلهم أهين واتخذوا تلك الاهانة تعلة لاحتلال الجزائر.

وفي سنة 1830 هاجمت القوات الفرنسية مدينة الجزائر واحتلتها ثم تابعت احتلالها للبلاد الجزائرية، وان كان ذلك اقتضى فرنسا نحو عشرين سنة من القتال العنيف، وما لا يقل عن مائة ألف جندي سقطوا في الأرض الجزائرية، وأظهر فيها الشعب الجزائري البطل مقاومة عنيدة، وكفاحا داميا عنيدا ضد الاحتلال والاستعمار الفرنسي الذي بادر وأصدر مرسوما في سنة 1840 اعتبر بموجبه الجزائر جزءا من فرنسا، وبعد ست سنوات من ذلك اعتبر الجزائريون أنفسهم فرنسيين . . أي ان الوطن الجزائري والشعب الجزائري ـ بموجب هذا المرسوم ـ قد أصبحوا فرنسيين وان الجزائر، وطنا وشعبا، قد اختفت بذلك من الوجود !!.

وكان لاحتلال الجزائر التي هي على حدود تونس هزة عنيفة في تونس، أشعرت التونسيين بالخطر الداهم الذي لا يمكن الهروب منه إذا لم يجابه المجابهة الحقيقية لتفاديه ومواجهته بالاتجاه إلى الأخذ بأسباب التقدم الحضاري والقضاء على التخلف الفكري.

ومنذ ان استولت فرنسا على الجزائر، بدأت سياستها الاستعمارية تسعى لاحتلال تونس وضمها إلى استعمارها وجعلها ضمن مناطق نفوذها. ولم تخف عن التونسيين هذه النوايا الفرنسية، وانما كانوا يحسون بها تجثم على صدورهم وفي أعماقهم، وان كانوا يتغافلون عنها ولا يذكرونها، فليس معنى ذلك أنهم كانوا لا يستشعرون الخطر محدقا والكارثة وشيكة. وقد كان هذ الشعور بالخطر يمكن أن يكون أكبر حافز على انضاج الحركة الوطنية في تونس وبناء الدولة فيها بناء عصريا لولا عدة أسباب من بينها الركون الى تركيا وقصور همة القادة حينذاك.

وعلى اثر الأحداث الهائلة التي أعقبت احتلال فرنسا للجزائر بنصف قرن . . نهض المجتمع العربي في تونس مبهوتا ينظر حواليه، فرأى ان الحياة المألوفة قد انقرضت وبدلت الأرض غير الأرض والسلطة غير السلطة.

فقد تغيرت الحياة بتونس بسبب وجود الجاليات الأوروبية . . وتكونت في مدينة تونس مناطق خاصة بالأوروبيين، ينطق عمرانها بالبون الشاسع بين بؤس الحياة التي يحياها العربي في تونس ونعمة الحياة الأوروبية التي حرم منها التونسيون ما عدا حفنة من كبار المثرين والحكام، وصارت « تونس اثنتين » متباينتين : « تونس » التونسيين الوطنيين أهل البلاد، و « تونس » المستعمرين الأوروبيين الذين استأثروا بكل خيرات البلاد. وقد ظهرت في تونس مظاهر الحياة العصرية وأخذت تتنافس الشركات الاحتكارية البريطانية والايطالية والفرنسية في تونس، وقد كان الصراع بين الشركات الايطالية والفرنسية بوجه خاص صراعا حادا على استغلال خيرات البلاد التونسية. وانشغلت تونس بهذا الصراع، وعرفت الدولة التونسية النظم الحديثة في الادارة والقضاء وابتدأ نظام الدولة يتطور بالاقتباس من الأساليب الغربية، وترك ما كان سائدا من الأحكام الشرعية والتقاليد القومية. وظهر في تونس الأطباء والصيادلة والمهندسون الغربيون واتصل التونسيون بالتقنية الأوروبية، ورأوا حياة الجاليات الأوروبية، وقد كان شأن الجالية الفرنسية يزداد حتى أصبح لمصالح الفرنسيين الصدارة على مصالح بقية الجاليات الأخرى. وبدأ الفرنسيون يستولون على الامتيازات والأراضي بغير وجه حق، واستولوا على الديار، واحتكروا الكثير من الميادين الاقتصادية وأذاقوا أهل البلاد العسف والاستغلال. وتكون من جراء ذلك العسف والاستغلال لدى الشعب العربي في تونس احساس بأن حياة البلاد التونسية قد أصبحت مهددة بمزاحمة طاغية عليها لا تقوى على مناهضتها. وان تلك المزاحمة ترمي إلى غاية معلومة، وقد شاهد التونسيون مثلها في الحالة التي عليها المهاجرون الجزائريون الذين وفدوا عليهم. وقد خلفوا عزتهم وثروتهم بعد ان عانوا ألوانا من الارهاق وانتهاك الحرمات.

ظهر هذا الشعور لدى الشعب العربي في تونس سطحيا بسيطا ساذجا. فتفرق أثره بين طبقتين من المجتمع :

1 ـ طبقة برجوازية مستسلمة وطنت النفس على الاقتناع بتفوق هؤلاء الدخلاء، فسارت على منوالهم، وأخذت طريق الثروة والمال واللذة، تاركة الشعب يتخبط في أوضاعه المزرية.

2 ـ طبقة عريضة متبرمة ومتململة، رأت في هذا التطور الجديد مظاهر افناء الأمة والدين وانقراض الخير وغلبة الشر، وان الساعة قد قربت إ فأقبل بعض أفراد من هذه الطبقة يجمعون أذيالهم وينأون بأنفسهم عن المساس بهذه الحياة الدنيا. وكان هذا هو الموقف السلبي التصوفي لقطاع كبير من رجال الدين، وجدوا ملاذهم في مغادرة البلاد إلى الأراضي المقدسة بالحجاز، أما غالبية المثقفين المستنيرين من هذه الطبقة فقد رأوا انه لابد من العمل على تطوير كل شيء في البلاد والأخذ بأسباب التقدم والأخذ مما في أوروبا ما يكون لائقا بحال البلاد التونسية، حتى يتحقق لتونس المناعة والسلطة الدنيوية. . وقد عبر خير الدين التونسي عن هذا الموقف خير تعبير فيما بعد.

لقد وصلت حالة البلاد التونسية في ذلك العهد إلى مستوى من التفكك الاجتماعي، وبعدت الجماهير عن ممارسة دورها في حياة البلاد وممارسة مسؤولياتها. لقد كانت خاضعة للحكم الفردي المطلق المرهق، ومنكمشة عن الامتزاج بتيار الحياة الجديدة الغالبة وهذه العوامل المتفاوتة عملت على تحديد ذلك الشعور وقصوره على الجهة الانفعالية السلبية، دون الاهتمام العملي بعلاجها، وانقاذ البلاد مما أصابها.

ولما كان حكم تونس في يد الباي الذي يرفض أن يشاركه بالتصرف والمشاركة في الرأي الا أفراد حاشيته المؤتمرون بأمره، من مماليكه، المجلوبين من خارج البلاد العائشين حوله في قصر ومضروبا بينهم وبين الشعب الأسوار الحديدية وكان من الطبيعي ان هذا الوعي الواضح بالحالة التي عليها الشعب في تونس وما تحمله من أخطار، وما ينبغي لها من القضاء على الأخطار المحدقة بها ان يولد كثيرا من التفاعلات : بعضها اصلاحي وبعضها ثوري.

ـ 2 ـ

الحركة الاصلاحية قبل الاحتلال :

بدأ التبرم بالحالة التي وصلت إليها تونس بعد احتلال الجزائر يظهر، وأخذ الأمير حسين باشا ـ الذي نزلت كارثة احتلال الجزائر في أيامه وقد توفي هذا الأمير سنة 1936 ـ يتخوف تخوفا حقيقيا من السيطرة الأجنبية والاحتلال الفرنسي بوجه خاص.

وقد مضت ولاية أخيه مصطفى باشا سريعة إذ توفي بعد عام ونيف من توليه الحكم، وجاء إلى الامارة ابنه الأمير الشاب الطموح والشديد الذكاء المشير أحمد باشا الذي استمرت ولايته تسعة عشر عاما من سنة 1837، وكانت تربيته وميوله عسكرية. ونشأ في طور الاصلاحات العسكرية النظامية التي أخذت بها الدولة

التونسية تبعا لتنظيمات السلطان محمود الثاني العثماني. فابتدأ احمد باشا ملكه بعزيمة جادة على الاصلاح، وهمة متقدة في الأخذ بوسائل التقدم الذي كان يتطلع إليه منذ نشأته بتأثير الذي تولى تربيته وتنشئته وهوالوزير «مصطفى صاحب الطابع». كان مصطفى صاحب الطابع مثالا حيا لرجاحة الفكر والاستقامة في السيرة والغيرة على المصالح العامة. وكان هذا الوزير شغوفا بمواطنه ابن خلدون، ومتعلقا بآرائه ودارسا لها، فكان دستور تفكيره مستمدا من «المقدمة» التي ما انفك يتناول الأحوال الجارية بالفحص على آرائها وصداها، ويقيم ما يتناول اصلاحه منها على أساس قواعد «المقدمة» ونظرياتها. وكان قد عني بشؤون العلاقات الفرنسية مع تونس بعد احتلالها الجزائر في عهد حسين باشا واستمر يتابع ذلك في عهد مصطفى باشا، وقد أدرك الأخطار الاستعمارية الفرنسية المحدقة بالوطن، وقد تمكن من خلال العلاقة التي تربطه بأحمد باشا باي تونس من أن يجاهر بفكره الاصلاحي الذي استوحاه من تأثره «بمقدمة ابن خلدون».

وقد فكر في طريقة لتخليص تونس من الاهانات التي تتلقاها من تطاول الفرنسيين والأوروبيين عموما. وقد استطاع أن يقنع دوائر الحكم الملكي بأن تتجه نحو الاصلاح وبناء الدولة التونسية على أسس عصرية وقد كان المشير أحمد باشا باي تونس صاحب نزعة استقلالية وميالا إلى تفخيم شأن المملكة التونسية، وابعادها عن نفوذ الدولة العثمانية المباشر، وقد رأى ان الدولة العثمانية نفسها تعمل على تنظيم جيشها على الطريقة الأوروبية العصرية والاقتداء بصفة خاصة بالنهضة المصرية، التي كانت العامل الأول والأساسي في التأثير على سير النهضة التونسية، وقد تعمق ذلك بالأخوة العربية وقرب المواصلات بين مصر وتونس، وما بدأ يصدر عن مصر من انتاج المطابع.

المدرسة العسكرية بتونس:

لقد بدأ عهد الباي أحمد باشا منذ توليه الملك وفي سنته الأولى عام (1838) بأن أسس مدرسة عسكرية هي «المكتب الحربي بباردو» لتكون بداية النهضة في تونس ولتخريج الضباط الفنيين والمهندسين، والموظفين، وقد كان ضمن هذه المدرسة مكتب المهندسين (مكتب تقني في تونس مدرسة)، أو مكتب العلوم الحربية، وقد جلب ليها أساتذة مستشرقين من ايطاليا وفرنسا وانجلترا وكان من بين هؤلاء الأجانب لمستشرق الايطالي الضابط الأميرالاي كالبقاريس. وبدأت هذه المدرسة في تدريس لرياضيات والهندسة والتعبئة الحربية، وتعليم الجغرافيا واللّغتين الفرنسية والايطالية، هذه المدرسة لعبت دورا كبيرا في التعريف بالحضارة الحديثة ونقلها على أسس علمية، قد لعبت نفس الدور الذي لعبته مدرسة الألسن بمصر.

خير الدين ودوره الاصلاحي :

بعـد تأسيس هذه المدرسة الحربية بباردو، (وهي إحدى ضواحي تونس) تولى ادارة هذه المـدرسـة خير الـدين التـونسي ، الـذي أصبح فيها بعد هو زعيم الحركة الاصلاحية بتونس ، والذي كان لعمله الاصلاحي التأثير الكبير والجوهري على تاريخ الحركة الوطنية الاصلاحية في تونس قبل الاحتلال الفرنسي وبعده بما قدمه هذا المصلح الكبير من جليل الأعمال لبلاده التي أحبها وتفانى في خدمتها.

وليس موضوعنا هنا ان نتحدث عن دور خير الدين التونسي وانما يكفينا لمحة من تفكـيره المستنير ان نذكر للقارئ نصا يعبر عن تفكيره افضل تعبير من كتابه « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » الذي نشره سنة 1867 . قال في الرد على الذين ينـاهضون ادخال الاصلاحات والمؤسسات العصرية : « على انا إذا تأملنا في حالة هؤلاء المفكرين لما يستحسن من أعمال الافرنج نجدهم يمتنعون من مجاراتهم فيما ينفع من التنظيمات ونتائجها ولا ينتفعون منها فيما يضرهم » .

وذلك انا نراهم يتنافسون في الملابس واثاث المساكن ونحوها من الضروريات ، وكذا الأسلحة وسائر اللوازم الحربية . والحال ان جميع ذلك من أعمال الافرنج . ولا يخفى ما يلحق الأمة بذلك من الشين والخلل في العمران وفي السياسة .

أما الشين فبالاحتياج للغير في غالب الضروريات الدال على تأخر الأمة في المعارف .

وأما خلل العمران فبعدم انتفاع صناع البلاد باصطناع نتائجها الذي هو أصل مهم من أصـول المكـاسب . ومصـداق ذلك ما نشاهده من ان صاحب الغنم منا ومستولد الحرير وزارع القطن مثلا يقتحم تعب ذلك سنة كاملة ويبيع ما ينتجه عمله للافرنجي بثمن يسير، ثم يشتريه منه بعد اصطناعه في مدة يسيرة بأضعاف ما باعه به . وبـالجملة فليس لنـا من نتائج أرضنا الا قيمة موادها المجردة دون التطويرات العلمية التي هي منشأ توفر الرغبات عندنا وعند غيرنا . ثم إذا نظرنا إلى مجموع ما يخرج من المملكة وقايسناه بما يدخلها فان وجدناهما متقاربين خف الضرر، واما إذا زادت قيمة الداخل على قيمة الخارج فحينئذ يتوقع الخراب لا محالة .

وأمـا الخلل السياسي فان احتياج المملكـة لغيرها مانع لاستقلالها وموهن لقوتها لاسيما إذا كان متعلق الاحتياج الضروريات الحربية التي لو تسنى شراؤها زمن الصلح لا يتيسر ذلـك وقت الحـرب، ولـو بأضعاف القيمة » . . هذا هو نمط تفكير هذه المدرسة في تونس في وقت مبكر جدا سنة 1867 .

وقد اختار خير الدين للتدريس في هذه المدرسة أحد قادة الاصلاح الديني الشاعر الكبير محمود قبادو، أحد علماء جامع الزيتونة لتولي تدريس اللغة العربية والتربية الدينية.

وعهد إليه مع طلبة المدرسة تحرير وتلخيص محاضرات الأساتذة الأجانب وترجمة الكتب الأجنبية الخاصة بالفنون والصنائع الحربية.

لقد كانت هذه المدرسة عاملا مهمافي اتصال الفكر العربي بالفكر الغربي واتصال العقلية الغربية بالعقلية العربية الاسلامية، بين علماء جامع الزيتونة والأساتذة الغربيين، الشيء الذي تولد عنه مذهب فكري حقيقي في تونس له نظرياته الأصيلة، وقواعده الأساسية.

الشيخ محمود قبادو رائد الاصلاح :

يعد الشيخ محمود قبادو (1813 ـ 1871) في تونس، هو الذي كون المذهب الفكري الاصلاحي الجديد في أوائل القرن التاسع عشر، لقد جمعت شخصية الشيخ محمود قبادو المؤهلات الضرورية لمن يكون مذهبا عقليا، ومنهجا للتفكير له دعاته وأتباعه، وآثاره.

كان رجلا غير عادي، نشأ نشأة صوفية صرفة، فتجرد عن الحياة العادية تجردا تاما، وتعلق بطريقة الرياضة والمجاهدة والسياحة والخلوة، ووقف حياته على البحث والمعرفة، وأقبل على نواحي العلم يطلب الوقوف على جزئياته استيعابا. فاتسعت دائرة معلوماته اتساعا منقطع النظير، تعاطى علوم الحكمة الاسلامية، بين اشراقية ومنطقية، فأحاط بالمذاهب والنظريات، وتمرن على الطرائق، وتوسع في فنون الحكمة عامة، من العقلية، و الرياضية، والطبيعية، إلى علم الفلك والعلوم الروحانية والالهية .. وبذلك جمع في فكره بين عناصر متباينة متعارضة، بين العلوم الطبيعية والعلوم الروحانية وقد مزج بين ذلك كله، دون تصادم، بين الفكر الحديث والفكر القديم .. فكان شيخا مجددا ينزع نحو التجديد والاصلاح، وكان شيخا زيتونيا خالصا يتمسك بالثقافة الاسلامية العربية، وبتمثيلها تمثيلا كاملا في نفس الوقت، وكان اصلاحيا يؤرقه تخلف المالك الاسلامية وعدم رعاية الحقوق العامة للمواطنين وتنكبها عن جادة الشورى والديمقراطية وافتقارها إلى التدبير السياسي الحكيم.

لذلك كله سارع الشيخ قبادو بقبول ان يكون مدرسا بمكتب باردو الحربي وعمل على ترجمة كثير من الكتب العسكرية إلى اللغة العربية. وقد كان يجيد اللغة التركية

والايطالية والفرنسية، وكان يعتقد انه بنقله هذا الفكر ينقل إلى اللغة العربية سر النهضة الأوربية. وكان يعتقد ان العلوم الطبيعية والرياضية التي كان علماء العرب والمسلمين في عصره عنها بمعزل والتي عرفها هو وتعب في الحصول عليها واستخف به الناس وربما سخروا منه بسببها. انما هي مدار التفوق الذي نالته أوروبا على العالم العربي والاسلامي فربط بين هذا وبين ما تشكو منه البلاد العربية من هوان بعد العز، ربطا ولد له فلسفة في النهضة الاسلامية ترتكز أصولها على :

ان العالم الاسلامي في حالة تأخر وتدهور مع ان الاسلام بذاته كفيل بان يكون المجتمع القائم على أصوله في حالة تخالف ما هو عليه الآن. فينبغي ان يعزى السبب في ذلك إلى أمر خارج عن جوهر الدين كان موجودا عند المسلمين ففقدوه، وان المقارنة تظهر ان هذا الأمر انما هو العلوم الطبيعية والفلسفية، فالمعرفة مطلوب ديني لذاته، وهذه العلوم كانت مزدهرة متقدمة عند المسلمين، وكان المسلمون لما كانت هذه العلوم رائجة فيهم متقدمين، ثم عندما افتقد المسلمون هذه العلوم تخلفوا، وقد سادت أوروبا على العالم العربي والاسلامي عندما هجرت هذه العلوم وأخذت أوروبا هذه العلوم، ومن ثم فلا سبيل إلى أخذ العالم العربي والاسلامي حظه من الرقي والتقدم والنهضة الا باستعادة نهضته في هذه العلوم التي أضاعها ولا سبيل إلى ذلك الا باقتباسها عن الأروربيين بالنقل والتعلم . . وهذا ما نذر نفسه من أجله.

وقد جاهد قبادو في نشر دعوته إلى ان وجدت هذه الدعوة نفوذها في وسطين : الوسط الأول وسط المدرسة الحربية، والثاني وسط جامع الزيتونة.

وهذان الوسطان وجد الفكر الاصلاحي فيهما الدعم والعمل ودعم المبادئ الاصلاحية وقد برز من المدرسة الحربية شخصان هما حسين ورستم. وفي جامع الزيتونة الشيخ سالم بو حاجب والشيخ محمد بيرم فكان لقاء المجموعتين الحربية والزيتونية، ووحدتهما مما كون حزبا قائما على أساس نظري، في الاصلاح العلمي، والاجتماعي، والسياسي والإداري، بدأت بوادر تأثيره تبرز في صميم الحياة على صعيد الدولة وتولى خير الدين التونسي قيادة هذا التيار الاصلاحي الذي رأى واجب اللحاق بركب الحضارة والتقدم.

وتوفي الباي أحمد باشا سنة 1855 عن عمر يناهز 71 عاما، فخلفه ابن عمه وولي عهده، المشير محمد باشا. وصادف ولايته الانهيار في أحوال الدولة التونسية وتفاقم مشاكلها وأزماتها كما نشأ حول الملك الجديد اتصال فرنسي عن طريق قنصل فرنسا

المستعرب الرحالة ليون روش الذي كان له ماض غريب في البلاد العربية لخصه في كتابه « اثنين وثلاثين سنة في وسط الاسلام » ساح في البلاد العربية، واتصل بالأمير عبد القادر في الجزائر اتصالا وثيقا. وكان يتظاهر بالاسلام، ويتكلم العربية، ويسمي نفسه « الحاج عمر » ويتذوق الألوان الشرقية الملائمة لميول الباي محمد باشا ومزاجه مما سبب تزاحما بينه وبين قنصل انجلترا، فأصبح الملك من جراء ذلك مضطرا إلى تعديل كفتي المزاحمة باعطاء كل من القنصلين، من الامتيازات والترضيات ما يساوي ما للآخر.

الحركة الاصلاحية تقاوم :

لقد فتح الباي محمد باشا الباب أمام تكالب الاستعمار الفرنسي والانجليزي بمنح الامتيازات للشركات الأجنبية ورؤوس الأموال الأجنبية وقد حاول خير الدين التونسي والحركة الاصلاحية الوقوف في وجه المطامع الأجنبية واتجه إلى سد الباب في وجه هذه المطامع مما أكسبه حب الشعب وتقديره وخاصة الطبقات الشعبية اذ أصبح ينظر لخير الدين التونسي والحركة الاصلاحية من طرف الباي الجديد محمد باشا غير نظرة المرغوب فيهم نتيجة لدسائس قناصل الاستعماريين الذين بدؤوا الحرب ضد الحركة الاصلاحية. وبدأ الصراع بين الحركة الاصلاحية والباي الصادق، وانتهت المعركة بانتصار جزئي ومؤقت للحركة الاصلاحية في عام 1857 حيث اعترف فيه الباي بمنح الدستور للبلاد وسمي هذا الدستور بعنوان « عهد الامان » فكان ذلك انتصارا باهرا للحركة الاصلاحية بعد نضال دام عشرين سنة من أجل الاصلاح. وتوفي الباي محمد باشا سنة 1860 وتولى بعده أخوه محمد الصادق باي، فدخل رأسا تحت النظام الدستوري، خاضعا للحركة الاصلاحية وبدأت الانجازات الهامة تتحقق على صعيد العمل الاجتماعي، فتم مد خط البرق بين تونس وأوروبا عن طريق الجزائر وتأسيس المطبعة الرسمية وجريدة « الرائد التونسي »، وتكوين المجلس التشريعي، والمجالس البلدية سنة 1861، فأصبح خير الدين التونسي الزعيم المصلح الذي يقود هذا الطور من حياة تونس.

وبرز من جهة ثانية قوة تأثير النفوذ الفرنسي على تونس والنفوذ الشخصي الذي أصبح لنابليون الثالث، بما كان يبني عليه سياسته من التظاهر برعاية التقدم، وحماية الحرية، وأعانة الشعوب على الاستقلال في نطاق كيانها الوطني. حتى ان الباي محمد الصادق سافر للجزائر لملاقاة نابليون، واحاطه بما تم في تونس من الاصلاحات وسلمه نسخة من دستور تونس « عهد الامان ».

وقد اصطدم العهد الدستوري بأنواع من الصعوبات الداخلية والخارجية قامت في وجهه فأشعلت نار حركة علي بن غذاهم سنة 1864 وسقطت تونس في حالة من الخراب والدمار والفوضى، قضت بتعطيل الدستور وتوقيف عمل المجالس البلدية ودخلت البلاد في حرب أهلية سببت المجاعة والأمراض الخطيرة، ست سنوات كاملة. كانت ذريعة ملائمة للتدخل الأجنبي في البلاد التونسية والانقاص من استقلالها اذ وضعت أموال الدولة تحت الرقابة الأجنبية وتولّى الاشراف عليها «لجنة دولية» وكان ذلك سنة 1869.

التشهير بالحركة الاصلاحية :

فما كان من القوى الرجعية الا أن تشن حملة شعواء على خير الدين والحركة الاصلاحية، وبدأ التشهير بها وبسياستها الدستورية مما أجبر الحركة على ترك الحكم.

وقد أجبر هذا خير الدين التونسي على العزلة والابتعاد. وعلى اثر هذه العزلة التي فرضها على نفسه وفيها تفرغ للبحث والتأليف مما دعا رجال الحركة الاصلاحية التونسية إلى الاقبال عليه واندفعوا يدرسون النظريات ويبحثون عن الأسباب التي أدت بعملهم الاصلاحي للفشل. حتى تمخضت دراساتهم عن الكتاب الذي ألفه زعيم الحركة خير الدين بعنوان «أقوم المسالك في معرفة احوال الممالك» وجاء هذا الكتاب على غرار مقدمة ابن خلدون وقد بث في هذا الكتاب الروح الاصلاحية وعالج القضايا بفكر ثاقب ونفس اصلاحي. ووصف الحالة التي عليها أوروبا وكتب له مقدمة قيمة بين فيها الأسباب التي جعلت العالم الاسلامي في تخلف مادي وأدبي. وبين ما وصلت إليه فرنسا من ازدهار وكتب عن الاستبداد والحكم المطلق، والحرية والشورى والمسؤولية الحكومية وما يقوم في وجه التناسق المطلوب بينهما من المصاعب، وانه إذا تمكنت تلك المصاعب فقد تبيح الضرورة تقويض ادارة الدولة لشخص واحد مستبد في ظروف معينة وعلى قوانين محصورة (نفس فكرة محمد عبده فيما بعد عن المستبد العادل) وجعل هذه النظرة في الحكم الدكتاتوري ختام مقدمته، فكانت مبدأ الطريق الاصلاحي الجديد الذي قررت الحركة الاصلاحية وزعيمها خير الدين التونسي السير فيه لتحقيق أهدافهم الاصلاحية وهو طريق الاستيلاء على الحكم. وبرز كتاب خير الدين أقوم المسالك في سنة 1867 وبدأت المحاولات السياسية للتقريب بين الباي محمد الصادق والوزير خير الدين.

وفي سنة 1869 دعي لتولي رئاسة الحكومة وبعد توليه رئاسة الحكومة بدأ في الاسراع في تطبيق البرامج الاصلاحية، التي كان لها الأثر العظيم في تكوين النهضة

التونسية قبل الاحتلال واستمرت بعد الاحتلال وهي :

1 ـ انشاء المدرسة الصادقية.

2 ـ تنظيم التعليم بجامع الزيتونة.

3 ـ انشاء المكتبة العمومية « المكتبة العبدلية ».

4 ـ تشجيع الطباعة والصحافة.

وقد نجح خير الدين في تحقيق المبادئ الاصلاحية في انشاء المدرسة الصادقية واصلاح التعليم بجامع الزيتونة، بحيث أصبح الشباب العربي في تونس، على اختلاف منهجه الثقافي، متأثرا بالمبادئ الاصلاحية التي جاهدت الحركة الاصلاحية في سبيل تحقيقها أربعين عاما.

وفي سنة 1877 أجبر على الاستقالة نتيجة للمطامع الاستعمارية. وفي سنة 1890 توفي هذا الاصلاحي العظيم الذي كان لجهاده في سبيل نهضة بلاده واستقلالها أثر كبير على تطور الحركة الوطنية في تونس. ويتضح لنا ان الحركة الاصلاحية الوطنية في تونس وكفاحها من أجل التخلص من كل نفوذ أجنبي بدأ منذ حملة نابليون على مصر واحتلال الاستعمار الفرنسي للجزائر وفي أواسط القرن التاسع عشر (في 1857) وصلت الحركة الاصلاحية في تونس إلى أن حققت « عهد الامان » الذي يعتبر اعلانا لحقوق الانسان وللمبادئ الديمقراطية من حرية ومساواة بين الأفراد والحرية الشخصية وحرية المعتقد وعدالة الضرائب والذي كان مقدمة للدستور التونسي الصادر سنة 1860 وترى ان الحركة الاصلاحية في ذلك العهد الذي تولى فيه خير الدين الوزارة سنة 1833 أسرع في ادخال الأنظمة العصرية على جهاز الدولة التونسية وقد تناول عمله الاصلاحي الدوائر الحكومية والمحاكم الشرعية والمدنية والتعليم والاقتصاد والزراعة والصحة وقد كان عمله في مجال التعليم أساسا للنهضة والتقدم السريع الشيء الذي لم يستطع الاستعمار قهره على مر الأيام ولذا بقيت الروح الوطنية حية وبقيت الحركة الاصلاحية تكافح من أجل تقدم البلاد واستقلالها.

الفصل الثاني

الحركة الوطنية في بداية الاحتلال الفرنسي

في شهر ماي (ايار) من سنة 1881 احتلت الجيوش الفرنسية تونس . . ودخلتها من ثلاث مناطق عن طريق البر والبحر. واحتل الجنود الفرنسيون بقيادة الجنرال بربار بنزرت، وتوجهوا نحو تونس العاصمة . وفي 12 ماي عسكر الجنود الفرنسيون بالقرب من باردو (كانت مدرسة باردو الحربية قد أغلقت تماما عام 1870) . . وتوجه بربار ومعه القنصل الفرنسي لمقابلة الباي عند الساعة الرابعة مساء، وقدم له نسختين من معاهدة فرنسية معدة سلفا، وأمهله خمس ساعات ليقبل المعاهدة التي قدمها له أو يرفضها . . وبعد ساعتين خرج الباي وقد وقع على المعاهدة التي عرفت باسم معاهدة باردو.

وبـذلـك عند الساعة الثامنة من مساء 12 ماي سنة 1881 قضت فرنسا على استقلال تونس.

وقد نصت هذه المعاهدة على ان الاحتلال مؤقت، وان القوات الفرنسية سوف تحتل فقط جهات على الحدود والشواطئ تراها لازمة لتوطيد الأمن، وان هذه القوات سوف ترحل عندما تكون الادارة التونسية قادرة على حفظ الراحة والأمن والنظام، وان فرنسا ملتزمة بحماية شخص الباي وأسرته، وانه لا يحق للباي بأن يعقد أدنى عقد مع أجنبي بغير علم فرنسا والتفاهم معهامن قبل، وأنه سينوب عن فرنسا وزير مقيم فرنسي يراقب تنفيذ ما تضمنتـه المعـاهـدة، وان على حكومة الباي ان تتعهد بمنع ادخال الأسلحة والمهمات الحربية من جزيرة جربة ومرسى قابس وغيرها من المراسي بجنوب المملكة وذلك وقاية لبلدان الجزائر التي تملكها فرنسا.

من هنا تبدأ المعركة . . ولكنها لم تبدأ

لم يكن اللقاء الفاجع في هذا الموقف كله هو اللقاء بين الجنرال الفرنسي والباي . . ولكن اللقاء الفاجع حقا ابتدأ عندما اجتمع الباي قبل ذلك بيوم واحد مع مستشاريه ليستطلع رأيهم في مقاومة الاحتلال الفرنسي . . فكان من رأي اللواء « العربي زروق » ـ رئيس البلدية ـ عدم الاستسلام والانتقال إلى العاصمة واعلان المقاومة . فان الأمة كلها مع الباي . . وكانت ذروة المواجهة في اللقاء عندما دخل الباي ليجتمع بمستشاريه وأعوانه وبرجال الشرع من قضاة وأهل الفتوى . وقال هؤلاء للباي : إذا كان الباي يعلم انه لا قوة ولا قدرة له على المقاومة . . فان الشرع لا يرى مانعا من الاستسلام . ولكن العربي زروق انتفض يزأر في وجوه هؤلاء الذين لا يعبرون عن شرع أوشعب وانما يعبرون فقط عن مصالحهم الضيقة وأسكت هؤلاء الذين احتموا بالدعوة إلى التعقل والبعد عن المغامرة . ولم يضيع وقته . والتفت للباي وقال له :

ـ « الآن لم يبق وجه لتأخير ما اتفقنا عليه أمس، من انتقال سيدنا إلى تونس . وهنالك يتجمع حولك نحو من ستين ألف مقاتل من أمتك، ويقضي الله بيننا »،

ـ وكان جواب الباي اشارة حزينة بيده إلى العسكر المحاصر للقصر فكان جواب العربي : « من هنا تبدأ المعركة ».

ـ فقال الباي : ـ أتريد أن تخضب هذه اللحية بالدم ؟ ».

وكان الرد التلقائي من العربي زروق : « يذهب رأس واحد خير من ذهاب رؤوس أمة كاملة ».

في تلك اللحظة فقط انكشف كل شيء . . وكانت ذروة المواجهة بين أبناء الشعب المعبرين عن صوته وحكام الشعب الذين لا يحرصون على شيء الا على أرواحهم وكراسيهم .

وقام الباي غاضبا، وفض الاجتماع، ووقع على المعاهدة بسرعة وأصدر أمره بعزل العربي زروق من جميع وظائفه . . وكان مصير العربي زروق معروفا : اما القتل بواسطة الباي أو الفرنسيين أو الهرب . . وقد آثر الهرب . . بعد ان اشعل بموقفه ـ حتى وهو داخل قاعة مغلقة من قاعات قصر من القصور ـ شرارة الجهاد، التي سوف تلتهب شعلتها في قلب الشعب بل والجيش التونسي في ذلك الوقت . فقد اعلن كثير من أفراد الجيش عصيان أوامر الباي وأوامر ضباطهم . لقد كان الجنود التونسيون

الوطنيون دائما أوفياء للشعب. وفروا من ثكناتهم عائدين إلى أهلهم وقد صمموا على الثورة « وأعلن أكثر الجند المرابط بقصبة تونس العاصمة العصيان، وغادروا القصبة ملتحقين بالساحل وصفاقس ».

وتفجر الشعور الوطني غضبا على أولاد حسين (أسرة الباي) الخونة الذين باعوا البلاد للفرنسيين، وسجل الشعر الشعبي وحده هذه المشاعر التي فاضت بها البلاد وألهب حماسة الجماهير، فتفجرت المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الفرنسي. وتنادى الناس إلى الجهاد. ودارت معارك المقاومة الشعبية ضد عدوين اثنين في آن واحد : ضد الباي وجنوده وضد المحتل الفرنسي. ومن جبال خمير وغاباتها وأوديتها وعلى طول الساحل ومن الصحراء بالجنوب، وفي كل مكان من البلاد هب الشعب يدافع ويقاوم. وبرز زعماء شعبيون في كل منطقة . . فقد كان في جهة الكاف علي بن عمار قائد أولاد عيار وفي جهة القيروان كان القائد حسين بن مسعي وعلي بن عمارة ومن جهة القصرين كانت القيادة للحاج حرات، ومن جهة قفصة برز الزعيم الشعبي أحمد بن يوسف ومن جهة صفاقس ثارت مدينة صفاقس بقيادة محمد كمون ومحمد الشريف، وفي قابس كان الزعيم البارز في حركة المقاومة هو علي بن خليفة الذي يعتبر من أشهر قادة حركة المقاومة الشعبية . . اشتعلت المقاومة الشعبية في كل مكان : من الحامة، ونفزاوة، وفي مطماطة . . وسجل الشعر الشعبي بوجه خاص في ملاحم شعبية رائعة مازالت متداولة على ألسنة الشعراء الشعبيين معارك صفاقس، وخمير، وقابس، وجربة وجرجيس، والحمامات وتستور، والقيروان وغير ذلك من المعارك. ومازال تاريخ هذا الجهاد الشعبي لم يكتب حتى هذه اللحظة الكتابة العلمية، بل ان هناك شبه صمت لا ندري مصدره من جانب المؤرخين عندنا عن تسجيل هذه المعارك التي دارت ضد الاستعمار الفرنسي الذي انتهك أرض الوطن وضد الخونة الذين باعوا أرض الوطن وتعاونوا مع المستعمر الغاصب.

وإذا نظرنا إلى الاحتلال الفرنسي لتونس لرأينا جانبين للصورة : جانب استسلام مشين من جانب الباي وحاشيته، وجانب المقاومة الشعبية البطولي للاحتلال.

والجانب الأول هو موقف البرجوازية الخائرة المترددة المتطلعة فقط إلى المحافظة على امتيازاتها ولو أدى بها الأمر إلى التعاون الوثيق مع سلطات الاحتلال، والجانب الثاني هو الموقف الشعبي الوطني الذي تمثل في مقاومة الاحتلال بأي صورة من الصور، والاستمرار والاصرار على المقاومة بأسلوب واحد هو أسلوب العنف الشعبي العفوي أو المنظم.

وسوف يظل هذان الاتجاهان ملازمين للحركة الوطنية التونسية طوال فترة النضال الوطني ضد الاحتلال. وسيفرز الاتجاه الأول الشكل المعروف تاريخيا للحركة الوطنية الـذي تمثـل في أسلوب المفـاوضات والتصالح مع المحتل والمطالبات بالاصلاحات الجزئية على صفحات الجرائد، وقد تصدر لقيادة هذا الاتجاه والتعبير عنه الوطنيون التونسيون الذين غلبت عليهم الثقافة الفرنسية والذين كانوا يطالبون فرنسا « بتحسين حالة التونسيين ورفع الضيم عنهم والغاء الفوارق بنيهم وبين الفرنسيين » . . ومثل قمة التطور في هذا الاتجاه أصدق تمثيل الحزب الدستوري الجديد ولذا فان تاريخ الحركة الوطنية صور كما لو كان هو تاريخ هذا الاتجاه وحده. اما الاتجاه الثاني الذي تمثل في حركات المقاومة الشعبية التي قادها الوطنيون البسطاء والرجال الشعبيون منذ الأيام الأولى للاحتلال وأفرزت حركات الكفاح المسلح ضد الاحتلال ولكنها طمست تاريخيا وأهيلت عليها الرمال سواء من جانب المحتل الفرنسي أو البرجوازية الوطنية. فعند وصول القوات الغازية واستسلام الباي وحاشيته وتوقيعه معاهدة باردو صورت تونس ـ لدى مؤرخي الحركة الوطنية الرسميين ـ كما لو كانت مستسلمة بالكامل. ولكن ذلـك كان غير صحيح . فعنـدمـا اعتقـدت فرنسا ان الأمر انتهى وان جميع التـونسيين قد رضخوا، ثار الشعب وخاصة أهل الجنوب التونسي الذين ثاروا ثورة عارمة طوال فترة الصيف وجعلوا الاحتلال الفرنسي على وشك ان يطرد مما جعل فرنسا تعيد غزوها من جديد للبلاد، وضاعفت قوات الغزو، وأرسلت حملة عسكرية جديدة مؤلفـة من 45 ألف جندي كاملي الاستعداد والعتاد لمواجهة الشعب الاعزل حتى تمكنت من القضاء على الثورة الشعبية وإتمام احتلال البلاد، ولم يعبر عن هذه الملاحم البطولية التي خاضها المجاهدون الا الشعراء الشعبيون، وإذا بحثنا عن تاريخ هذا الكفاح الشعبي فلن نجد له أثرا الا عند هؤلاء الشعراء الشعبيين.

وقد ابتدأت المقاومة الشعبية خلال فترة الجزع والذهول الذي أصاب البلاد عند الاحتلال الفرنسي بالتصدي العفوي الشعبي. فقد خرج فرسان الاعراب ورجالاتهم وأعلنـوا العصيان على سلطة البـاي الـذي سلم البـلاد للفرنسيين وهاجموا الجيش الفرنسي كما هاجموا أيضا الجيش الذي وجهه الصادق باي لمقاومة الثوار. وقد دارت المعارك على النحو الذي أشرنا إليه واستشهد الآلاف من أبناء الشعب وتألفت جماعات تلقائية وعفوية لمقاومة المحتل الغاصب في أماكن متفرقة من البلاد. وقد تعاون بعض الخـونة مع المحتل الغاصب مثل أبي رغال الذي كان مرشدا للمحتلين ضد الثوار وكذلك احمد المدلجي الذي قلده الفرنسيون وسام الشرف الفرنسي ثمنا لخيانته شعبه. وكما عرفنا اشترك في المقاومة الشعبية كثير من الجنود الذين كانوا في بلاط الباي وقاموا

بتنظيمها وقادوا الهيئات الشعبية المسلحة مثل سعد قم البناني الذي قاد حركة بلغ عدد أفرادها عدة آلاف بالساحل وأوقع بالفرنسيين خسائر فادحة وقد طاردته القوات الفرنسية، وعندما وقع أسيرا في يد الفرنسيين حوكم محاكمة صورية « عسكرية » ثم اعدم في ميدان عام بالقيروان بعد ان حشدت الجماهير من قريته بنان قسرا ونقلت إلى القيروان وجمع الناس من كل المنطقة ليشهدوا اعدام البطل الشعبي حتى يقضى على روح المقاومة.

وعندما تم لفرنسا السيطرة على البلاد، وأصبحت تحكمها « باسم الباي من أعلى مستوى إلى أدناه »، واقتصر دور الباي على ختم الأوامر دون ان يستشار حتى في صياغتها وفي احيان كثيرة كان لا يعرف مضمونها واكتفى بالحرص على قبض راتبه ومخصصاته التي يصرفها له الفرنسيون. وبطبيعة الحال لم تحترم فرنسا معاهدتها التي فرضتها على البلاد فرضا وانما عمدت إلى البلاد التي احتلتها على انها مزرعة يجب ان تستغل لمصلحة الفرنسيين وحدهم .(وقد استقرت من قبل في تونس جالية فرنسية ضخمة سيطرت على حياة البلاد الاقتصادية من مناجم وصناعات ووسائل نقل وتجارة وزراعة . ومن ثم أصبحت هذه الجالية تهيمن في واقع الأمر على مقدرات البلاد السياسية، وكان يدعم هذه الجالية في فرنسا أولئك الفرنسيون المتعصبون المؤمنون بحق فرنسا الاستعماري في « تحضير » أهل البلاد تحضيرا قمعيا على الطريقة الفرنسية. وكانت هذه الجالية الفرنسية تتسم بنفسية مفعمة بالحقد والتعصب ضد الوطنيين وصاروا بعد الاحتلال يطالبون الحكومة الفرنسية بالشدة القصوى ضد العرب، وكان هؤلاء المعمرون يعتقدون ان التونسيين لا يفهمون الا لغة القوة ولغة الرصاص وقد ذكر أحدهم انه يمدنهم عن طريق رميهم بالرصاص.

وإذا عجزت تلك الشركات أو بعضها عن تدبير رأس المال اللازم، وجدت الدعم والمساعدة من الحكومة الاستعمارية. وقد ترتب على هذا الوضع من ان الصناعات الأساسية ووسائل المواصلات وغيرها من وسائل الانتاج والمشروعات الاستغلالية أصبح في أيدي فرنسيين محتلين اعتقدوا ان تونس صارت لهم وان اهلها اقل من مرتبة البشر ولذا فانهم يشعرون بأنهم ليسوا جزءا من أهل البلاد ويحتقرون أشد الاحتقار أن يكون أهل البلاد جزءا منهم ولكن الأرض، أرض البلاد وحدها بثرواتها هي من حقهم وحدهم.

وقد وضعت « الاقامة العامة » يدها على الادارة جملة وتفصيلا وبذلك أوقفت تطور كل شيء في البلاد. وقد لاحظ المؤرخون الفرنسيون أنفسهم مثل لانسان « انه بعد

ست سنوات من قيام الحماية أصبحت الصناعة في البلاد التونسية بعد ان عرفت بعض فروعها ازدهارا كبيرا في حالة احتضار » وذكر شارل اندري جوليان في كتابه « المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي » ان الاقامة العامة لم تعط أية عناية لحماية الصناعات التقليدية من مزاحمة المنتوجات الصناعية المستوردة وان الاستعمار الرسمي أدى إلى اقصاء عدد كبير من صغار الفلاحين والخماسة وجعلهم أجراء وان الوجود الفرنسي في تونس أطاح بالهياكل التقليدية للحياة الاقتصادية وان ظروف عمل الاهالي كانت تقودهم حتما إلى الموت السريع !.

وقد سيطرت فرنسا على التعليم . . فأخضعته لنظم فرنسية، حتى أصبح الطالب يتقن الفرنسية ويفقه أسرارها ويتذوق أدبها، أما أدبه ولغته فهي أمور بعيدة عنه.

وبالرغم من سيطرة الاستعمار الفرنسي على كل شيء . . فان الشعب التونسي لم يرضخ ولم يقبل بالمذلة والهوان . . بل قاوم الاحتلال الفرنسي الغاشم ولم يبخل رغم بدائية السلاح الذي كان في أيدي المجاهدين عن تقديم آلاف الشهداء. ولقد كانت قصة الحركة الوطنية في تونس - كأي حركة نضالية - قصة دامية . . ويمكن ان نجعل بداية تاريخ الحركة الوطنية عندما واجه محمد العربي زروق الباي وطالب الباي وحكومته باعلان الحرب على فرنسا وطالب بأن تقوم القوات المسلحة التونسية بمقاومة الاحتلال الاستعماري وصرخ في وجه الباي وحكومته « من هنا تبدأ المعركة » وأضاف ان نموت أحرارا دفاعا عن شرفنا وشرف الوطن أفضل من حياة العبودية والذل ».

لقد بدأت المقاومة شعبية عنيفة منذ الاحتلال . . ولكنها كانت لا تقوم على أسس تنظيمية واضحة . . فبينما كانت قبائل جبال خمير على الحدود الجزائرية الشمالية ومدن صفاقس والقيروان وقابس والجنوب تقاوم الجيش الفرنسي وتقدم آلاف الشهداء، وقد وضع الشعب كل ما يملك في سبيل الثورة . . ومن النفسية الثائرة من الخضم الشعبي الزاخر بالامكانيات . . الزاخر بالقوة والنقمة على المستعمر الغاصب . . من هذه نبتت في تونس الحركة الوطنية وكان أول من بادر إلى مقاومة سلطات الاحتلال الاستعماري هو الشيخ (محمد السنوسي) بعد فرار اللواء (العربي زروق) خوفا من نقمة الباي وقد قاد الشيخ (محمد السنوسي) الحركة الوطنية وشكل وفودا شعبية ذهبت لمقابلة الباي تطالبه بايقاف الفرنسيين عند حدهم. فما كان من السلطات الاستعمارية الا ان نفت الشيخ محمد السنوسي إلى خارج تونس. وقد قاد بعده الشيخ (المكي بن عزوز) أحد شيوخ الزيتونة الثوريين الحركة الوطنية وكون مجموعة من الشباب التونسي الثوري الذي استمر في مقاومة الاستعمار وقد توفي هذا الشيخ بعد

نفيه إلى المشرق العربي، وان يكن الشيخ (المكي بن عزوز) قد توفي فان أفكاره لم تمت اذ تبناها مجموعة من الشباب الوطني وكان من بينهم الشيخ عبد العزيز الثعالبي وسرعان ما اجتمع هؤلاء التلامذة المتأثرون باستاذهم (الشيخ المكي بن عزوز) وكونوا جريدة باللغة الفرنسية للدفاع عن مصالح التونسيين أسموها (المستقبل التونسي) وأخرى عربية تحمل اسم (حبيب الأمة) واخرى هي (سبيل الرشاد) كان يديرها الشيخ الثعالبي نفسه وكان إلى جانب الشيخ الثعالبي بعض العناصر الوطنية أمثال (علي كاهية) والشيخ (زروق) و (الهادي السبعي) .

وبعد عودة الشيخ محمد السنوسي من المنفى دعا إلى تكوين حركة العروة الوثقى التي تعرف على أهدافها عندما كان منفيا في مصر.

حركة العروة الوثقى :

في سنة 1882 برزت حركة إلى الوجود وكانت ذات طابع سري ، أسسها المرحوم المناضل الاصلاحي الكبير السيد جمال الدين الافغاني أطلق عليها اسم « العروة الوثقى »، وكان هدف هذه الحركة تحرير العالم الاسلامي وتوحيده، وقد انضم من المغرب العربي إلى هذه الحركة الشيخ محمد بيرم الخامس والبطل الجزائري الأمير عبد القادر. وفي سنة 1882 حكمت السلطات الاستعمارية الفرنسية في تونس على الشيخ محمد السنوسي بالنفي فسافر إلى القاهرة وقد تعرف على أهداف « جمعية العروة الوثقى » أثناء اقامته بالقاهرة عن طريق الشيخ محمد بيرم الخامس والأمير عبد القادر الجزائري وقد عاد إلى تونس بعد اقامته في المنفى قرابة السنة . وفي سنة 1883 بدأ يعمل ويبشر، وينشر مبادئ العروة الوثقى التي اعتنقها . وقد وجدت هذه الفكرة في أوساط التونسيين استجابة قوية وحماسا كبيرا ، وخاصة من علماء جامع الزيتونة الثائرين وأركان الحركة الاصلاحية ، وبصفة خاصة الشيخ سالم بوحاجب وتلاميذه من طلبة جامع الزيتونة . وقد أصبح لحركة العروة الوثقى في تونس تأثير كبير وملحوظ . وقد انضم التونسيون إلى العروة الوثقى وكافحوا في سبيل نشر مبادئها بكل الامكانيات وكان من أبرز اعضائها المؤسسين من التونسيين الشيخ محمد بيرم الخامس والشيخ محمد السنوسي والشيخ سالم بوحاجب. وهم الذين أوحوا للسيدين جمال الدين الافغاني ومحمد عبده بفكرة اصدار مجلة العروة الوثقى في باريس وعند صدورها في باريس كتب الشيخ محمد السنوسي رسالة مؤثرة إلى الشيخ (1) محمد عبده يقول فيها واصفا حالة العالم الاسلامي :

---

1) محمد الفاضل بن عاشور (الحركة الادبية والفكرية في تونس) .

أمة فؤادها عليل قد منيت اطوارها بالتبديل وتلاشت منها القوى وعظم بها الوجى، فأصبحت رهينة آلام أوهت منها قوة الاعتصام، تطرق حدقاتها إلى نيل العز القديم، مستكشفة ما شخص من ذلك الأديم الذي لا تستطيع إليه نهوضا، وقد رأت حبل اعتصامها به منقوضا، فعز دواؤها وأحاط بها أعداؤها.

وهذه أبيات من الشعر قالها الشيخ السنوسي بمناسبة صدور العدد الأول من مجلة العروة الوثقى في سنة 1884 بباريس :

لئـن دجـت الاحـلاك بالغيهـب الأبقـى
وضلـت حلـوم بعـد أن طرقـت طرقـا

فقـد وضـح الصبـح الذي بـان عنـدما
أنيـط جمـال الديـن بالعـروة الوثقـى

زيارة الامام محمد عبده لتونس :

وفي شهر نوفمبر سنة 1884 قام الشيخ محمد عبده بزيارة لتونس استمرت أربعين يوما اتصل خلال اقامته فيها بأركان الحركة الاصلاحية وعلماء جامع الزيتونة وعقد اجتماعات تنظيمية بأعضاء جمعية العروة الوثقى الذين انخرطوا فيها بتأثير من الشيخ السنوسي الذي كانت تعقد هذه الاجتماعات التنظيمية في بيته واستطاع أعضاء جمعية العروة الوثقى أن يشرحوا للشيخ محمد عبده الآلام التي كانت تعانيها تونس من جراء السياسية الاستعمارية المتعفنة.

وبمغادرة الشيخ عبده تونس شعر بارتياح كبير لما وجد عليه أعضاء العروة الوثقى من التونسيين من تحمس لرسالة الجمعية وايمان لا يتزعزع بضرورة توحيد الأمة العربية والمسلمين في كافة أقطارهم. وبقيت الصلة النضالية الحميمة قائمة بين أعضاء العروة الوثقى من التونسيين وعلى رأسهم الشيخان السنوسي وبوحاجب، وبين أعضاء العروة الوثقى بالمشرق وعلى رأسهم الامام محمد عبده والكواكبي ورشيد رضا. كما ربط أعضاء العروة الوثقى بتونس صلة وثيقة بمجلة المنار التي كانت تصدر بالقاهرة، ولم تنقطع الصلات النضالية على مر الزمن ورغم تقلب الأحوال والنظم بين الحركة الوطنية في تونس والحركة الوطنية في المشرق وبقيت موجودة بالرغم من محاولة كثير من الاقليميين ودعاة الانعزالية في المشرق والمغرب.

حركة جريدة الحاضرة :

وفي 3 أغسطس من عام 1888 أسس مجموعة من الشباب الوطني التونسي جريدة

بالعـربية سميت بجـريدة « الحـاضرة » وتولى ادارتها المرحوم علي بوشوشة وهو من خريجي المدرسة الصادقية وقد دعم البشير صفر الذي أصبح زعيم الحركة الاصلاحية الثاني وأبو النهضة الوطنية بعد الرائد الأول خير الدين التونسي وأصبح مقر جريدة الحاضرة هو النادي الذي يجتمع فيه أركان الحركة الاصلاحية وأركان العروة الوثقى البشير صفر، والشيخ السنوسي والشيخ سالم بوحاجب ومحمد القروي وبدأت هذه المجموعة التي اتخذت من جريدة الحاضرة صوتا لها شن الحملات على السلطات الاستعمارية والتنديد بمحاولة ادماج الشعب العربي في تونس وتذويبه في بوتقة الفرنسة والقضـاء على المقـومـات الـوطنية والحضـارية للشعب العربي في تونس إلى جانب الاستيلاء على الثروات والامكانات. وأصبحت جريدة الحاضرة بهذا تمثل المجموعة ولها شكل الحزب السياسي مما أزعج السلطات الاستعمارية، وفي سنة 1889 برزت إلى الوجود جريدة عربية اسمها « الزهرة » أصدرها عبد الرحمن الصنادلي الذي درس بمصر وتخرج عند الشيخ محمد بيرم الخامس التونسي الذي استقر بالقاهرة بعد هروبه من اضـطهـاد الفـرنسيين وأصبح قدوة لرجالات المغرب العربي الفارين من قبضة الاستعمار. وقد ساهمت هذه الجريدة في فضح سلطات الاحتلال.

معهد الخلدونية :

وفي سنة 1896 دعا زعيم الحركة الاصلاحية الثاني البشير صفر إلى تكوين جمعية سميت باسم الجمعية الخلدونية وكان الهدف من تكوينها هو ادخال الاصلاح على جامـع الزيتونة ومساعدة طلبة جامع الزيتونة على تحسين مستواهم التعليمي. وقد لعبت هذه المؤسسة الوطنية بقيادة مؤسسها الأول البشير صفر دورا وطنيا عظيما في نشر العلم والثقـافـة الحديثة واذكاء الروح الوطنية في الشباب التونسي وذلك عن طريق الدروس والمحاضرات وتلقين اللغات العصرية حتى أصبحت محط انظار رجال عموم افريقيا الاسلامية وطلبة شمال افريقيا بجميع بلدانه وأمصاره.

جريدة سبيل الرشاد :

وفي سنـة 1901 أصدر عبد العزيز الثعالبي جريدة سبيل الرشاد وكان عبد العزيز الثعالبي من طلبة جامع الزيتونة ومعهد الخلدونية ومن الملازمين للشيخ سالم بوحاجب والأستاذ البشير صفر ثم عطلها وسافر إلى الاستانة ومصر. ويقول عنه الأستاذ محمد الفاضل بن عاشور: « عاد منها غريب الشكل والنزعة والمنطق والقلم، يتكلم بأفكار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ومعجبا بالكواكبي وحسن حسني الطويراني ويدعو إلى التـطور والحـرية وفهم أسرار الدين وأسرار الوجود، ويعجب بمقالات الحكماء والطبيعيين ذلك هو الشيخ عبد العزيز الثعالبي الذي لم يكد يرجع من مصر حتى

أحاطت به هالة من أهل العلم والأدب، أصبحت ألزم له من ظله، فكان يتنقل بهم في مجامع العاصمة التونسية، ناديا سيارا مأخوذين بحلاوة تعبيره وفصاحة منطقه وقوة عارضته، ومقدرته على تحليل المواضيع استرسالا بلا ملل ولا فتور وبدأ الناس يلتقطون من كلامه سقطات في مسائل الخلاف بين الصحابة، والأولياء والكرامات ويشيعونها على وجهها أو على غير وجهها حتى بلغت أسماع كبار الشيوخ الناقمين على التطور فأثارتهم ثورة عارمة أدت بهم إلى تناسي خلافاتهم ودفعتهم لمقاومة الثعالبي والخلدونية مقاومة لا هوادة فيها، وقد تقدموا بدعوى إلى المحاكم ضد عبد العزيز الثعالبي الذي اعتبروه خطرا عليهم وعلى مصالحهم وخاصة في هجومه على الرجعية والرجعيين والمتدروشين وقد حوكم الثعالبي وسجن فكان سجنه انتصارا للحركة الجديدة ». (١). ووضحت الفوارق ظاهرة جلية بين التيار التقدمي الاصلاحي وبين التفكير الرجعي القديم الذي يرفض كل اصلاح. وبسجنه تكون عطف من الكثيرين عليه وتقوت الحركة الاصلاحية به وبنكبته وزاد روح النهضة الفكرية توهجا ودعوتها انتشارا بتكاثر الصحف الأسبوعية، بعد ان صدر قانون جديد للصحافة، في سنة 1901، خفف من قيودها ورفع وجوب الضمان المالي المرهق، الذي كان كل طالب لامتياز صحيفة مطالبا بايداعه، فأصبحت الصحف على كثرتها، وجميع اصحابها من متخرجي الخلدونية، تخوض في المباحث الدينية وتناصر الفكرة الاصلاحية، وأصبحت فكرة العروة الوثقى منتشرة في تونس وصار لافكار الشيخ محمد عبده صدى بعيد في تونس. ولما أحس بهذا الارتباط بينه وبين التونسيين، خاصة وان الأشياء التي كان ينادي بها في مصر قد تحققت في تونس بتأسيس معهد الخلدونية وما انبعث عنه من حركة اصلاحية، قرر في شهر اكتوبر سنة 1903 زيارة تونس والجزائر للاتصال باخوانه هناك. وقد استقبل من طرف رجال الاصلاح في تونس استقبالا حارا وأقامت الحركة الاصلاحية وخاصة جماعة جريدة الحاضرة احتفالا بمقدمه ودعي لالقاء محاضرة بالخلدونية فألقى محاضرة بقاعة المحاضرات بالخلدونية عنوانها « العلم وطرق التعليم » أيد فيها بشدة الاتجاهات الاصلاحية التي كان ينادي بها رجال الحركة الاصلاحية في تونس. وتعتبر الأفكار الاصلاحية التي بسطها الشيخ محمد عبده في محاضرته الركيزة التي قامت عليها حركة اصلاح برامج التعليم الزيتوني. وقد تولت نشرها تباعا جريدة الحاضرة ونقلتها عنها كل من « المؤيد » والمنار، كما تم طبعها مرتين، مرة بتونس والأخرى بمصر.

---

1) الحركة الأدبية والفكرية في تونس.

نادي قدماء الصادقية :

بعد الاحتلال الاستعماري لتونس نشأ جيل من التونسيين وجد البلاد ترزح تحت وطأة الاستعمار في سلاسل العبودية. ومن بداية الاحتلال عملت الادارة الاستعمارية على نشر الثقافة الفرنسية لتحل محل الثقافة العربية، فأخذت تنشر المدارس التابعة للادارة أو التابعة للمؤسسات التبشيرية وأصبحت هذه المدارس تزاحم الكتاتيب القرآنية وجامع الزيتونة ومعهد الخلدونية. وبسبب هذا وجدت في تونس ثقافتان متنافرتان. وقد عمل الاستعمار على تغذية الصراع الثقافي بين الثقافتين : ثقافة أهل البلاد العربية والثقافة الفرنسية الغربية.

وكان من آثار هذا الدور الاستعماري التخريبي أن تعلم كثير من التونسيين في هذه المدارس التبشيرية حتى قبل الاحتلال. فترعرع جيل كامل من المثقفين بالثقافة الأجنبية، وهم من أبناء البرجوازية، فاقدا للحس الوطني، ومتعاليا على الشعب ومحتقرا لكل ما هو شعبي ولكل ما يمت إلى الشعب بصلة. يعيش بجسمه في تونس وبروحه وفكره في باريس والعواصم الأوروبية الأخرى. وقد تكاثر أمثال هؤلاء من أبناء البرجوازية الذين سمحت لهم ظروفهم المالية وانتماؤهم البرجوازي حتى شكلوا مجموعة كبيرة معادية كل المعاداة لكل ما يربط تونس الغالية بماضيها الحضاري العربي المجيد.

دور البشير صفر :

فشعر الأستاذ البشير صفر زعيم الحركة الاصلاحية في تونس في مطلع هذا القرن بخطورة هذا الاتجاه، وعمل على محاربته بدون هوادة، واستطاع بما له من مناقب ذاتية وثقافية أن يكتل مجموعة من الشباب ويربطهم بقضية بلادهم. ودمج البعض منهم في الحركة الاصلاحية. وصادف ان انعقد مؤتمر ثقافي في سنة 1904 باشراف « الجمعية الجغرافية » شارك فيه الأستاذ البشير صفر بمحاضرة قيمة تحدث فيها عن تاريخ الجغرافيا عند العرب ألقاها باللغة الفرنسية مما أثر في بعض الفرنسيين أنفسهم، وعلقت جريدة « الزمان » الفرنسية على المحاضرة القيمة هذه فقالت : « بأن البشير صفر أثبت بجدارته واتساع ثقافته انه لا يوجد فرق بين الجنس العربي والجنس الفرنسي من حيث الكفاءة والمقدرة »، ودعت « الحكومة الفرنسية لأن تسلك سياسة مرنة تجاه العرب التونسيين لكي يندمجوا في العقلية الغربية ». وتبنت الصحف الاشتراكية الفرنسية الصادرة بتونس هذا الرأي وركزت عليه واستطاعت هذه الصحف أن تستميل بعض المثقفين التونسيين للكتابة والتحرير في هذه الصحف.

وبدأ بالفعل بعض هؤلاء بالكتابة في هذه الصحف، وخاصة عبد الجليل الزاوش وحسن قلاتي اللذان كسبا بعض العطف من الاشتراكيين الفرنسيين والديمقراطيين الذين وقف البعض منهم في البرلمان وطالب بالعدل والمساواة بين العرب والفرنسيين إ مما أثار اعجاب الشباب التونسي المثقف بالفرنسية . وكان لهذا الاعجاب من طرف الشباب التونسي آثاره البعيدة والقريبة على اتجاهاتهم السياسية والفكرية وصادف ان جرت مناقشة بخصوص (قضية مراكش) قام فيها النائب الاشتراكي « جوريس » خطيبا فدعا فرنسا لأن تدخل المغرب الأقصى باللين لا بالعنف. وهكذا نجد ان الفرنسيين الاشتراكيين منهم أو الاستعماريين يعملون على احتلال أقطار المغرب العربي، فمنهم من يؤمن بحق فرنسا الاستعماري وتحقيقه عن طريق الغزو والعنف ومنهم من يعمل بطرق الكياسة والدهاء لتذويب الحضور العربي لاقطار المغرب في الحضور الفرنسي وقد كان (البشير صفر) زعيم الحركة الاصلاحية في تونس متيقظا لهذه الالاعيب الاستعمارية فشن حملات صحفية في جريدة الحاضرة دفاعا عن استقلال الشعب المغربي الشقيق ووحدته وربط بذلك الصلة بين الحركة الوطنية في تونس والحركة الوطنية في (مراكش) وحذر (البشير صفر) ورفاقه الشعب المغربي في مراكش من الالاعيب الاستعمارية والدسائس الخطيرة التي كان المستعمرون الفرنسيون ينسجون خيوطها لاتمام واحكام قبضتهم على أقطار المغرب العربي الثلاثة .

ويتضح من مواقف الحركة الوطنية في تونس انها لم تكن تقصر نضالها أو نشاطها في القطر التونسي وحده بل على ساحة المغرب العربي وساحة الوطن العربي كله .

وقد دفع ذلك بالشيخ عبد العزيز الثعالبي إلى تأليف كتابه « الروح الحرة للقرآن » الذي ترجمه إلى الفرنسية الهادي السبيعي، من خريجي الصادقية الذين يحسنون الفرنسية. « وطبع الكتاب سنة 1905 ، وكتبت عنه جريدة الاهرام وترجمت مقدمته في شهر اكتوبر من العام نفسه * » .

وقد انزعجت الصحافة التي تعبر عن النزعة الاستعمارية الفرنسية، وبدأت بشن حملة شعواء على العرب ووصفتهم بأبشع الأوصاف، واستمرت في حملتها التحقيرية ضد العرب التونسيين. الا ان البشير صفر زعيم الحركة الاصلاحية في تونس استمر يطالب بحقوق التونسيين الوطنية وتقدم بمطالب الحركة الوطنية للرأي العام الفرنسي والحكومة الفرنسية في سنة 1906 وقد ساندت الصحافة الاشتراكية الفرنسية الصادرة

---

*) الحركة الأدبية والفكرية في تونس للاستاذ الفاضل بن عاشور

في تونس المطالب التي تقدم بها البشير صفر وطلبت من الحكومة الفرنسية أن تعامل المثقفين بالفرنسية من التونسيين معاملة خاصة ووجوب اشراكهم في الندوات والمؤتمرات لكشف خلفياتهم الفكرية واتجاهاتهم السياسية. وانساق البعض من المثقفين التونسيين وراء هذا الفخ الاستعماري المنصوب لهم. وعاد البشير صفر لمحاربة هذا الاتجاه. وأعلنها صراحة بأن ارتباط الحركة الوطنية في تونس يجب أن يكون مع الحركة الوطنية في المشرق العربي. وشذ عن قيادة البشير صفر بعض الشباب البرجوازيين، وعلى رأسهم محمد الأصرم، الذين أصبحوا ينادون بالتعاون مع الفرنسيين. وقد سعى رني ميلي الذي شغل منصب مقيم عام لفرنسا بتونس مع مجموعة من كبار الاستعماريين الذين احكموا السيطرة على اقتصاديات المغرب العربي، إلى العمل على عقد مؤتمر استعماري عقد في مدينة مرسيليا سنة 1906 بمناسبة المعرض الاستعماري الدولي. ودعوا مجموعة من الشباب التونسي للحضور. فلبى الدعوة الشباب الميال إلى الفرنسة، وانتدبوا لتمثيلهم في هذا المؤتمر محمد الأصرم ومحمد العياشي، وجوبه المؤتمر بالرفض من طرف البشير صفر والشباب الوطني التونسي.

وقد طالب محمد الأصرم في هذا المؤتمر بنشر التعليم الفرنسي حتى في الكتاتيب القرآنية، ودمج أطفال العرب بأطفال الفرنسيين منذ الطفولة المبكرة. ودعا إلى أن يكون الشباب التونسي المثقف ثقافة فرنسية أداة الاتصال بين العرب والفرنسيين في جميع المجالات. وبهذا الاتجاه الذي سار عليه الاصرم في تفكيره، والذي يعتبر هدما للمبادئ التي قامت عليها الحركة الوطنية الاصلاحية في تونس، وهي المحافظة على عروبة تونس وحمايتها من السير في طريق الغرب وحضارته، تحددت صور الخلاف بين الوجهتين فتم الانفصال بينهما فما كان من المثقفين ثقافة فرنسية الا ان دعوا إلى تكوين جمعية خاصة بهم سميت « جمعية خريجي الصادقية » القدامى. وكان من بين المتحمسين لهذه الفكرة والداعين لها علي باش حانبه. وقد تأسست هذه الجمعية في سنة 1906. وأسندت رئاستها إلى المثقف التونسي خير الله بن مصطفى وبدأت تسير في خطها السياسي المنغمس كلية في الفرنسة إلى جانب الابتعاد كل الابتعاد بل الاستهزاء بكل ما هو عربي، وتطرفوا في عدائهم للثقافة العربية والحضارة العربية، وجعلوا من هذا النادي أداة نشر للثقافة الفرنسية والحضارة الغربية. وللتعبير عن ولائهم المطلق لهذه الثقافة وهذه الحضارة بدؤوا بدعوة كبار المثقفين الفرنسيين ورجال الأدب والفن لالقاء سلسلة من المحاضرات في مواضيع شتى، مما أجبر الشعب العربي في تونس أن يقف منهم موقفا سلبيا ويحارب اتجاهاتهم الغريبة. فأحس خير الله بن

مصطفى، رئيس الجمعية بخطورة هذا الاتجاه فنبه هؤلاء إلى عدم التطرف وفتح الحوار مع الحركة الاصلاحية من جديد ودعوة مثقفي الزيتونة والخلدونية إلى المشاركة في القاء المحاضرات في النادي. وبالفعل لبى الزيتونيون هذه الدعوة وألقى مجموّعة منهم محاضرات قيمة ابتدأها الشيخ النخلي بمحاضرة عنوانها « دولة المأمون » والشيخ محمد الخضر حسين بمحاضرة عنوانها « الحرية في الاسلام » والشيخ الطاهر بن عاشور بمحاضرة عنوانها « أصول المدنية والتقدم في الاسلام ». وقد كان لمشاركتهم صدى بعيد في نفوس الناس. وبدأ الزيتونيون بتنظيم سلسلة من المحاضرات والندوات في الخلدونية.

وبعودة الوئام بين المثقفين ثقافة عربية والمثقفين ثقافة غربية شعر الشبان التونسيون المثقفون بالثقافة الغربية بالخطأ، خاصة وان الصحافة الاستعمارية الفرنسية رغم تطرفهم لم ترحمهم، وان اعتمادهم على العناصر الديمقراطية والاشتراكية في فرنسا لم يجدهم نفعا، وانهم بابتعادهم عن تراثهم وروح أمتهم سيلحقون بتونس وطنهم أفدح الأخطار ويجنون في حق أمتهم العربية. وقد شعروا بالخطأ في منهاجهم السابق ووقفوا صفا واحدا مع اخوانهم في مواجهة الاستعمار، وانصبت عليهم حملات الشتائم في الصحف الاستعمارية ووصفتهم بالتعصب القومي وعدم الاخلاص لفرنسا ولثقافتها واتهموهم بالانتماء للحركة الوطنية في تركيا ومصر وبالتنكر لفرنسا وللحضارة الفرنسية التي علمتهم.

وكان لاتصال حركة الشباب التونسي بالأستاذ (محمد فريد) (1) الذي زار تونس وناقش النخبة المثقفة فيها ودعاهم إلى تذويب الخلافات الثقافية وحثهم على مواجهة المستعمر صفا واحدا لا فرق بين المثقفين ثقافة عربية والمثقفين ثقافة فرنسية. وقد كان لهذا التوجيه أكبر الأثر في نفوسهم وخاصة ان الاستعمار كان في خطته يرمي إلى الاستيلاء على البلاد رويدا رويدا واتضح لهؤلاء الشباب عندما قامت حركة كفاح مسلح في سنة 1907 بمدينة القصرين انهم ازاء ثورة بقيادة (علي بن عثمان) زعيم منطقة القصرين. كانت هذه الثورة المسلحة كرد فعل من طرف الجماهير الشعبية على الاستعمار الفلاحي الذي أراد اغتصاب أراضي الفلاحين وتوزيعها على المستعمرين الفرنسيين وانتهت حركة (علي بن عثمان) المسلحة في القصرين بتدخل عسكري فرنسي مكثف واعتقل قائدها وأعدم رميا بالرصاص.

---

1) محمد فريد الزعيم المصري المعروف

الفصل الثالث

تطور حركة النضال الوطني

لقد وقفنا في الفصل السابق على بدايات تكون الحركة الوطنية في تونس . . وعرفنا أنها بدأت نضالاتها باتخاذ اسلوب الكفاح المسلح طريقا للنضال، ولكنها لجأت في أحيان أخرى إلى المظاهرات والاضرابات والاحتجاجات .

ولم تنتظم هذه المقاومة في تنظيم ذي محتوى سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي الا بعد تجارب مريرة خاضها النضال الوطني ضد سلطات الاستعمار والمعمرين . وقد انتقل النضال الوطني إلى جبهة الكفاح على الصعيد الثقافي والاجتماعي الذي قام به الشعب العربي في تونس منذ تأسيس المدرسة الصادقية إلى الخلدونية إلى المطالبة باصلاح التعليم في الزيتونة إلى تكوين الصحف التونسية .

حركة تونس الفتاة

ومن خلال هذه المعارك الضارية على هذا الصعيد الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والعمل بدأ الوعي لدى الشباب التونسي يتجه إلى العمل السياسي التنظيمي . وأخذت هذه الفكرة تتبلور في أذهان المثقفين التونسيين . وفي سنة 1907 بالضبط تأسست أول حركة سياسية منظمة لمقاومة الاستعمار في تونس بقيادة علي باش حانبه والشيخ عبد العزيز الثعالبي ومحمد باش حانبه . وقد تأثرت هذه الحركة في نظامها وأهدافها بحركة « تركيا الفتاة » . وقد لعبت هذه الحركة دورا قويا وبارزا في الفترة الواقعة بين سنة 1907 وسنة 1912 . وقد كانت تتمتع بتأييد شعبي قوي، وساهمت بشكل فعال في دفع طريق النضال إلى الامام، وبدأت في محاولة تنظيم الجماهير في اطار الحزب وخرجت بذلك من الاطار الذي أراد الفرنسيون ان تكون عليه وهو مجموعة

من المثقفين تكون أداة في يدهم لكي تكون عاملا مساعدا في نشر الحضور الأوروبي لكي يحل محل الحضور العربي. لكن التجربة التي كانت لهؤلاء مع الفرنسيين جعلت منهم وطنيين مرتبطين بشعبهم وأمتهم. وكانت هذه أول ضربة توجه للاستعمار الفرنسي من طرف التونسيين المثقفين بالفرنسية ومن شباب تونس الذي أرادوه ان يكون أداة هدم لحضارة البلاد ومستقبلها المرتبط أشد الارتباط بوحدة الأمة العربية في المشرق والمغرب.

وأول عمل قامت به حركة « تونس الفتاة » هو انشاء جريدة بالفرنسية سميت بجريدة « التونسي ». وأعلنت برنامجها السياسي والاجتماعي والاقتصادي. وبعد انشاء جريدة « التونسي » واعلان البرنامج انضم إليها أغلب الشباب، وساندها الشعب في ذلك وتضامن معها. وبذلك تم قبر الخلافات على الصعيد الثقافي بين المثقفين ثقافة عربية والمثقفين ثقافة فرنسية أي ان « الانتلجنسيا » المثقفة ثقافة زيتونية والمثقفة ثقافة فرنسية تضامنتا. وكان أبرز وجوه هذا التضامن هو انضمام الشيخ عبد العزيز الثعالبي للعمل مع علي باش حامبه في حركة تونس الفتاة.

وعندما لاحظ الاستعماريون الذين كانوا يتبعون حركة الشباب التونسي خطوة خطوة ان حركة الشباب ابتعدت عن روح مؤتمر مرسيليا الاستعماري وأهدافه، أحسوا بالخيبة. ودفعتهم خيبتهم هذه إلى المحاولة من جديد للانحراف بالشباب التونسي، فدعوا إلى عقد مؤتمر جديد في باريس في سنة 1908 واختاروا له عنوانا جديدا هو مؤتمر شمالي افريقيا. بعد تخطيط ودراسة دقيقة للاستفادة من التجربة الماضية لكي يوقعوا بالحركة الوطنية في الفخ. وكان لولب هذا المؤتمر والمتحمس له رني ميلي الذي كان مقيما عاما لفرنسا بتونس. وتمت دعوة المثقفين التونسيين من خريجي المعاهد فحضر وفد من سبعة مفكرين برئاسة زعيم الحركة الاصلاحية البشير صفر ومساعده خير الله بن مصطفى وعبد الجليل الزاوش، وعين لرئاسة هذا المؤتمر جونار الحاكم العام للجزائر، وهو من الدهاة الذين يدعون إلى التقارب مع العرب لفرنستهم.

وألقى رني ميلي خطابا مسهبا أثنى فيه ثناء مطلقا على الحضارة العربية الاسلامية ووجه لوما شديدا للأوروبيين الذي حكموا حكما طائشا، على حد قوله، على جميع الثقافات ماعدا الثقافة الأوروبية، وأشاد بالدور الذي لعبه الاسلام في نشر العلم في أوروبا وفي تقدم العلوم والحضارة الانسانية. ولكنه أكد على وجوب تقوية الحضور الفرنسي في شمال افريقيا حين صرح بأن معرفة الأوروبيين بالاسلام شرط أساسي للحفاظ على وجودهم بشمالي افريقيا واستمرار مصالحهم هناك.

والمتأمل في هذا الاتجاه يتضح له ان رني ميلي يريد ان يقول ويؤكد على ان ليس في نية العرب الشمال افريقيين الانفصال عن فرنسا . ولكن أخطأ الفرنسيون في ذلك لأن موقف المفكرين التونسيين جاء ليسفه أحلامهم ويكذب أمانيهم .

وقد اتضح ذلك جليا في موقف كل من البشير صفر وخير الله بن مصطفى إذ أكد الأول على عروبة تونس وانها جزء من الوطن العربي والعالم الاسلامي وطالب الثاني بتعريب التعليم وانشاء مدارس ابتدائية على غرار المدارس المصرية والسورية . وسجل الشباب التونسي انتصارا فكريا في هذا المؤتمر مما كان له صدى جيد في نفوس الوطنيين التونسيين جميعا . ولم ترحمهم الصحافة الفرنسية فشنت عليهم حملة شعواء ، وخاصة خير الله بن مصطفى الذي طالب بتعريب التعليم . وبدأت الحركة الوطنية تحقق على الصعيد الثقافي الانتصار بعد الانتصار. وأصبحت الحركة الوطنية في تونس تنفصل يوما بعد يوم عن الفرنسة وتقترب شيئا فشيئا من جذورها التاريخية .

وبعد ذلك ، وفي سنة 1909 بالتحديد ، اصدر علي باش حانبه نسخة من جريدة التونسي بالعربية ترأس تحريرها الشيخ عبد العزيز الثعالبي وبذلك انفصلت الحركة الوطنية نهائيا ـ بتأثير الثعالبي ـ عن التأثير الثقافي الغربي ومعاداة الثقافة العربية . وقد أصبح مقر جريدة التونسي هو مقر قيادة الحركة الوطنية .

وهنا يمكن أن نلخص مدلول ما سبق . . فقد وجد تياران : تيار وطني متفرنس الثقافة يتطلع نحو الحرية مع الارتباط بالغرب بوجه عام وفرنسا بوجه خاص ، وتيار وطني عروبي اسلامي قومي يتطلع نحو الحرية مع الانفصال التام عن الغرب بوجه عام ومقاتلة فرنسا بوجه خاص . وقد كان التياران متصادمين متخاصمين ثم انتصر التيار الوطني العروبي الاسلامي القومي وتلاقى التياران على صعيد وطني تونسي يتطلع إلى خدمة تونس كجزء من أمة أوسع . . ولكن هذا التلاقي كان مؤقتا.

وقد خاضت الحركة الوطنية أيضا في سنة 1910 معركة اخرى بسبب محاولة اليهود التونسيين اكتساب حق نظر قضاياهم امام المحاكم الفرنسية وليس أمام المحاكم التونسية . وقد نظرت الحركة الوطنية إلى هذه المحاولة من جانب المواطنين التونسيين اليهود نظرة سياسية لأنها بداية لحركة تجنيس بعض الفئات الوطنية بالجنسية الفرنسية . وكان ذلك سببا في عقد أول مؤتمر شعبي اذ دعت الحركة الوطنية لهذا المؤتمر جميع الشعب ، وعرف هذا المؤتمر بمؤتمر البلماريوم الذي خطب فيه قادة الحركة الوطنية وألحوا على التمسك بجنسيتهم وقوميتهم وتفانيهم في الدفاع عنها واحتجوا على محاولة تجنيس اليهود التونسيين بالجنسية الفرنسية .

قضية تجنيس اليهود التونسيين :

كان الفرنسيون قد أصدروا مرسوما سمي بمرسوم (كريميو) الذي كان يقضي بتجنيس اليهود الجزائريين دفعة واحدة وعملوا على تطبيق هذا المشروع نفسه في تونس فدفعوا باليهود التونسيين لشن حملة شعواء على السلطات القضائية التونسية كخطوة تمهيدية للانفصال عن جنسيتهم التونسية وكسب الجنسية الفرنسية في مقابل ذلك وقفت الصحافة الاستعمارية الفرنسية في تونس إلى جانب اليهود وقد كان الهدف من هذه الحملة الفرنسية هو العمل على تقوية الجالية الفرنسية التي كانت قليلة العدد في ذلك الوقت والتي كانت الجالية الايطالية تفوقها عددا .

وقد شعر عرب تونس بخطورة هذا الموقف الذي أصبح يتحدى وجودهم في كل لحظة من تهجير وجلب جاليات أجنبية وتوطينها في تونس من مالطيين وكورسيكيين وايطاليين وفرنسيين .

وقد كان القصد من هذه الحركة هو اضعاف أهل البلاد ومزاحمتهم حتى في لقمة عيشهم فما كان من الحركة الوطنية في تونس الا ان وقفت تحارب هذه الخطة التي تقضي بتجنيس اليهود بشكل جماعي باعتبار ان ذلك يمس السيادة الوطنية وقد تزعم (علي باش حامبه) و (احمد الصافي) حركة المقاومة وأدت بالنهاية إلى حركة ضد اليهود ودعوا الشعب إلى مقاطعة اليهود اقتصاديا وأدبيا الشيء الذي جعل السلطات الاستعمارية تتراجع في تطبيق هذا القانون وهذه الخطة وقد استطاع الشعب العربي في تونس بعد مقاطعته لليهود اقتصاديا أن يتحفز وأن ينشط اقتصاديا وتجاريا مما أدى إلى انبعاث روح الحرص على احتلال مراكز الصدارة في الحركة الاقتصادية للبلاد التي كانت محتكرة من قبل التجار اليهود وكسبت الحركة الوطنية بذلك المعركة وهكذا فانه كلما كان الاستعمار يخطط وينسج مؤامراته ضد البلاد وجد المجابهة من طرف الشعب العربي في تونس بقيادة (الانتلجانسية) التي تملك بيدها الثقافة والوعي إلى جانب الحس الوطني وبالمجابهة الموحدة استطاع شعب تونس ان يبقى مواصلا لرسالته في الحياة بالرغم من كل ألاعيب الاستعمار ومؤامراته .

وفي نفس العام أي سنة 1910 قام طلبة جامع الزيتونة بمظاهرات وأضربوا عن الدراسة مطالبين باصلاح التعليم الزيتوني، وقد وجدوا مساندة من الحركة الوطنية . وقد بلغت درجة الوعي حدا كبيرا لدى طلاب جامع الزيتونة الذين عرفوا بنضالهم الضاري وكفاحهم المستميت من أجل احياء الثقافة العربية وبعثها من جديد . وقد بدأ كفاح الزيتونيين من أجل اصلاح التعليم منذ عام 1901 . وفي سنة 1907 شكلوا جمعية طلابية خاصة بهم تسمى « جمعية طلبة الزيتونة » .

وقد كان لكفاح الزيتونة طلابا وشيوخا فضل كبير على تطور الكفاح الوطني مما دفع بالحركة الوطنية إلى الامام. وبذلك كان جامع الزيتونة ملهما للنضال ومصدر ازعاج للسلطات الاستعمارية الغاشمة.

وقد كان الزيتونيون في طليعة الكفاح الوطني منذ القديم حيث انه بانضمامهم للحركة الوطنية تقوت هذه الحركة بعناصر نشطة وحركية بالاضافة إلى انها قومية.

وبدأت الحركة الوطنية في تونس تسير على منوال الحركات الوطنية في افريقيا وآسيا ذات الطابع الأصيل. خاصة بعد فشل دعاة الارتماء في احضان الغرب من جراء :

1 ـ تعنت الاستعماريين واحتقارهم للتونسيين.

2 ـ قوة التيار الشعبي المعادي لكل ما هو أجنبي والمتعلق بأهداب القومية.

3 ـ اعتداء ايطاليا على طرابلس.

4 ـ انضمام الثعالبي وبعض الوطنيين الزيتونيين للحركة أمثال الشيخ صالح الشريف والشيخ الخضر حسين والشيخ اسماعيل الصفائحي.

5 ـ احداث الوطن العربي والعالم الاسلامي التي أحيت الأمل في النفوس خاصة بعد انتصار الدولة العثمانية 1897 ومحاولة السلطان عبد الحميد اشاعة سلطته الروحية على البلاد الاسلامية، وكذلك تبني الجناح الاصلاحي في حزب الاتحاد والترقي بزعامة أنور باشا لسياسة قومية، وأيضا سياسة الحزب الوطني المصري الذي كانت تربط قادة الحركة الوطنية في تونس بقادته مصطفى كامل ومحمد فريد على وجه الخصوص علاقات شخصية، وتأسيس حزب الرابطة الاسلامية في الهند سنة 1907 [1]

كل هذه العوامل جعلت الكفاح الوطني التونسي يتجه الوجهة القومية. ويعبر عن هذا الاتجاه الجديد الذي لم يكن واضحا في البداية عند الزعيم علي باش حانبه في جريدة التونسي الصادرة بالفرنسية في مقال افتتاحي أعلن فيه بكل صراحة ووضوح عن السير قدما جنبا إلى جنب مع الحركات المناهضة للاستعمار في آسيا وافريقيا. وقد صمم على السير في هذا الاتجاه الوطني القومي وبدأت جريدة التونسي تشن الحملات على الصحافة الاستعمارية وقد بين باش حانبه في جريدة التونسي « انه ليس من قصد الشباب التونسي قطع صلته بماضيه المجيد ولا بالجماهير الشعبية التي يستمد منها العون والدعم ولا يمكن ان نتخذ سياسة تصطدم بالشعور الوطني والقومي الذي نتعاون على خدمته مع الصحافة الوطنية العربية ».

---

1) تاريخ الحركة الأدبية والفكرية في تونس لمحمد الفاضل بن عاشور

وقد هاجم صاحب جريدة « المعمر » الاستعماري الفرنسي المعروف ديكارنيير في جريدته هذه جريدة « التونسي » وأسرتها وشهر بسياستهم الوطنية الاسلامية. وقد رد علي باش حانبه على ديكارنيير بقوله : « ان كل عربي مسلم أو مسلم غير عربي هو من انصار وحدة العالم الاسلامي وان التونسيين قاطبة انصار ومؤمنون بوحدة العالم الاسلامي ومتعلقون بالرابطة العثمانية التي هي نتيجة تلك الفكرة ومظهرها الباهر وإذا كانت ثقافتنا الغربية قد أكسبتنا عقلية جديدة فاننا بصفة كوننا مسلمين فاننا قد احتفظنا بولائنا الخالص لاخواننا المسلمين في جميع الأقطار فالأتراك والمصريون والسوريون يوحون إلينا بهذا الاحساس كما يوحي به إلينا اخواننا في الجزائر والشعوب الآسيوية في الشرق الأقصى ».

ومن هنا يتضح ان الاتجاه الجديد لحركة تونس الفتاة كما يعبر عنه علي باش حانبه وقادة الحركة الاخرون يرتكز على العمل على أساس اسلامي مرتبط برمز يتمثل فيما كان يسمى بالخلافة الاسلامية أو الرابطة العثمانية. وهذا يعد تحولا أساسيا في تفكير حركة الشباب التونسي المثقف بالفرنسية. وقد أفاد الاستعمار ـ من حيث لا يريد الافادة ـ الحركة الوطنية بسبب مواقف الازدراء والاحتقار لكل ما هو عربي حتى ولو كان يسعى إلى الاندماج في الفرنسة . . وبسبب مواقف الفرنسيين المتعنتة وكرههم للعرب ورفضهم لأية مشاركة من طرف التونسيين في الادارة والعمل.

كل هذا جعل الحركة تعود إلى جذورها الشعبية التي اتخذت في هذا الوقت مظهرا اسلاميا كرد فعل مقاوم وعنيد للاحتلال الفرنسي الذي أراد أن يعمل على انحلال وتذويب الشخصية الوطنية ذات المظهر الاسلامي.

الحركة الوطنية والحرب الطرابلسية :

في سنة 1911 هاجم الاستعمار الايطالي الفاشستي أرض طرابلس العربية فهب الشعب العربي في تونس لمناصرة اخوانه بالمال والرجال. وكانت حركة تونس الفتاة بقيادة علي باش حانبه والثعالبي تمد المناضلين الطرابلسيين بالأموال والمتطوعين وتقوم بتسهيل عبور الضباط الأتراك من مرسيليا إلى طرابلس عبر الحدود التونسية. وقد مست حرب طرابلس بأحداثها الدامية الشعب العربي في تونس مباشرة فهب للدفاع عن اخوانه في طرابلس وتسابق الشعب في تونس للتطوع في صفوف المجاهدين الطرابلسيين وتكونت حركة دعم ومساندة وتسابق الناس وتفانوا في جمع التبرعات والاكتتاب لتموين المجاهدين وتسليحهم واسعافهم. وأسسوا هلالا أحمر لحمل المؤن والأدوية للمجاهدين. ولما مر قادة الجيش التركي مصطفى كمال وأنور باشا ونوري

باشــا في طريقهم إلى طرابلس استقبلوا في تونس استقبــالا شعبيا رائعــا احتفـاء بحضورهم وأقامت الحركة الوطنية مهرجانا خطابيا عبر فيه الشعب العربي في تونس عن شعوره بأن الاعتداء على اخوانه في طرابلس هو اعتداء عليه.

وإلى جانب هذا اصـدرت الحـركـة الـوطنية في تونس جريدة سميت « الاتحـاد الاسـلامي » وأسندت رئاسة تحريرها إلى الزعيم الشيخ عبد العزيز الثعالبي. وقد شارك الشعـراء والكتـاب والأدبـاء بأقـلامهم فيها وشنوها حملات شعواء وأطلقوها صيحات مدوية استنكارا للاعتداء على طرابلس. هذا على الصعيد السياسي. واما على الصعيد الشعبي فقد كان لموقف الشعب العربي في تونس وخاصة منطقة الجنوب التونسي مشاركة فعالة اذ حملت أغلب القبائل القاطنة بالجنوب، من حوامد ومحاميد وتـوازين وورغمة ومرازيق وهمامة، السلاح والتحقوا بصفوف المجاهدين بطرابلس الـذين تربطهم بهم روابط القربى. وقد تجلى هذا المظهر الرائع في وحدة الشعبين بوحدة الجهاد والكفاح المشترك ضد الاستعمار الايطالي الذي اتخذ من أرض طرابلس هدفا لحملته الصليبية الاستعمارية.

وإلى جانب مشاركة القبائل التونسية في الجهاد وحمل السلاح قامت في تونس معارك طاحنة بين الايطاليين من جهة والعرب التونسيين من جهة ثانية. وكانت آخر معركة هي ما تسمى بمعركة الجلاز.

انتفاضــة الجلاز :

الجلاز مقبرة اسلامية تقع في المدخل الجنوبي للعاصمة التونسية. وهذه المقبرة لها مكـانـة خاصة عند التونسيين نظرا لاحتوائها على « جبل التوبة » المعروف « بجبل سيدي أبي الحسن » و« مغارة أبي الحسن الشاذلي » الصوفي المشهور صاحب الطريقة الشهيرة منذ أكثر من ستة قرون، وقبور عدد كبير من العلماء ومشاهير الرجال.

وأرض المقبرة وقف. ولكن « جمعية الأوقاف » أوكلت أمر القيام بشؤونها إلى البلدية بحجة انها لا تتمتع بأي مركز يضمن لها دخلا ثابتا يكفي للقيام بشؤونها.

السبب المباشــر :

وقد اتخذت البلدية من اقتطاع بعض المواطنين للحجارة من جبل التوبة ذريعة لتقديم طلب للمحكمة العقارية في 26 سبتمبر 1911 لتسجيل المقبرة. فحصلت على اذن بذلك وعينت يوم 7 نوفمبر 1911 تاريخا للقيام بعملية المسح والتسجيل. وشاع في الناس هذا الخبر فثارت ثائرة المواطنين خاصة وان عملية التسجيل كانت تعني

عند الطبقات الشعبية اضفاء صبغة الجنسية الفرنسية على الأرض التي يصبح النظر في قضاياها من مشمولات المحاكم الفرنسية أو المحاكم المختلطة التي يسيطر عليها الفرنسيون. وتوالت الاحتجاجات وعريضات الاستنكار الموقعة من آلاف المواطنين.

وانتشر خبر في الناس مفاده ان الغرض من التسجيل انما هو اقتطاع جزء منها لمد خط حديدي للترام، وكان بغض الشعب لشركة الترام شديدا لأنها ترفض دائما استخدام التونسيين، واقتطاع جزء آخر لاضافته إلى الطريق الرئيسي رقم 1 الرابط بين تونس وطرابلس.

وتحت وطأة اشتداد المعارضة الشعبية وموجة الاحتجاجات التي كانت المساجد وخاصة جامع الزيتونة منطلقا لها، اعلنت البلدية عن عدولها عن التسجيل ولكن الجماهير الشعبية لم تصدق الخبر وظنته خدعة لصرفها عن المقبرة فتجمهرت في فجر 7 نوفمبر في المقبرة وما حولها. وازداد الغضب الشعبي تأججا حين قدم في الصباح رئيس البلدية ومندوب عن الحكومة ومندوب عن المجلس المختلط ومهندسو ادارة القيس ومساعدوهم وقوة من الشرطة، وصاحت الجماهير مرددة ألفاظ السب والشتم وهاتفة بخيانة رئيس البلدية. وعندما ألقى البوليس القبض على عدد منهم هجم الجمهور على شيخ المدينة وأحاطوا به من كل جانب وهددوه بأنه لن يفلت من قبضتهم إذا لم يطلق سراح اخوانهم. وتظاهر البوليس بالاستجابة لمطالبهم حتى تمكنوا من ابعاد رئيس البلدية عن الجمهور ثم أطلقوا وابلا من رصاصهم على الجمهور فتساقط عدد من القتلى والجرحى. وقابل الجمهور الأعزل هذا الارهاب الأعمى بضرب العصي ورمي الحجارة. ودارت معركة رهيبة بين الطرفين وتساقط الشباب تحت طلقات الرصاص وغطت الدماء أرض المعركة وهتفت الجماهير « بالجهاد في سبيل تحرير الوطن » و « الويل للمعتدين ». وكان هذا انذارا بفشل البوليس في السيطرة على الموقف والتصدي لسيل الجماهير وهي تضرب بكل ما تملك من عصي وأحجار وخناجر وتطورت المعركة ليحصل صدام دموي بين التونسيين والأجانب وخاصة الايطاليين.

الأسباب الحقيقية :

لا شك في ان السبب الحقيقي في انتفاضة الجلاز يعود إلى رغبة الجماهير الشعبية في الانعتاق والتحرر من حكم المستعمر الدخيل. فهذه الانتفاضة في واقع أمرها حلقة من حلقات النضال الشعبي وواحدة من تلك المناسبات التي كان الشعب يعبر فيها عن سخطه على الحكم الأجنبي للبلاد ولاشك أيضا ان بعض الأوضاع الداخلية والخارجية ساعدت على بلوغ الغضب الشعبي ذروته وحصول الانفجار :

1 **حرب طرابلس** : التي هاجم فيها الاسطول الايطالي مدينة طرابلس قصد احتلال الشقيقة ليبيا فوقف الشعب التونسي وقفة رجل واحد تضامنا مع اخوانه وبذل قصارى جهده لمساعدتهم بجميع الطرق المتوفرة لديه وتكونت اللجان الشعبية والجمعيات لجمع التبرعات والأسلحة للمجاهدين وانسابت القوافل عبر الحدود متجهة نحو طرابلس تحمل المؤن والذخائر، بالرغم من الحراسة المشددة التي حاول الفرنسيون فرضها مساعدة منهم لايطاليا على احتلال البلاد.

وقد تمكن عدد كبير من التونسيين من الوصول إلى طرابلس والالتحاق بصفوف المقاتلين واستشهد كثير منهم على أرض المعركة.

ولاشك ان محاولة الحصار التي سعت السلطات الاستعمارية الفرنسية إلى ضربها حول المجاهدين في طرابلس اعتبرت من طرف التونسيين تآمرا على حرية الشعب العربي في ليبيا فأصبح التونسيون ينظرون إلى الفرنسيين على انهم شركاء للايطاليين في الجريمة، مما أوغر صدور التونسيين على الفريقين.

2 ـ **حرب المغرب** : احتلال الفرنسيين لمدن عربية بالمغرب منها مدينة فاس الأثرية الشهيرة، تمهيدا لفرض الحماية على القطر المغربي الشقيق.

3 ـ **اشتداد المظالم** المتمثلة في الضرائب التي أثقلت كاهل الشعب وسلب الأراضي الخصبة وتسليمها للمعمرين الأجانب، واقصاء المواطنين التونسيين عن المناصب السياسية والادارية الهامة وعجز الباي وأعوانه عن وضع حد لهذه المظالم، والتجنيد الاجباري للتونسيين وارغامهم على القتال في صفوف الجيش الفرنسي ضد اخوانهم في المغرب.

غدر الطليان :

وكان عدد كبير من أبناء الجالية الايطالية يقطنون بالقرب من ساحة المعركة فدفعهم تعصبهم ضد التونسيين، وقد حرك في نفوسهم عطف التونسيين على اخوانهم الليبيين الذي تجلى في حرب طرابلس، إلى الغدر بالتونسيين فصبوا نيران أسلحتهم من النوافذ والسطوح نحو التونسيين وطعنوا اخرين بالخناجر حين دخلوا إلى الاحياء التي يتكاثرون فيها. وحين أدرك التونسيون ما حل باخوانهم هاجموا الطليان بعنف وطاردوهم في كل مكان.

وقتل في هذه المعركة ضابط الشرطة فرانكي كما جرح ثلاثة شرطيين جروحا بليغة إلى جانب اصابات اخرى عديدة كما قتل عدد من الايطاليين يقدر باثني عشر قتيلا وجرح اخرون. وهاجم المواطنون عربة للترام وحطموها تحطيما.

تدخل الجيش :

وتدخل الجيش لوضع حد للقتال فاشتبك مع الجماهير الغاضبة واستمرت المناوشات والصدام إلى ما بعد منتصف النهار استعمل فيها جند الخيالة سيوفهم ضد الشعب بلا شفقة ولا رحمة، وسقط عدد كبير من القتلى والجرحى من بينهم النساء والصبيان، واستمرت الحوادث المتفرقة كامل النهار.

الاصابات:

أهملت الصحف والدوائر الرسمية ذكر عدد القتلى والجرحى، اخفاء منها للحقيقة وتجنبا للفضيحة أمام الرأي العام. ويعتقد الملاحظون ان عدد الاصابات بين التونسيين كان كبيرا وربما بلغ مائة قتيل وضعف هذا العدد من الجرحى. اما عدد الاصابات بين الأجانب ومعظمهم من الايطاليين فأقل من ذلك بكثير.

الاعتقالات واجراءات القمع :

وقد اعتقل اكثر من ثمانمائة تونسي وقدموا إلى المحاكمة. منهم اثنان وسبعون امام المحكمة الجنائية الفرنسية في قضية واحدة بتهم مختلفة منها القتل أو المشاركة فيه أو محاولة القتل، والسرقة، والاعتداء على أمن الدولة وقد تم اعلان الحكم العرفي بالبلاد ومنع التجول ليلا وتم اغلاق جميع المقاهي بالاحياء العربية وتعطيل رخص بيع الأسلحة ومنعها وجمعت الأسلحة من الناس. كما تم تعطيل الصحف التونسية العربية الواحدة تلو الأخرى.(1)

الاحكام :

وكانت المحاكمة مهزلة تجلى فيها تنكر السلطات الاستعمارية التام لكل القيم الانسانية المتمثلة في العدالة والحرية، وسيادة الاغراض الشخصية، وتسخير القضاء لفائدة المستعمرين، وتنظيم المحاكمات الصورية خدمة للمصالح الاستعمارية وتنفيذا لأوامر السلطة البوليسية والعسكرية.

أما المتهمون فقد أنكروا جميعا ما نسب إليهم ولكنهم أبدوا شجاعة ورباطة جأش كبيرين.

وقد صدر الحكم بالاعدام في حق سبعة من المتهمين. أما الباقون فقد تراوحت الأحكام في حقهم بين الأشغال الشاقة المؤبدة والبراءة.

---

1) راجع كتاب معركة الجلاز (للجيلاني بن الحاج يحيى ومحمد المرزوقي).

وفي صباح يوم 26 اكتوبر تم تنفيذ حكم الاعدام بالمقصلة في ساحة باب سعدون في الشهيدين الشاذلي القطاري والمنوبي الجرجار بعد ان رفضت السلطات طلبا بالعفو عليهما.

وأرسل كثير من المتهمين إلى «كيان» المستعمرة الفرنسية بأمريكا الجنوبية حيث قضوا احكاما بالأشغال الشاقة المؤبدة، أو لمدد معينة.

وقد تجلى من احداث الجلاز ان الجماهير الشعبية وحدها هي القادرة على التصدي للارهاب والعنف الاستعماري بقوة ودون خوف أو تردد. وهي لهذا تمثل معينا لا ينضب للنضال والصمود والتحدي للوجود الاستعماري كما أظهرت احداث الجلاز مدى تمسك الشعب بعروبته واستعداده للدفاع عن حقوقه حتى الموت كما أظهرت وحدة الشعب العربي في كل من ليبيا وتونس ضد غدر الطليان وقسوة المستعمرين الفرنسيين.

حادثة مقاطعة الترام

وكان لحادثة الجلاز آثار ومخلفات اذ لم ينته نضال الشعب عند هذا الحد، بل تواصل بطرق ووسائل شتى برغم الارهاب والتعذيب والمحاكمات الجماعية وتنفيذ احكام الاعدام بقسوة ونفي المواطنين وتشريدهم. من بين هذه المخلفات قضية اغتيال الكولونيل فانيل يوم 7 نوفمبر سنة 1911 التي حكم فيها بالاعدام على تونسيين هما عبد الله بن العايش وعمر بن الحاج عثمان.

ولكن أبرز هذه الأحداث حادثة مقاطعة الشعب للترام الكهربائي، وكان حقد الشعب على شركة الترام كبيرا بسبب سلوكها العنصري البغيض. فقد كانت لا تستخدم الا الأجانب وحتى القلة من التونسيين الذين تستخدمهم كانوا يلاقون سوء المعاملة من رؤسائهم زيادة على أجورهم المنخفضة كثيرا بالنسبة للأجانب وانعدام فرص الترقية بالنسبة لهم.

وبما ان أغلب العاملين في الشركة من الايطاليين، فقد عمدوا إلى استثارة التونسيين، ابان حرب طرابلس، وايذائهم بالكلمات الجارحة والعبارات المشينة التي فيها تحد لشعورهم القومي وسخرية من اخوانهم المجاهدين في ليبيا الشقيقة والتونسيين المشتركين معهم في الحرب.

وإغراقا في التحدي كان بعض سائقي الترام يعتمدون السرعة الكبيرة في الاحياء قصد اقلاق المارة وادخال الخوف في نفوسهم. وقد أدت هذه السرعة إلى سحق بعض التونسيين.

وقد بلغ غضب الشعب ذروته على اثر حادثة من هذا القبيل ذهب ضحيتها طفل تونسي مما أدى إلى مقاطعة الركوب في عربات الشركة مقاطعة تامة. وطال أمد المقاطعة فأصبحت الشركة مهددة بالافلاس مما دفع بالسلطات الاستعمارية إلى التدخل لوضع حد للأزمة باللين أولا وبالارهاب والتهديد أخيرا. وتعبيرا عن ارادة الشعب اتفق قادة الحركة الوطنية على التدخل لانهاء المقاطعة مقابل مطالب تتعهد الشركة بقبولها، وشكلوا لجنة لهذا الغرض ضمت علي باش حانبه، محمد نعمان، أحمد الصافي، الشاذلي درغوث، محمد العروي، ومجمل مطالبها :

1 ـ طرد العمال الطليان وتعويضهم بتونسيين وفرنسيين.

2 ـ مساواة كافة العمال مساواة تامة بدون تمييز في الجنسيات.

3 ـ تخفيض السرعة في الاحياء العربية.

4 ـ استعمال العربية إلى جانب الفرنسية في كتابة العناوين والمحطات والارشادات.

5 ـ الزام عمال الشركة باحترام الركاب من التونسيين.

6 ـ طرد كل من يتسبب في قتل أي انسان من سائقي الشركة. وقد رفضت الشركة مطالب التونسيين.

كما ان السلطات الاستعمارية تحركت اذ رأت ان زمام الأمور يكاد يفلت من يدها فصبت جام غضبها على زعماء الحركة الوطنية الذين حملتهم مسؤولية المقاطعة، وتم اعتقال وابعاد علي باش حانبه، وعبد العزيز الثعالبي والشاذلي درغوث ومحمد العروي ومحمد نعمان والمختار كاهية. واشتدت المقاطعة على اثر نفي زعماء الحركة إلى الجزائر وفرنسا. وارتفع صيتهم لدى الشعب، ولم تنفرج الأزمة الا بعد تراجع فرنسا في قرارها واذنها بعودة قادة الحركة من منفاهم.

وكانت احكام النفي قد صدرت في حق علي باش حانبه الذي هاجر إلى تركيا والشيخ عبد العزيز الثعالبي الذي التحق بالجزائر ثم مصر.

وقد استقبلت الدولة العثمانية قادة الحركة الوطنية المنفيين وساعدتهم على مواصلة كفاحهم من الخارج وأسندت إلى بعضهم مناصب عالية ليسهل عليهم العمل في سبيل استقلال بلادهم.

وقد التحق كثير من الوطنيين بالقسطنطينية والشرق العربي أمثال شيوخ الزيتونة الشيخ الخضر حسين والشيخ صالح الشريف والشيخ اسماعيل الصفائحي، ومعهم محمد باش حانبه الذي سافر إلى جنيف وأسس بها لجنة تونسية جزائرية وأصدر مجلة « المغرب » بالفرنسية التي كانت لسان الحركة الوطنية في المغرب العربي كله.

وقد كان هؤلاء يعملون مع علي باش حانبه وآخرين على الاعداد للكفاح المسلح ضد الاحتلالين الايطالي والفرنسي في المغرب العربي عن طريق الاتصال السري المنظم بالعناصر الوطنية في تونس والجزائر وليبيا.

واستمرت الأحداث تلو الأحداث والشعب يعاني من كيد السلطات الاستعمارية وتآمر الجاليات الأجنبية وتظهر لنا أحداث عام 1906 في تالة والقصرين التي أراد الاستعماريون فيها الاستيلاء على أراضي المواطنين مدى قسوة المعمرين الفرنسيين. وكان رد الفعل الشعبي عنيفا مما أدى إلى الثورة وقتل أحد المعمرين الشرسين وزوجته وقامت مظاهرات عنيفة امتدت من تالة للقصرين وسقط فيها ضحايا كثيرون من التونسيين.

وكانت الانتفاضات الشعبية تتلو الواحدة منها الأخرى فكلما حاول الاستعماريون افتكاك أراضي التونسيين وتسليمها للمعمرين الأجانب غضب الفلاحون ومن ورائهم الشعب كله وثاروا وحصلت صدامات دموية.

والواقع ان الشعب عانى الكثير من الويلات على يد الأجانب وخاصة المعمرين. ومن الأحداث التي سجلها لنا المؤرخون لهذه الفترة واقعة فظيعة حصلت بسوق الخميس صلب فيها معمر فرنسي بعض عماله وألحق بهم ألوان العذاب. وكان ذلك في صبيحة يوم عيد الاضحى سنة 1922. ومن الأحداث أيضا حادثة المرسى التي تجلى فيها عبث الجالية الأوروبية بأرواح الناس.

وقد وصفها الشاعر التونسي الشاذلي خزندار بهذه الأبيات التي تصف حال التونسيين وما يعانونه من عبث الأجانب خير وصف:

في الجد أو في اللعب ... أرواحنا في نهب
من حادث لحادث ... مستنكر مستغرب
حتى متى والتونسي ... مستهدف للكرب
لم يخل يوم واحد ... من باعث للعجب
وقائع بين الضلو ... ع انتقشت لا تكتب

فظائـــــع مما لهـــــا أحشاؤنــــا فـــي لهــــب
مستبعـــــــد احصاؤهــــا حسبـــــت أو لـم تحســــــب

وكـانت هذه الاحـداث على قسـوتهـا سببـا في التحـام التونسيين وتكتل العمال والفلاحين. وكان شعورهم العام بالاضطهاد والظلم المسلط على رؤوسهم من طرف الاستعماريين مبعثا للتضامن والثورة حين تواتيهم الفرصة.

وكان الاستعمار يدرك مدى خطر هذه التجمعات الشعبية فعمل على محاربتها كما سعى دوما إلى فرض سيطرته على كل تجمع سياسي ومحاربة كل حركة سياسية وعمالية مستقلة في مهدها. فكان لابد من التصادم بين الحركات الاستقلالية والمستعمرين.

الفصل الرابع

التنظيمات السياسية للحركة الوطنية

1920 ـ 1952

نضال سياسي . . ونضال مسلح :

بعد نفي وتشريد قادة الحركة الوطنية إلى الخارج، استقر علي باش حانبه في اسطنبول، وسافر شقيقه محمد إلى سويسرا، واستقر في جنيف حيث أسس مجلة « المغرب » ولجنة تونسية جزائرية تدافع عن قضية تحرير المغرب كله. ولما عاد الشيخ الثعالبي من المنفى ربط الصلة مع علي باش حانبه، وأخذ كل منهما يعمل لتقريب ساعة خلاص المغرب العربي من الاستعمار الفرنسي . . وبالرغم من الاضطهاد الاستعماري الذي شنته السلطات الاستعمارية ضد الحركة الوطنية، فان الشعب العربي في تونس لم يستسلم ولم يهن. فبدأ بثورة مسلحة سنة 1915 استمرت إلى سنة 1918 ، وقد قامت بهذه الهبات الشعبية المسلحة القبائل في الجنوب التونسي بقيادة المناضل الشعبي الحاج سعيد بن عبد اللطيف. وقد اشتركت في هذه المقاومة المسلحة العنيفة قبائل بن زيد المعروفة ببأسها الشديد وعروبتها وفروسيتها، وقبائل ورغمة، والهمامة، والفراشيش، وأولاد عيار والمرازيق. كانت كل هذه الانتفاضات المسلحة تقوم بها الجماهير بشكل عفوي تلقائي، وتستمر العام والعامين ثم تنتهي . . ولكن الشعب لم يستسلم أبدا، ولم يلق السلاح، وانما كان يثور الكرة بعد الكرة من الحاج سعيد بن عبد اللطيف إلى الدغباجي إلى البشير بن سديرة الهمامي . . كل هذه الثورات المسلحة كانت تقوم بها الجماهير الشعبية بمعزل عن التنسيق مع الحركة الوطنية التقليدية التي كانت تعبر أساسا عن النضال الوطني البرجوازي والشكل السياسي التفاوضي، فكانت الجماهير تقوم بهباتها التلقائية هذه مدفوعة بروح الحب

للوطن والكره للأجنبي المحتل. ودفاعا عن الكرامة والتصدي للظلم والقهر . . ومن هذا يتضح اننا عند تأريخنا للحركة الوطنية التونسية لابد ان نعرف ان الحركة الوطنية التقليدية التي يعنى بها المؤرخون التقليديون والرسميون هي غير الحركة الوطنية الشعبية التي لم تعرف الا الأسلوب الوحيد الصحيح وهو الكفاح المسلح، وقد أهمل المؤرخون ابراز دور هذه الحركة التي تغذى عليها وتقوى بها النضال التونسي وصوروا النضال الوطني في تونس كما لو كان هو فقط نضال مجموعة من لابسي الطرابيش، ومن الطريف ان نعرف ان الواجهات التقليدية للحركة الوطنية وقياداتها كانت تتنصل وتتبرأ في كل الأحوال من هذه الحركات الشعبية المسلحة.

الثعالبي . . والحزب الدستوري :

في عام 1919 وأثناء انعقاد مؤتمر الصلح بباريس اتصل الشيخ عبد العزيز الثعالبي بالمؤتمر، وقدم إليه مذكرة تتعلق باستقلال تونس وتطالب بتطبيق مبادئ ويلسن الأربعة عشر. ونشر في باريس كتابا بالفرنسية تحت عنوان « تونس الشهيدة » فضح فيه فضحا كاملا وشاملا دسائس الاستعمار واجرامه في حق شعب تونس العربي. وقد تلقفت الجماهير والمثقفون في المغرب العربي كله ذلك الكتاب الذي يفضح الاستعمار الفرنسي وأساليبه فاعتقلته السلطات الفرنسية وأرجعته إلى تونس مكبلا بالحديد ورمته في أحد سجونها.

ومن الغريب ان نعرف ان المستعمرين الفرنسيين قد اتهموا الشيخ الثعالبي في دينه ورموه بالزندقة والخروج على تعاليم الاسلام الحنيف. وكانوا قد حاكموه فيما سبق من أجل زندقته بسبب كتابه « الروح الحرة للقرآن » وقد اتفقت الرجعية الدينية والمستعمر الذي أبدى حرصه لصالح الاسلام وغيرته عليه ووقفا معا ضد مفكر ينادي بالاصلاح الديني. وهذا التحالف ظاهرة لابد وان تلفت النظر ولم يحدث مثلها على هذا النحو الواضح في أي مكان من الوطن العربي، فلم يحدث مثلا مع الشيخ محمد عبده في مصر أي شيء من هذا فقد اتهم الشيخ محمد عبده من شيوخ الأزهر في دينه وبموالاته للانجليز . . وهذا يكشف عن خطورة الدعوة الاجتماعية الكامنة وراء الموقف الديني للثعالبي بحيث تألبت الرجعية والاستعمار معا ضده.

وعندما بلغ نبأ اعتقال الشيخ عبد العزيز الثعالبي ـ بعد موقفه في باريس ونشره كتاب « تونس الشهيدة » ودفاعه عن القضية التونسية في المحافل الدولية ـ آذان الجماهير، تحركت المظاهرات والاضرابات في البلاد، وأخذت الجماهير تدمر المصالح الأجنبية وتهاجمها. وتحت الضغط الشعبي الهائل أجبرت فرنسا على اخلاء سبيله.

فالتف حوله الشعب والطلائع المثقفه والمناضلون ودعوا إلى تاسيس حركة سياسية وطنية تنظم النضال الوطني. فتأسس الحزب الحر الدستوري التونسي، وانتخب الشيخ عبد العزيز بالاجماع رئيسا للحزب، والمحامي احمد الصافي أمينا عاما له. وبدأ هذا الحزب في تكوين الشعب والفروع في انحاء البلاد التونسية جميعها، وبث الدعوة الوطنية في نفوس المواطنين ورص صفوفهم ليكونوا أداة الكفاح الوطني ضد الاستعمار.

وقد قام الحزب الحر الدستوري التونسي سنة 1920 على مبادئ تطالب بنظام دستوري لتونس، وتأليف حكومة وطنية مسؤولة أمام الشعب، باعتبار ان تونس أول بلد عربي اعلن دستورا في سنة 1865 يمنح نواب الشعب حق المشاركة في الحكم وحتى حق خلع الباي.

ان عبد العزيز الثعالبي إلى جانب كونه زعيم حركة سياسية كان من أركان الاصلاح الاجتماعي والاقتصادي والاصلاح الفكري الديني الذي قامت عليه حركة الاصلاح والحركة الوطنية في تونس.

وتقوم ايديولوجية الاصلاح لدى الثعالبي على ان مصدر التشريع الملائم للبلاد العربية هو تراثها العربي الاسلامي، وان العرب أمة واحدة لابد من ان تتوحد. فدعا إلى الوحدة العربية في الثلاثينات. وقد كتب على سبيل المثال في مجلة الشهاب التي كانت تصدر في الجزائر في عدد جويلية سنة 1939 تحت عنوان: « الوحدة العربية في طريق التحقيق » كتب يقول: « الوحدة العربية كيان عظيم ثابت، غير قابل للتجزئة والانفصال، يشغل قسما كبيرا من رقعة آسيا الغربية وشطرا من افريقيا، يمتد رأسه في الشرق من المحيط العربي، ويسير مغربا غربا إلى المحيط الاطلنطيكي، ويضم في هذا الشطر نصف القارة الافريقية ».

والدين عنده قوام العلم والعمل والاخلاق. فكان لزاما تطهير الدين الاسلامي من البدع والضلالات والطرقية لكي لا يستغل المستعمر الدين لمحاربة الحركة الوطنية التي تستهدف تنوير المجتمع وربطه بعنصر حضارته العربية الصحيحة وأسلوبه في تحقيق النهضة الاصلاحية هو التوعية الصحيحة القائمة على الاتصال المباشر والمستمر بالجماهير الشعبية. وقد أسس لذلك مطبعة النهضة ومجلة الفجر، وعمل على تكوين عدة مشاريع اجتماعية وثقافية لكي يتسنى للحزب أن ينظم الشعب عن طريقها تنظيما محكما. وقد أخذ الباي محمد الناصر يساند الحزب الحر الدستوري مساندة مطلقة وانخرط ابنه الأكبر محمد المنصف باي فيه، وأدى يمين الاخلاص للحركة الوطنية.

ولما شعرت فرنسا بخطر تعاظم الحركة الوطنية عليها لجأت إلى المراوغة والتسويف، وغيرت المقيم العام بمقيم عام جديد لم تعرف تونس مقيما أخطر منه في الدهاء والمكر، ففي سنة 1921 تم تعيين « لوسيان سان » وقد شرع في رفع الأحكام العرفية وأدخل بعض الاصلاحات على مجلس الشورى الذي أصبح يدعى بالمجلس الكبير. وكذلك أوجد وزارة العدل وأطلق الحريات العامة وفق مخطط استعماري نسج خيوطه لكي يتسنى له بعد ذلك اغراق تونس بالجاليات الأجنبية الأوروبية من ايطاليين واسبان إلى جانب الجالية الفرنسية الضخمة، ودمج تونس في فرنسا وهي خطة ماهرة ذكية لم تنخدع لها الحركة الوطنية الا قلة قليلة قبلت بالتعاون مع هذا المقيم الداهية الخطير مما سبب انشقاقا في الحزب الحر الدستوري التونسي. وبعد ان رفضت الحركة الوطنية مناورات المقيم الفرنسي أيدت مجموعة من الحركة هذه الاصلاحات وقبلوا بها وأسسوا حزبا سمي فيما بعد « حزب الاصلاح » وكان على رأس هذا الحزب المحامي حسن قلاتي والشاذلي القسطلي ولم يعمر هذا الحزب طويلا وأصبح عبارة عن مجموعة من المثقفين يتعاونون مع السلطات الاستعمارية ضد شعبهم، فنبذهم الشعب وانتهوا في نظره خونة للأهداف والمبادئ. وبسبب ذلك قادت السلطات الاستعمارية حملة من الارهاب والقمع ضد الحركة الوطنية وقيادتها.

وفي سنة 1923 سلط ضغط شديد على الباي محمد الناصر بسبب مواقفه الوطنية وحُوصِرَ قصره بالجيش والدبابات، فهب الشعب متظاهرا كالسيل العارم ومشى على الأقدام من مدينة تونس إلى شاطئ المرسى عشرين ميلا متضامنا مع الملك في موقفه الوطني وبسبب ذلك أجبر هذا المقيم الخطير على ان يفك الحصار عن الباي ووعده بتنفيذ المطالب الوطنية بعد زيارة رئيس الجمهورية الفرنسية « ميلران » لتونس، وبعد ان غادر رئيس الجمهورية تونس متوجها إلى فرنسا أعاد لوسيان سان القمع من جديد. فصادر الحريات العامة وفرض جوا من الرعب والارهاب وتعطيل الصحف وغلق النوادي والجمعيات وبعد ان توفي الملك محمد الناصر شاع بأنه مات مسموما. وقد فقدت الحركة الوطنية بموته أكبر مساند لها ونصير لفكرتها. وقد كثر الاضطهاد والتشريد، ونفي الشيخ الثعالبي إلى الخارج فعاش متنقلا بين مصر وبغداد وفلسطين وربط نضال الحركة الوطنية في تونس بالحركة الوطنية في مصر والشرق العربي. وحضر المؤتمر الاسلامي الذي عقد في القدس في سنة 1923. وبقي الثعالبي من أكبر دعاة الحرية والوحدة العربية في الوطن العربي. وبسبب نفي الثعالبي إلى الشرق العربي ضعفت الحركة الوطنية داخل تونس فترة طويلة من الزمن كان يقودها المحامي احمد الصافي والزعيم محي الدين القليبي.. وفي سنة 1924 عاد الحزب الحر الدستوري

التـونسي يكرر مطالبه من جديد. وواصل سيره النضالي بطرق سلمية. وفي نفس السنة عاد الدكتور محمد علي الحامّي « القابسي » إلى تونس بعد ان أنهى دراسته في المانيا وبدأ في محاولة لتنظيم العمال على أسس نقابية واستمر في محاولته هذه لكن لم يدع له المجال الكافي فنفاه الاستعمار وتوفي في الحجاز بعد ان وضع البذرة الأولى للتنظيمات العمالية النقابية في تونس، كما سنشرحه فيما بعد.

وقد أثار هذا الجمود الذي أصاب الحزب الدستوري بعد نفي زعيمه الثعالبي ثائرة نفر من شباب الحزب الذين عادوا من فرنسا فقاموا بتأسيس جريدة « صوت التونسي » في سنة 1928 وكان يديرها الشاذلي خير الله ابن مصطفى ويساعده في التحرير والده الأستـاذ خير الله بن مصـطفى وفي سنـة 1929 حولهـا إلى جريدة باسم « العمل التونسي » وكلتاهما تصدر باللغة الفرنسية لأن الصحف العربية كانت ممنوعة والموجود منها يمنع من الخوض في المشاكل السياسية الوطنية. والتف حول جريدة « صوت التونسي » نخبة من شباب الحزب الحر الدستوري التونسي وبعض الشباب من خارجه ممن أنهوا دراستهم في فرنسا. وقد استطاعت صحيفة « صوت التونسي » التي امتازت بالصراحة والجرأة والصلابة ان تخلق تيارا واسعا أدى إلى تنشيط الحزب واعادة الحياة إلى صفوفه. ولم تمض مدة طويلة على هذه الجريدة حتى انشق عنها نفر من الشباب وأسسوا جريدة « العمل التونسي » وفي سنة 1929 قرر غلاة الاستعماريين الفرنسيين اقامة مؤتمر عام من طرف رجال الدين المسيحي سمي « بالمؤتمر الافخارستي » وسبب انعقاد هذا المؤتمر هو مرور نصف قرن على الاحتلال الفرنسي لتونس. وقام الحزب الحر الدستوري بشن حملة شعواء على هذا المؤتمر الذي كانت الغاية منه استعمارية. وقد أراد الاستعماريون ورجال الدين المسيحي بمؤتمرهم هذا أن يقنعوا الشعب العربي في تونس بأن الاحتلال الفرنسي هو عمل طبيعي. بل عودة بالأمور لطبيعتها التاريخية.

فقد أتى الفرنسيون لتخليص التونسيين من هذا الوجود العربي الذي أتى غازيا لهذه الأرض التونسية الرومانية. واستفاضوا في شرح هذه الدعوة وفي الحديث عن مزايا الاستعمار الفرنسي وحضوره الذي يريد العودة بالتونسيين إلى أصلهم المسيحي الروماني، واعتبروا العرب غزاة ومحتلين.

وبالرغم من احاطة هذا المؤتمر بجو ارهابي وقمعي الا ان تصدي علماء جامع الزيتونة بقيادة الشيخ احمد بيرم شيخ الاسلام الحنفي أثار بينهم وبين أعضاء المؤتمر جدالا حادّا وعنيفا فندوا فيه العلماء التونسيين وشيوخ الزيتونة ورجالها وطلبتها ورجال الحركة الوطنية والشعب العربي في تونس عموما مزاعم القساوسة. وعندما تسربت أخبار هذا

المؤتمر للحركة الوطنية قامت المظاهرات والاضرابات بقيادة الحركة الوطنية، ونزل لميدان الصراع الشبيبتان من طلاب جامع الزيتونة وطلاب المدرسة الصادقية. وقادت جريدة « صوت التونسي » حملات مؤثرة إلى ان أبطل هذا المؤتمر مزاعم القساوسة الاستعماريين. وبسببها أحال المقيم العام « بروتون » مجموعة جريدة « صوت التونسي » إلى المحاكمة ولكن الضغط الشعبي والمظاهرات استطاعت ان توقف هذا القمع عند حده.

وفي سنة 1932 كان الرأي العام مشغولا بقضية التجنيس، وكانت هناك مجموعة من المثقفين تعمل بجريدة « العمل التونسي » التي كانت تساند الحزب الدستوري. وعلى رأس هذه المجموعة الدكتور محمود الماطري والطاهر صفر والبحري قيقة ومحام شاب هو الحبيب بورقيبة وشقيقه محمد بورقيبة. وقد برزت هذه المجموعة لموقفها المعارض من قانون التجنيس الذي أصدرته القوات الاستعمارية لتجنيس العرب التونسيين بالجنسية الفرنسية. وقد قاومت هذه المجموعة هذا القانون وخاصة الطاهر صفر فكان هو أبرز الاقلام التي تصدت لهذا القانون، وقاومه بحجة انه يرمي إلى تنصير العرب وفرنستهم والقضاء على الشخصية الوطنية والقومية.

وهب الشعب متضامنا مع الدعوة التي يحمل لواءها الطاهر صفر وذهب لاحتلال المقابر الاسلامية لكي يمنع دفن المتجنسين بالجنسية الفرنسية بالمقابر التونسية. وقد مات بعض المتجنسين ومنع الشعب دفنهم في مقابر أجدادهم. وقد وقعت أحداث دامية في المنستير والمكنين وقصر هلال وطبلبه وتونس العاصمة واستشهد عشرات الوطنيين وعلى رأس هؤلاء الشهداء « شعبان البحوري » وخاصة عندما سخر الاستعمار قوات هائلة لسحق الشعب والحركة الوطنية. ولكن الكفاح الشعبي استمر قويا حتى سنة 1936.

وقد تقوت بعد ذلك مجموعة الطاهر صفر والدكتور الماطري فأرادت أن تؤسس لنفسها منبرا مستقلا عن جريدة « العمل التونسي » فأنشأت جريدة باسم جريدة « العمل » وبعد مناورات تدخلت فيها عدة عناصر كالحرص من بعض قيادات المجموعة الفعلية على التوجيه الفعلي من وراء الستار وأيضا حرصها على أعمالها الناجحة فيها، حدث ان أسندت ادارة هذه الجريدة وامتيازها إلى المحامي الحبيب بورقيبة.

وفي سنة 1933 عقد الحزب التونسي مؤتمرا استثنائيا وانتخب فيه أسرة جماعة العمل في اللجنة التنفيذية للحزب الدستوري وهم الدكتور محمود الماطري، والمحامي الطاهر صفر والمحامي البحري قيقة والمحامي محمد بورقيبة وشقيقه الأصغر منه المحامي الحبيب بورقيبة الذي ضم إلى المجموعة بحكم ان رفاقه جعلوا منه مديرا للجريدة للأسباب التي أشرنا إليها.

ولم يمر على وجود العمل سبعة أشهر حتى نشبت خلافات بينهم وبين قيادات الحزب لعدة أسباب أهمها الصراع على قيادة الحزب وهو صراع أذكته أيضا أطراف أخرى. فقد وجد الماطري ورفاقه ان اللجنة التنفيذية للحزب بعد غياب الثعالبي وقيادات الحزب الأخرى لم تعد مؤهلة للقيادة. وانتهزوا هذه الفرصة باتخاذ سبب يمكن أن يصلح ذريعة لعزل القيادات الأخرى وتصدير جماعتهم لقيادة الحزب. وقد وجدوا هذا السبب المباشر عندما دعا المقيم العام الفرنسي أعضاء اللجنة التنفيذية للحوار معهم حول اصلاحات يزعم اعطاءها للحركة الوطنية وطلب منهم ان يكون هذا الحديث سرا خشية من ان يسمع حزب المعمرين الفرنسيين به فيبطل عمله. وبما ان اللجنة التنفيذية للحزب اعتبرت هذه المقابلة سرا، فانها طلبت من اعضائها عدم افشائها. فما كان من المحامي البحري قيقة عضو اللجنة التنفيذية الا انه أبلغ صديقه القديم الشاذلي خير الله بفحوى المحادثة مع المقيم العام. فما كان من الشاذلي خير الله الا ان ذهب إلى «ديوران انفليفيال» مدير جريدة تونس الاشتراكية لسان الحزب الاشتراكي الفرنسي بتونس فنشرت فحوى المحادثة والخبر السري وإلى جانبها نشرت الخبر جريدة لادياش التونسية الصادرة بالفرنسية ولسان حزب المعمرين الفرنسيين. فدعا المقيم أعضاء اللجنة التنفيذية للحزب ووجه إليهم لوما على افشائهم المحادثة السرية التي دارت بينه وبينهم فما كان من قيادة الحزب الا ان فصلت المحامي البحري قيقه الذي أفشى هذاالسر من عضويتها. وكانت الفرصة . . اذ بعد فصله استقال من قيادة الحزب جماعة جريدة العمل متضامنين مع رفيقهم البحري قيقه واعتبروا هذا الفصل قرارا جائرا. وتكتلت مجموعة جريدة العمل مع بعضهاالبعض بقيادة الماطري والطاهر صفر وبدأت الحملات بينهم وبين اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري. وسموا أنفسهم الحزب الحر الدستوري الجديد.

الحزب الدستوري الجديد :

ان الأسباب والدوافع التي أدت إلى ظهور الحزب الدستوري الجديد يمكن تلخيصها فيما يلي :

1 ـ ضعف الحركة الوطنية بعد نفي الزعيم عبد العزيز الثعالبي واستقراره في المشرق العربي متنقلا بين مصر وفلسطين وبغداد والهند وايران وافغانستان والحجاز والخليج. وكان لاقامة الثعالبي في المشرق العربي أعمق الأثر في تطور الحركة الوطنية في الشرق وتبلور فكرة الوحدة العربية. فكان الثعالبي أول من نادى بتوحيد الأمة العربية من المحيط إلى الخليج. وقد ربط حركة التحرر الوطني في أقطار المغرب العربي الأربعة (ليبيا ـ تونس ـ الجزائر ـ المغرب) بحركة التحرير الوطني بالمشرق العربي. وكان الثعالبي أول من دعا لاقامة جامعة علمية في القدس تكون على غرار جامع الزيتونة والأزهر وجامع القرويين في فاس لتكون هذه الجامعة سدا منيعا في وجه الحركة الصهيونية بالرغم من الحملات التي شنت ضده بسبب هذا الاقتراح الذي فسر من بعض علماء الأزهر المتزمتين الاقليميين بأنه يهدف إلى نقل الثقل من مصر إلى فلسطين. أي بالجامعة التي اقترحها الثعالبي بالقدس وناصر العلماء الثوريون في الأزهر الثعالبي ودعوته إلى اقامة هذه الجامعة العلمية في القدس.. وقد ترك الثعالبي أثناء اقامته ذكرى طيبة وسمعة عظيمة لبلاد المغرب العربي في الجناح الشرقي من الوطن العربي اذ كان يحاضر الساعات الطوال دون كلل أو ملل معرفا بقضايا الأمة العربية كاشفا دور الاستعمار في تقسيمها والاستيلاء عليها ونهب ثرواتها. وقد ربطت الثعالبي صلة صداقة مع الحركات الوطنية في المشرق العربي فكان على صلة حميمة بحزب الوفد وبالحاج أمين الحسيني وبزعماء سوريا والعراق. وكان قد تعرف على المجاهد السوري عز الدين القسام الذي التحق بفلسطين ليجاهد ضد الاستعمار البريطاني والاستعمار الصهيوني. فتعاونا معا على خطة للنضال المسلح. والمعروف ان الثعالبي اشترك في وضع الأسس التنظيمية لهذه الحركة المسلحة. وكان الثعالبي هو الذي دعا إلى دعم ومساندة حركة القسام المسلحة بفلسطين بالمال والرجال.

وفي بغداد التي استقر فيها الثعالبي مدة طويلة قد ربطته بأهلها وقادتها أواصر النضال والاخوة العربية مما جعل الرصافي شاعر العراق الكبير يقول عنه :
« ان الثعالبي هو أكبر خطيب عرفته الأمة العربية » وقد أوحى إليه وجود الثعالبي بين اخوته في العراق بعواطف كثيرة سجل بعضها في أبياته المعروفة :

أتونس ان في بغداد قوما	نحن قلوبهم لك بالوداد (1)
ويجمعهم واياك انتساب	إلى من خص منطقهم بضاد
ودين أوضحت للناس قبلا	معالم آيه سبل الرشاد
فنحن على الحقيقة أهل قربى	وان قضت السياسة بالبعاد

1) ديوان الرصافي.

وقد ترتب عن وجود عبد العزيز الثعالبي زعيم الحركة الوطنية بتونس بالمشرق جمود نسبيّ للحركة الوطنية في تونس سببت المتاعب والانقسامات داخل صفوف الحركة الوطنية.

وإذا كان خروج حسن قلاتي والشاذلي القسطلي عن الحزب الحر الدستوري التونسي وتأسيسهم لحزب الاصلاح موعزا من طرف سلطات الحماية، فان تأسيس الحزب الدستوري الجديد وانشقاقه عن الحزب الدستوري التونسي كان محل ترحيب من جانب السلطات الفرنسية التي استبشرت بهذاالانقسام الجديد كايذان بنهاية الحركة الدستورية. ويرجع أيضا هذا الانقسام إلى اختلاف في المناهج والطرق النضالية الكفيلة بتحقيق الاستقلال.

الصراع بين الجيل القديم والجيل الجديد :

إذا كان عبد العزيز الثعالبي قد بنى الحزب الدستوري التونسي ايديولوجيا على أسس فكرية تمتد جذورنا إلى الفكر السلفي الاصلاحي كما نعرفه لدى جمال الدين الافغاني ومحمد عبده. وربط نضال الحزب الحر الدستوري التونسي بالحركة الوطنية في المشرق والمغرب. فان الشباب الذين انشقوا عن الحزب الدستوري التونسي وأسسوا في 3 مارس سنة 1934 الحزب الدستوري الجديد كانوا قد درسوا في أوروبا وتربوا على الفكر التنظيمي الغربي. وعامل الخلاف في الثقافة أدى إلى اختلاف في المنهج وأسلوب العمل بين جيلين :

جيل الشباب المتطلع نحو التجديد والاقتباس من الحضارة الغربية وجيل الشيوخ الذي تعود على طريقة في الكفاح تقوم أساسا على الاحتجاج ونشر المقالات المطولة في الصحف. وهذا الأسلوب لم يعد يرضي الشباب الذين تعودوا بحكم اتصالهم بالأحزاب الفرنسية وانضمام بعضهم إلى صفوفها أثناء دراستهم بفرنسا على أساليب التنظيم الحزبي وتكوين الخلايا الحزبية والتنظيمات السرية. وقد ولد هذا لدى جيل الشباب نفورا من الأساليب التي كانت تسير عليها قيادة الحزب وخاصة بعد ضعفه بعد نفي زعيمه الشيخ الثعالبي، فاتخذوا من حادثة فصل رفيقهم البحري قيقه حجة للاستقالة وبدؤوا يتحركون لتوضيح مواقفهم. فما كان من بعض شعب الحزب وفروعه الا ان دعت إلى عقد مؤتمر لحسم هذا الخلاف وبحث أسبابه خوفا من أن يصاب الحزب بالانهيار. وقد أظهرت اللجنة التنفيذية عزلتها عندما رفضت حضور هذا المؤتمر ووجهت منشورات للشعب تخون المنشقين وتطلب من الشعب عدم الحضور وقد حضر المؤتمر الذي دعا إليه الجدد العديد من الشعب الحزبية واعتبروه

شرعيا. وبعد انعقاد المؤتمر الذي عرف في تونس بمؤتمر مدينة « قصر هلال » انتخبوا مكتبا سياسيا وغيروا اسم الحزب من الحزب الحر الدستوري التونسي إلى الحزب الدستوري الجديد وقد انتخب مؤتمر الحزب الدكتور محمود الماطري رئيسا للحزب الجديد. وقد عمل الماطري على انتخاب الحبيب بورقيبة أمينا عاما للحزب تحت ضغط من مناوراته وألاعيبه وحيله الحزبية وتشكيله لجماعات صحخابة أمثال الشاذلي قلاله وأحمد عياد وغيرهم كثيرون مع ذلك كله ساعده الماطري وقيقه وشقيقه حتى انتخب أمينا للحزب، والطاهر صفر و البحري قيقه ومحمد بورقيبة أعضاء بالمكتب السياسي للحزب.

3 ـ استبشار السلطات الاستعمارية بانقسام الحركة الوطنية وعملها على توسيع شقة الخلاف بين شقي الحزب :

من ذلك ان المقيم العام الفرنسي الطاغية « بيروطون » سعى عن طريق الوعود الخبيثة ملوحا ببعض الاصلاحات الطفيفة إلى اذكاء روح الفتنة والاختلاف ظنا منه بأنه يستطيع اخماد نشاط الحركة الوطنية وانه سيشغل بعض الوطنيين بالبعض الآخر لكي ترتاح فرنسا.

وقد بدأت المعارك الصحفية والمعارك الحزبية الجدلية على صفحات جريدة العمل لسان الحزب الدستوري الجديد وجريدة الارادة لسان الحزب الدستوري القديم بين المنصف المستيري ومحي الدين القليبي في الحزب القديم والطاهر صفر ومحمود الماطري من الحزب الجديد. واستمرت المعركة الحزبية بين الفريقين حامية الوطيس كل يتهم الآخر بما عنده فالجدد يتهمون الشق الآخر بالجمود والرجعية والسلبية والجبن. والقدامى يتهمون الجدد بالديماغوجية والارتجال والارتماء في أحضان الغرب الاستعماري والثقافة الغربية.

وعندما شعر « بيروطون » بخيبة أمله واتضح له ان مجرد انقسام الحركة لم يمنع الجناح الجديد من توسيع نشاطه وتكوين الخلايا الحزبية وفروع للحزب في كافة انحاء البلاد التونسية، ولم يحدث كما استبشر بأن ذلك يمكن أن يكون بداية النهاية لزخم الحركة الوطنية. فقد أحس بأن هذا الخلاف يمكن أن لا يتعدى كونه خلافا بين وطنيين في أسلوب مقاومة الحضور الفرنسي في تونس. فكان أمام « بيروطون » أحد احتمالين :

ـ اما أن يخترق صفوف الجناح الجديد النشط ويتبنى العناصر ذات النزعة المتفرنسة منه ويستميلها إلى صفه، خاصة وان الجناح الجديد الذي أظهر حركية ونشاطا ليس

كتلة متجانسة تماما، واما أن يبطش بكل من الجناحين القديم والجديد معا. وقد آثر الاحتمال الثاني، فسلط جوا من الارهاب والقمع على عموم الحركة الوطنية، فنفى من الحزب الجديد الدكتور الماطري والطاهر صفر وصالح بن يوسف والبحري قيقه ومحمد بورقيبة والحبيب بورقيبة ويوسف الرويسي والهادي شاكر والحبيب بوقطفه وكذلك كثيرا من المناضلين الشعبيين الآخرين. ومن الحزب القديم محي الدين القليبي والشيخ أحمد كركر والشيخ أحمد الشطي والشيخ محمد بن الحاج عمر والشيخ راجح ابراهيم، والمنصف المنستيري والشاذلي الخلادي والدكتور احمد بن ميلاد. وقد وحدت المحنة التي حلت بالجميع بين صفوفهم، وقد وزعوا على مناطق صحراوية نائية عن البلاد ووجد الشعب في اعتقال قيادات الحركة الوطنية القدامى والجدد مناسبة للتعبير عن غضبه ومناهضته للحكم الاستعماري، فهب الشعب الأعزل في طول البلاد وعرضها يقطع أسلاك الهاتف ويدمر بعض الجسور والسكك الحديدية. واستمرت هذه الحوادث طيلة عامين كاملين، لم يكف خلالها الشعب عن اللجوء إلى أي وسيلة من وسائل الكفاح تعبيرا عن كرهه للمستعمر الغاصب.

أحداث عام 1936 :

وفي شهر ابريل « نيسان » من عام 1936 تولى الحكم في فرنسا رجال الجبهة الشعبية، فغيرت الحكومة الفرنسية شكل سياستها بتغيير المقيم « بيروطون » بمقيم جديد اسمه « أرمان ڤيون ». فقام هذا المقيم الجديد باطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين. وبعد هذه الأحداث العنيفة واطلاق سراح القادة الوطنيين أصبح للحركة الوطنية وزنها وباتت قوة يحسب حسابها. واتخذ المقيم الجديد سياسة الاتصال بالزعماء الوطنيين المعتدلين ذوي النزعة الفرنسية، وقد أضفت الأحداث على جميع القادة الذين اضطهدوا شعبية قوية في جميع الأوساط. وفي هذا الجو وتلك الملابسات برز الحزب الدستوري الجديد، وبرز زعيمه الحبيب بورقيبة الذي تبنى السياسة القائمة على مبدأ « خذ وطالب » أو مبدأ « سياسة المراحل » وبسرعة سافر بعد عودته من المنفى بين سنتي 1936 ـ 1937 إلى فرنسا واتصل بالدوائر الفرنسية وتقدم بطلب اصلاحات تستهدف منح تونس برلمانا وحكومة مسؤولة لدى البرلمان. ويحتمل ان يكون الوزير الفرنسي قد اقتنع بضرورة اعطاء التونسيين بعض المطالب. وقد زار هذا الوزير تونس، وألقى خطابا في مذياعها اعترف فيه « بأن الشكوك تحوم حول الادارة الفرنسية بهذه البلاد » واعترف بأن الواجب يقضي « باصلاح الادارة الفرنسية واشراك التونسيين في ادارة شؤون بلادهم » وكان من نتيجة ذلك ان تآمرت العناصر الاستعمارية على هذا الوزير، وأقصته من منصبه بعد أن رفضت حتى هذه الاصلاحات البسيطة التي لا تتماشى مع المطالب الشعبية بالاستقلال التام.

عبد العزيز الثعالبي ووحدة الحركة الوطنية :

وبعد ان تم العفو عن جميع المعتقلين السياسيين والمبعدين سنة 1936 شمل هذا العفو زعيم الحركة الوطنية ومؤسسها عبد العزيز الثعالبي . وعندما تسرب نبأ رجوعه لتونس عمت الفرحة جميع أفراد الشعب العربي بتونس. واستبشرت كافة الأوساط الوطنية بعودته بما فيهم قيادة الحزب الدستوري الجديد الذي أرسل بدوره صالح بن يوسف لاستقباله في مرسيليا بفرنسا والعودة معه إلى تونس . وكان هدف قيادة حزب الدستور الجديد من ذلك هو مساندة الزعيم الثعالبي لهم ضد قيادة الحزب القديم .

وبنزوله في تونس طلب إليه أن يصرح للصحافة حول موضوع الخلاف بين شقي الحزب القديم والجديد فكان جوابه :

ليس لي ما أقوله في هذا الموضوع الا بعد اجراء الحوار مع الطرفين. وكانت هذه في نظر حزب الدستور الجديد ان الزعيم عبد العزيز الثعالبي لازال متمسكا بالحزب القديم . ومع هذا فان الزعيم الثعالبي قد اتصل بالشقين وحاول التوفيق بينهما ، وألح على ضرورة توحيد القوى الوطنية . ولم يلمس من قيادة الحزب الجديد وخاصة الحبيب بورقيبة أمين عام حزب الدستور في ذلك الوقت الا المناورة والمراوغة والهرب من أي محاولة تستهدف التوحيد بين شطري الحزب التي تحتمها الضرورة الوطنية القصوى لمجابهة الاستعمار في قوى متراصة تستهدف بالدرجة الأولى الظفر بالاستقلال التام . واعتبر الزعيم الثعالبي مواقف حزب الدستور الجديد من توحيد الحركة الوطنية غير جدية وغير ايجابية . وبما ان لعبد العزيز الثعالبي باعتباره الباعث الأول للحركة الوطنية رصيدا لدى جماهير الشعب العربي في تونس وكلمة لا ترد في الأوساط الوطنية . بدأ بعد ان فشل في محاولة التوفيق يتجه إلى الاتصال المباشر بالشعب لتكون له الكلمة الفاصلة . وعقد اجتماعات عامة في تونس العاصمة والمدن الأخرى . وألقى خطابا قيما في ساحة « قمبطه » بتونس العاصمة استمر ست ساعات. ولأول مرة يقف زعيم تونسي ينادي باستقلال شمال افريقيا التام ، ووحدة المغرب العربي كخطوة لتحريره وتوحيده مع بقية الأقطار العربية . وبدأ الثعالبي بالاتصالات على صعيد تونس الداخلي وعلى صعيد الحركة الوطنية في عموم المغرب العربي . وقد زعزعت الآراء التي طرحها في خطابه أركان النظام الاستعماري في تونس . فما كان من الحزب الدستوري الجديد الا ان بدأ في حملات تشويه لم يكن المحرك لها مجرد الصراع الحزبي ، بل كانت ترحب بها السلطات المحتلة تستهدف شخص الثعالبي عن طريق بعض الصحف الرخيصة . وأول اجتماع عقده عبد العزيز الثعالبي خارج العاصمة كان اجتماع مدينة

« ماطر » استعد الحزب الدستوري الجديد لافساد هذا الاجتماع، وأرسلت مجموعة برئاسة الهادي نويره للتشويش وافساد الاجتماع . ووقع اطلاق الرصاص أثناء الاجتماع وعلى سيارة الثعالبي مما تسبب في مقتل شخصين من أنصار الثعالبي . وقد وجه الحزب الدستوري القديم اتهاما للسلطات الفرنسية بتدبير محاولة اغتيال الثعالبي وارهابه . ولايزال يكتنف احداث ماطر الغموض . . ولما شعرت فرنسا بانبعاث الروح من جديد في الحركة الوطنية غيرت سياستها من جديد، وأصدرت قانونا يقضي بحل الأحزاب ومنع الاجتماعات العامة ومصادرة الحريات. وحلت بأقطار المغرب العربي من مراكش إلى الجزائر موجة من القمع والارهاب الاستعماري الفاشيستي، وبدأت الاضرابات والاحتجاجات تعم البلاد تعبيرا عن التضامن مع الشعبين الجزائري والمغربي في محنتيهما.

وفي سنة 1937 عقد الحزب الدستوري الجديد مؤتمره الثاني بعد مؤتمر قصر هلال التأسيسي الذي عقد في 3 مارس سنة 1934 بمدينة قصر هلال. وبعد عودة قادة الحزب الدستوري الجديد من المنفى بسنة لممارسة نشاطهم السياسي وقد سيطر على هذا المؤتمر روح الاندفاع والحماس لدى الشباب ولدى مناضلي الحزب القياديين من الأرياف وخاصة الدكتور سليمان بن سليمان المعروف بميوله اليسارية والحبيب بوقطفة رئيس حزب الدستور الجديد في منطقة بنزرت ويوسف الرويسي رئيس حزب الدستور في منطقة الجريد بالجنوب التونسي. ونتيجة لمواقف هؤلاء اتخذ المؤتمر قرارات في منتهى الخطورة لمجابهة العدو الاستعماري وسيطر على المؤتمر جو يضع قيادة الحزب الجديد أمام المسؤوليات التاريخية للحركة الوطنية وتحرير الشعب العربي في تونس من الاستعمار الفرنسي. ومن بين القرارات التي اتخذها الحزب الدستوري الجديد « اعلان العصيان المدني ومجابهة الاستعمار بالعنف » ونتيجة لما يترتب عن خطورة هذه القرارات من مواجهة واستعداد للتضحية والفداء، وقع خلاف بين المؤتمر، ورئيس الحزب الدكتور محمود الماطري الذي لم يجار تيار العنف الذي ساد جو المؤتمر، واستقال من الحزب على اثر خلاف نشب بينه وبين الأمين العام للحزب الحبيب بورقيبة. ويقول الحزبيون القدامى وبعض الحزبيين الجدد الذين انشقوا عن بورقيبة فيما بعد بأن جو العنف الذي ساد المؤتمر وقراراته الثورية التي لم يوافق عليها رئيس الحزب الدكتور محمود الماطري كانت تستهدف بالدرجة الأولى اقصاء الماطري من رئاسة الحزب واضعاف الحزب الدستوري القديم ورئيسه عبد العزيز الثعالبي . ويعتبر هؤلاء ان المناورة كانت مدبرة على الأقل من طرف الأمين العام للحزب الدستوري الجديد الحبيب بورقيبة الذي كان يريد أن يسيطر على الحزب الجديد ويوجهه .

وفي أوائل سنة 1938 وعلى اثر الاضرابات وموجة الاضطهاد الاستعماري التي بدأت بمراكش ثم الجزائر وانتهت بتونس، وقع أول صدام بين الجيش الفرنسي والجماهير في مدينة بنزرت استشهد فيه وجرح عدد كبير من الوطنيين، فما كان من قيادة حزب الدستور الجديد الا ان دعت في شهر آذار « مارس » سنة 1938 المجلس المركزي للحزب ليصادق على قرارات المؤتمر التي تدعو إلى عدم الخضوع للقمع الاستعماري ورفض القوانين الاستعمارية. وقد توزع أعضاء المكتب السياسي داخل القطر لتهيئة الشعب للكفاح والصمود. وقد دارت معارك دامية بين المواطنين والقوات الاستعمارية في وادي مليز والكاف وسوق الاربعاء ودقاش وتوزر وبنزرت ونفطة. وكان يوم المعركة الحاسمة يو 9 نيسان « افريل » بمدينة تونس العاصمة حيث عم الاضراب البلاد من أدناها إلى أقصاها، ونزل طلبة جامع الزيتونة والصادقية والعمال والحرفيون إلى شوارع المدينة في مظاهرات منظمة رهيبة بلغ عدد المشاركين فيها مئات الآلاف.

وما لبثت قوات الاحتلال الاستعمارية ان تصدت للمتظاهرين وحصدتهم بالرصاص، فسقط مئات الشهداء والجرحى. واعتقل عدد هائل من المتظاهرين. وطارد الاستعمار قادة الحزب ومناضليه وزج بهم في السجن العسكري بتونس. وعلى اثرها عمت الاضطرابات البلاد، وساد جو من الارهاب والتدمير والحرق. ومن السجن العسكري بتونس نقل صالح بن يوسف والمنجي سليم والحبيب بورقيبة والحبيب بوقطفة ويوسف الرويسي والهادي نويرة وسليمان بن سليمان والهادي شاكر وعلي الزليطني والبشير بن يوسف وعلي البلهوان وغيرهم إلى حصن سان نيكولا بمرسيليا، وامتلأت السجون في تونس بالوطنيين.

ومن سنة 1938 أصبح الحزب الدستوري الجديد يتصدر نضال الحركة الوطنية ضد الاستعمار وأصبحت له شعبية كبيرة بين الجماهير.

الدكتور الحبيب ثامر يقود الحركة الوطنية :

وبعد ان حلت موجة القمع والاضطهاد والقتل في صفوف الحركة الوطنية وقبل عودة الدكتور الحبيب ثامر من فرنسا قاد الحركة الوطنية الباهي الأدغم الذي عرف في الأوساط الوطنية بالصدق والمثالية صحبة المرحوم صلاح الدين بوشوشه وجلولي فارس وعمر بن حميده ومحمد بن عماره وكان لهم دور فعال في تنظيم الخلايا السرية للحزب الدستوري الجديد التي كانت مهمتها تدمير الجسور وقطع أسلاك الهاتف واغتيال الاستعماريين ونشر الذعر بين صفوفهم. وبعد ان اعتقل الباهي الأدغم ورفاقه

ونقلوهم إلى سجن لامبيز بالجـزائـر ذلك السجن الرهيب الذي ذاق فيه الوطنيون الجزائريون والتونسيون أشد العذاب وقد مات أغلب الوطنيين التونسيين الذين نقلوا إلى هذا السجن. وقد وجد المناضلون التونسيون بقيادة الباهي الأدغم الذين نقلوا إلى هذا السجن الرهيب اخوانهم المناضلين الجزائريين قد سبقوهم وكانت هذه المحنة التي حلت بالحركة الوطنية بتونس والجزائر وحدت بين قلوبهم وأفكارهم وكفاحهم بعكس ما كان يبغي الاستعمار.

وبعـد ما حل بالحـزب الدستوري الجديد من اضطهاد وسجون وتصفيات عاد الدكتور الحبيب ثامر من فرنسا لتولي الحركة الوطنية بعدما حل بها من محنة. وكان الدكتور ثامر بما يتصف به من حركة دائمة وتضحية صامتة لا تعلن عن نفسها بالأقوال بل بالأعمال قد أعطى للحركة الوطنية دما جديدا واستمرارية في النضال. فكان العقل المسير للحركة، فهو الذي قام بإعادة تنظيم الحركة، وتشكيل خلاياها السرية وبعث الحياة فيها من جديد، وهو الذي أسس جريدة « تونس الفتاة » ولم ينقطع الكفاح ولم تفتر المقاومة إلى ان اعتقل الدكتور ثامر ورفاقه.

وقد استمرت الحركة الوطنية تناضل إلى ان تولى الملك الشهيد محمد المنصف باي كرسي الحكم في تونس فقام المساجين بثورة داخل السجن وأطلق سراحهم المغفور له الوطني محمد المنصف باي. والمعروف عن المنصف باي أنه أحد اعضاء الحزب الحر الدستوري التونسي القديم. وقد عمل جهده لكي يوحد القديم والجديد، وشكل وزارة وطنية برئـاسـة محمد شنيق وأدخل فيها صالح فرحات الأمين العام للحزب الدستوري القديم.

وبخروج ثامر من السجن وجميع المسجونين أعاد ثامر تنظيم الحركة الوطنية من جديد وأسس جريدة « افـريقيا الفتاة » وأسس مدارس للكادر الحزبي ومعسكرات للتدريب على السلاح واعادة بعض الوئام بين الحزبين القديم والجديد.

وقد طلب محمد المنصف باي من حكومة المحور اطلاق القادة المعتقلين ومن بينهم بورقيبـة وصالح بن يوسف ويوسف الرويسي والحبيب بوقطفة والدكتور سليمان بن سليمان وعلي البهلوان والمنجي سليم وعلي الزليطني. كذلك كتب الزعيم محي الدين القليبي إلى صديقه الأمير شكيب أرسلان طالبا منه أن يتدخل لدى المحور لاطلاق سراح قادة الحزب الدستوري الجديد، فأطلقوا سراحهم في سنة 1943 بعد ان ذاقوا شر العذاب وبعد يأس من الخروج والعودة إلى الحياة العادية. ومن فرنسا سافروا إلى

ايطاليا وكانت الحكومة الايطالية لها مطامع في تونس وهي مطامع قديمة يرجع تاريخها إلى ما قبل سنة 1881 أي تاريخ احتلال فرنسا لتونس ولكن بورقيبة بالرغم من الحفاوة والعناية التي استقبل بها في ايطاليا رفض ان يصرح لهم بأي تصريح يتضمن الاعتراف بالحضور الايطالي في تونس وبعث برسالة إلى الدكتور ثامر يحذره من التورط في التعاون مع الألمان والايطاليين. ونشأ لدى الشعب العربي في تونس احساس بالتشفي من الاستعمار الفرنسي الذي أذاقهم شر العذاب طيلة نصف قرن. وأصبح تيار واسع في جميع القطاعات الشعبية يؤمن بالتعاون مع الألمان على أساس أن يساعدوا تونس على الاستقلال.

ووقع انقسام في الحركة الوطنية بين من يرى ضرورة الاستفادة من الألمان لاستقلال البلاد، وبين بورقيبة الذي رفض هذا المنطق ووزع منشورات وبيانات تحذر الوطنيين من التورط مع المحور ودعم الحلفاء. والواقع ان الشعب العربي في تونس كغيره من بقية اخوانه في الوطن العربي الذين قاسوا من ويلات الاستعمار الفرنسي قد شعر بالتشفي من المستعمرين الفرنسيين ورأى في انتصار المحور فرصة لنيل حريته واستقلاله وقد سجل شاعر عربي هذه المشاعر في قصيدة جاء فيها :

رأيت باريس تشكو زهو فاتحها
هلا تذكرت يا باريس شكوانا
عشرون عاما شربنا الكأس مترعة
من الأسى نتملى صرفها الآن
اني لاشمت بالجبار يصرعه
باغ ويرهقه ظلما وعدوانا

والحقيقة ان الدعاية الألمانية لعبت دورا كبيرا في كسب الرأي العام العربي إلى جانبها. ذلك ان المانيا تعتبر أقصر دول أوروبا باعا في الاستعمار حيث أنها لم تدخل ميدان استعمار الشعوب الا مؤخرا نسبيا. وكان لاشتراك المانيا مع الخلافة العثمانية في الحرب العالمية الأولى ووقوفها إلى جانبها أثر كبير في خلق شعور لدى الشعب العربي بأن المانيا حليف طبيعيّ للأمة العربية والعالم الاسلامي بأكمله. ثم ان معاداة المانيا للصّهيونيّة ولسيطرتها على الاقتصاد العالمي وما كانت تذيعه محطة برلين من اطراء لعلماء الاسلام وقادتهم السياسيين المعروفين بعدائهم للصهيونية والاستعمار أمثال مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني، ورشيد عالي الكيلاني قائد ثورة العراق ضد الانجليز وعزيز علي المصري وشكيب أرسلان - كل هذا جعل الشعب العربي بتونس يدعم الألمان ويحتفل بدخولهم تونس منتصرين على المستعمرين الذين فروا إلى الجزائر.

وبخـروج الفرنسيين من تونس منهزمين انتشر في أوساط الشعب شعور بالفرحة العارمة والنخوة القومية، خاصة وقد رأوا المعمرين الفرنسيين والجالية الفرنسية بتونس مطأطئي الرؤوس بعد ان كانوا في أوج تطاولهم وصلفهم في معاملتهم لأبناء البلاد الحقيقيين.

وبـالرغم من هذا الشعور الشعبي الطاغي بالآمال في كسب الحرية بعد انهزام المستعمر، فقد أعلن الملك وحكومته وقادة الحركة الوطنية الحياد التام من المتحاربين بالرغم من الضغوط التي سلطتها ايطاليا على قادة الحركة الوطنية. وقد طلبت الحركة الـوطنية بشقيهـا الحـزب الـدستوري القديم بلسان الثعالبي زعيم الحزب والحزب الـدستـوري الجديد بلسان بورقيبة زعيم الحزب الجديد والملك محمد المنصف باي وحكومته طالبوا من الشعب وألحوا عليه الحاحا بأن يلتزم بالحياد التام ازاء المتحاربين.

ولكن القـوى المتحـاربـة لم تقـدر هذا الموقف المعتدل من طرف القوى الوطنية وأقحمت البـلاد التـونسية كلهـا في أتـون الحرب فكان ان تعرض الأمن الجماعي للمواطنين للخطر وأصبحت البلاد كلها ميدانا للصراع المسلح وتعرضت العاصمة وكل المدن للقصف الجوي العنيف حتى ان مدنا كبيرة مثل مدينة سوسة صارت خرابا وتشرد المواطنون وذاقوا ويلات الغربة والجوع والفاقة وعانوا من الخوف وفقدان الأهل والأحباب واستمر هذا الحال ما يقرب من عام كامل.

العسف الاستعماري عقب الحرب :

وعند دخول القوات الفرنسية ضمن قوات الحلفاء المنتصرة شرعت بدافع الحقد على العرب والكره لهم في تطبيق سياسـة استعمارية جديدة تستهدف تصفية الوطنيين وتعميق الشعـور بالخيبة واليأس لدى الشعب وبث بذور الخوف والرعب في نفوس المواطنين، فبدؤوا أولا بخلع الملك وأقالوا وزارته ونفوه الى الأغواط بالصحراء الجزائرية ومنها إلى مدينة «بو» بفرنسا التي مات فيها في حادث مأساوي غامض كما مات من قبله والده الملك الوطني محمد الناصر الذي مات في سنة 1923 في حادث مأساوي أيضا يلفه الغموض نتيجة لمواقفه الوطنية. وقاد الفرنسيون حملة واسعة من التقتيل ضد المواطنين عن طريق الأحكام العرفية والعسكرية الصارمة. فكان ان اعدم المواطنون بالمئات في قفصه وقابس وصفاقس وسوسة وأنحاء عدة من البلاد وكانت توجه إليهم التهم المـزيفـة لتبرير القضاء عليهم وسحقهم سحقا كاملا. وقد تم نفي كثير من الوطنيين وخاصة من الجنوب التونسي إلى معتقلات صحراوية بجنوب الجزائر حيث أذاقوهم أمر ألوان العذاب وحملوهم الاشغال الشاقة وعاملوهم معاملة الدواب.

وبالرغم من الارهاب والتقتيل الجماعي فان الشعب لم يستسلم بل تكون لديه كرد فعل على الكره والعداء للاستعمار بوادر التمرد والثورة على المستعمرين الدخلاء. فقامت انتفاضات مسلحة في الجنوب التونسي و « زرمدين » والساحل التونسي وخاصة ثورة حامد المرزوقي وعبد الله الغول والشيخ علي باللطيف المرزوقي التي احتلوا فيها بلدة المرازيق وكبدوا المستعمر الفرنسي خسائر في الأرواح والعتاد.

واستمرت هذه الانتفاضات المسلحة ردحا من الزمن عبر فيها الشعب بجماهيره الواسعة عن حقده وكرهه للاستعمار الأجنبي، ولما توفر لديه السلاح أراد أن يمارس انسانيته وتحقيق استقلاله بواسطة هذا الكفاح المسلح الذي يعتبره الشعب هو الحل الوحيد لطرد الاستعمار من أرضه لا حبا في القتل والدم وانما من دخل بالقوة لا يخرج الا بقوة السلاح.

وقد كان موقف الحزب الدستوري الجديد من هذه الانتفاضات موقفا سلبيا ومن الكفاح المسلح عموما لأن البرجوازية التي تؤمن باستلام السلطة عن طريق المفاوضات تخاف هذا الكفاح وخاصة عندما تكون قاعدة هذا الكفاح جماهير الشعبُ الكادحة من عمال وفلاحين، كما كان موقفه من قضية خلع الملك الوطني محمد المنصف سلبيا وغير تضامني مما جعل الكثير من الوطنيين الذي يتعلمون بفرنسا يدينون هذا الموقف وخاصة احمد بن صالح الذي كان كاتبا عاما للشعبة الدستورية بباريس. وبالعكس كان موقف الحزب الحر الدستوري القديم « حزب الثعالبي » إلى جانب الملك الشهيد وفي غمرة النضال الدامي والكفاح المرير الذي ضرب فيه عرب تونس أمثالا من البطولة الرائعة ضد القمع والارهاب والصلف الاستعماري. قرّرت مجموعة من المناضلين على رأسهم الدكتور الحبيب ثامر ويوسف الرويسي والرشيد ادريس مغادرة البلاد التونسية والخروج إلى الخارج للتعريف بقضية تحرير بلادهم وكان بينهم الدكتور حافظ ابراهيم راجح من قادة حزب الدستور التونسي القديم وسوف نتعرض لهذا الموضوع في الفصل الخاص بجهاد التونسيين في الخارج.

وبعد استقلال سوريا ولبنان وانتهاء النفوذ الاستعماري الفرنسي بدأ الحديث في المشرق العربي عن الوحدة العربية وتعلقت آمال التونسيين كافة بهذا الحديث فأصبحت اهتمامات الرأي العام ورجال السياسة في تونس والحركات السياسية بوجه عام تنصب نحو القاهرة ومؤتمر الاسكندرية الذي عقد في سبتمبر سنة 1944. هذا المؤتمر الذي تولدت عنه جامعة الدول العربية وفتحت آمال واسعة وعريضة أمام الحركة الوطنية في المغرب العربي كله. وعلى اثر تأسيس جامعة الدول العربية قصد

أغلب قادة الحركات الوطنية في المغرب العربي القاهرة وأصبحت القاهرة مركزا لتجمع قادة الحركة الوطنية في المغرب العربي كله.

وفي نفس هذا العام سنة 1944 توفي الزعيم عبد العزيز الثعالبي أبو الحركة الوطنية في تونس وأحد المبشرين الأوائل بوحدة الأمة العربية وربط كفاح عرب المغرب باخوانهم عرب المشرق بعد جهاد دام ما يقارب النصف قرن مسجلا بذلك أروع الصفحات للنضال القومي والوطني على امتداد الوطن العربي كله مشرقه ومغربه باعثا الروح الوطنية والنضالية والقومية في أبناء الأمة العربية. فقد كان قدوة لجميع المناضلين من بعده وقد خلفه في قيادة الحزب المرحوم المناضل الزعيم محي الدين القليبي الذي سار بالحركة الوطنية التونسية على نفس النهج والمبادئ التي خطها الثعالبي للحركة الوطنية التونسية وربط محي الدين جهاده بجهاد اخوانه في المغرب والمشرق من ليبيا إلى الجزائر إلى المغرب وقد عاش محي الدين فقيرا ومات فقيرا والحديث عن محي الدين القليبي حديث يستحق من كل المناضلين من أبناء الوطن العربي الذين عرفوه والذين رافقوه داعيا بالقلم واللسان مجاهدا في زهد يبلغ إلى درجة التصوف والهيام بحب الوحدة العربية ووحدة العالم الاسلامي وكل من الثعالبي والقليبي لم يعيشا للمغرب العربي فقط وانما عاشا وماتا من أجل قضية أكبر وهي قضية الأمة العربية ووحدتها. ومات القليبي في ديار الغربة سنة 1954 في دمشق. وفي نفس النهج سار محمد المنصف المستيري والشيخ راجح ابراهيم والدكتور احمد بن ميلاد والشاذلي الخلادي وصالح فرحات والمناضل الشعبي الصبور احمد العباسي. ولم يمت الثعالبي مجهولا في بيته بتونس كما يدعي بعض الكتاب وخاصة الفرنسيين منهم ولكنه مات في ساحة النضال بعد ان بدأ يشعر بأنّ أحلامه بدأت تتحقق بانعقاد مؤتمر الاسكندرية الأول وتأسيس جامعة الدول العربية.

وكان لتأسيس جامعة الدول العربية الاثر الايجابي على تقارب وجهات النظر بين الحركات الوطنية في المغرب العربي في الداخل والخارج، وبعد سفر بورقيبة ومحي الدين القليبي إلى القاهرة تولى قيادة حزب الدستور الجديد المرحوم صالح بن يوسف وبتوليه قيادة الحركة عمل ليل نهار على اعادة تنظيم الحزب وربط خلاياه بعضها ببعض وأظهر صالح بن يوسف مقدرة تنظيمية خارقة للعادة. ودعا حزب الدستور الجديد في 22 أغسطس سنة 1946 إلى عقد مؤتمر سمي بمؤتمر ليلة القدر الذي تم تحت رئاسة القاضي الوطني العروسي الحداد وقد حضر هذا المؤتمر الوطني كل القوى السياسية في البلاد بما فيها الأحزاب والنقابات العمالية والزراعية ونقابات الموظفين ومندوبون عن

جامع الزيتونة وقد كان لهذا المؤتمر صداه البعيد اذ وحد بين جميع الاتجاهات والمشارب السياسية وجعلها كتلة واحدة متراصة في مواجهة العدو الاستعماري . وقد أصبحت الحركة الوطنية في تونس بجميع تشكيلاتها متجهة جميعا في اتجاه الوحدة العربية .

وقد أعلن رئيس المؤتمر القاضي الوطني العروسي الحداد من فوق منصة المؤتمر الحكم بالاعدام على النظام الاستعماري في تونس والمغرب العربي كله . واتخذ المؤتمر قرارا بالاجماع بالمطالبة بالاستقلال التام والانضمام إلى جامعة الدول العربية ومنظمة الأمم المتحدة . فما كان من السلطات الاستعمارية الا ان ردت على المؤتمرين بحملة من الاعتقالات شملت عددا من المؤتمرين ووجهت لهم تهمة التآمر على أمن الدولة الداخلي والخارجي .

واجتاحت البلاد موجة من الاضرابات شملت التنظيمات العمالية ، ونقابات التجار والحرفيين ، ونقابة الموظفين ونقابة الفلاحين .

مؤتمر الحركات الوطنية بالمغرب العربي في القاهرة :

بعد جو الوحدة والاجماع الوطني الرائع والصدى البعيد الذي أحدثه « مؤتمر ليلة القدر » على الحركات التحريرية في المغرب العربي بدأت المحاولات والعمل على عقد مؤتمر لكافة الحركات التحريرية في المغرب العربي بالقاهرة . وقد عقد هذا المؤتمر في سنة 1947 وحضره جميع قادة الأحزاب في المغرب والجزائر وتونس وقد انبثق عن هذا المؤتمر لجنة سميت بلجنة تحرير المغرب العربي أسندت رئاستها إلى الأمير محمد عبد الكريم الخطابي وأمانتها العامة للحبيب بورقيبة . وقد درس مؤتمر القاهرة الوضع العربي والدولي واتخذ مقررات في غاية الأهمية وهي :

- ان تلتزم كل الأحزاب بميثاق عمل وطني تحريري مشترك .
- لا يجوز لأي حزب ولا لأي حركة ان تنفرد بمفاوضة مع الاستعمار الفرنسي أو تبحث عن حل انفرادي لقضيتها .

وكان بطل الريف عبد الكريم لخطابي والدكتور ثامر ويوسف الرويسي والحركة الوطنية الجزائرية قد قرروا خطة تتمثل في الآتي :

1 ـ جلب اكبر عدد ممكن من الطلبة من كافة أقطار المغرب العربي والحاقهم بالكليات العسكرية بالقاهرة ودمشق وبغداد ليكونوا النواة القتالية ويتولوا مهمة تدريب المتطوعين للقتال في صفوف الحركات الوطنية وادارة الثورة المسلحة .

2 ـ تهيئة قيام ثورة مسلحة تبتدئ من حدود ليبيا إلى أغادير والصحراء المغربية. وكانت هذه الخطة تتطلب من الاستعمار الفرنسي مليون جندي وهذا العدد من الجنود لم يكن متوفرا للسلطات الاستعمارية التي كانت غارقة في حرب منهكة في الهند الصينية. وهذه الخطة كانت تستهدف تعجيز السلطات الاستعمارية في مواجهة حرب تحرير شعبية عن طريق الثورة المسلحة من حدود ليبيا إلى أغادير.

3 ـ توحيد المغرب العربي عن طريق الكفاح المسلح وخلق الدولة الواحدة المستقلة المتحررة من الاستعمار كخطوة أولى نحو الوحدة العربية الشاملة.

4 ـ جلب طلاب من المغرب العربي وتوزيعهم على المعاهد والكليات والجامعات لتكوين الاطارات « الكادرات » اللازمة لتعريب الادارة والتعليم في دولة المغرب المنتظرة.

وقد ساءت العلاقات بين لجنة تحرير المغرب العربي في القاهرة وبين الحبيب بورقيبة زعيم الحزب الدستوري الجديد نتيجة لاتصالاته المريبة من وراء ظهر اللجنة وعمله الدائب على استثمار أعمال اللجنة لابراز ذاته وشخصه بوجه خاص مما زاد الخلافات بينه وبين الدكتور الحبيب ثامر من جهة وعبد الكريم الخطابي من جهة ثانية، فقد كلف بورقيبة من طرف لجنة تحرير المغرب العربي بالقاهرة بالسفر إلى أمريكا سنة 1947 لجس نبضها ومعرفة نواياها تجاه استقلال المغرب العربي. وكانت هذه المهمة تتطلب السرية التامة.

وسافر بورقيبة بالفعل إلى أمريكا وقد ساعده فيصل بن عبد العزيز وكان آنذاك وزيرا للخارجية السعودية على مقابلة وزير خارجية أمريكا في حفلة أقامها الوزير السعودي. وبمجرد ان التقطت له صور مع وزير خارجية أمريكا نشرت هذه الصور في الصحافة. وبعد عودته من أمريكا إلى القاهرة علم بأن هنالك طلابا يأتون إلى المشرق العربي عبر ليبيا فسافر إلى بنغازي واتصل بالبعض منهم واستجوب البعض ولما عاد إلى القاهرة صرح لمجلة « مسامرات الجيب » قائلا :

اني ذهبت إلى ليبيا للاتصال بأنصار حزبي هناك لكي أدرس معهم امكانية قيام ثورة في المغرب العربي. وعندما سأله مدير المجلة قائلا « والانكليز الموجودين في ليبيا ؟ ».

أجاب : « اني اتفقت معهم على أن يغضوا الطرف ».

وقد نشأت بين الحبيب بورقيبة من جهة وبين كل من الدكتور الحبيب ثامر وعبد الكريم الخطابي والمرحوم محي الدين القليبي أحد زعماء الحزب القديم ويوسف الرويسي عضو الديوان السياسي للحزب الجديد ورئيس لجنة تحرير المغرب العربي بدمشق خلافات وصلت إلى حد القطيعة بينه وبينهم بسبب الاتصالات التي كان يجريها مع أعضاء السفارة الفرنسية بالقاهرة. ولما عرفوا اتصالاته بالسفارة الفرنسية بالقاهرة فصلوه من الأمانة العامة للجنة تحرير المغرب العربي التي تكونت سنة 1947 بالقاهرة وعينوا بدلا له المرحوم علالة الفاسي رئيس حزب الاستقلال المغربي وأصبح عبد الكريم الخطابي يتهم بورقيبة علنا بالانحراف والتواطؤ مع الفرنسيين ضد حركة التحرير المغربية ووصلت حدة الخلاف بينه وبين الدكتور الحبيب ثامر إلى درجة ان قال الحبيب ثامر عنه : « انني أخشى على تونس من الاستعمار الفرنسي واستعمار بورقيبة بعد الاستقلال ».

اتجاهان متصارعان داخل الحزب :

إلى جانب الخصومات التي كانت تدور بينه وبين أعضاء لجنة تحرير المغرب العربي بالقاهرة كانت هناك خلافات أخرى مع الشهيد صالح بن يوسف قائد حزب الدستور الجديد بعد سفر بورقيبة للقاهرة والمنجي سليم مدير الحزب الدستوري الجديد.

ومنشأ هذه الخلافات ان المرحوم صالح بن يوسف قد عمل على ابعاد الشيخين الفاضل بن عاشور والشاذلي بالقاضي من الحركة الوطنية كانت اتصالات بورقيبة بهما عن طريق المراسلة من القاهرة. كما جدد اتصالاته بحسن قلاتي والشاذلي القسطلي بقايا حزب الاصلاح العميل، وأصبح هؤلاء يتكلمون باسمه مما سبب خلافا بينه وبين صالح بن يوسف والمنجي سليم وقيادة الحزب بالداخل وكانت تأتيه رسائل من داخل تونس تخبره وهو في القاهرة بأن صالح بن يوسف والمنجي سليم يعملان جاهدين على اقصائه من رئاسة الحزب الذي انتخبه رئيسا له مؤتمر الحزب المنعقد في تونس سنة 1946 « مؤتمر ليلة القدر » خاصة وان المرحوم صالح بن يوسف قد نظم الحزب تنظيما عصريا وكون له فروعا في كل انحاء القطر وعمل على تنظيم نقابات الفلاحين تحت اسم الاتحاد العام للفلاحة بتونس الذي كان يجمع صغار المزارعين، ونقابات للتجار والحرفيين وسمي بالاتحاد العام للصناعة والتجارة. وساعد على تكوين اتحاد العمال ونقابات الموظفين التي أصبحت تحت الاتحاد العام التونسي للشغل هذه المنظمات التي عمل الحزب الدستوري الجديد بقيادة المرحوم صالح بن يوسف والمنجي سليم على تكوينها إلى جانب الغرف التجارية والفلاحية لكي يتمكن حزب الدستور

الجديد من الاتصال بالشعب عن طريقها وهي المسموح لها بالعمل من طرف السلطات الاستعمارية بموجب قانون النقابات والجمعيات المهنية.

وكانت هنالك عناصر من انصار رئيس الحزب الدستوري الجديد الحبيب بورقيبة منهم الهادي نويره الأمين العام المساعد للحزب ومحمود شرشور والشاذلي قلاله وعلاله العويتي الذي عاد من القاهرة يروجون لهذه الشائعات، وكان العويتي يعمل على جلب عطف الدستوريين باتجاه بورقيبة وان بورقيبة يعيش في حالة مادية سيئة في القاهرة. فما كان من المنجي سليم الا أن أقصى الشاذلي قلاله ومحمود شرشور من المجلس المركزي للحزب. والواقع انه كما أثبتت ذلك الأحداث المتوالية، لا المنجي سليم ولا صالح بن يوسف كان يفكر في اقصاء بورقيبة من رئاسة الحزب. ولا تخرج هذه القضية عن اطار التكتلات المحورية التي هي ظاهرة موجودة في كل الأحزاب السياسية في العالم. ويستبعد أن يكون هدف صالح بن يوسف والمنجي سليم اقصاء بورقيبة عن قيادة الحزب لأن المرحلة التي تمر بها تونس والحركة الوطنية لا تسمح بالانشقاق للأسباب الآتية :

أولا : ان تونس كانت قد بدأت تكافح في هذه المرحلة الحاسمة في ساحة المغرب العربي وهذا يتطلب الانهماك في العمل الجدي الهام. وهذا يقتضي رص الصفوف حتى لا يستفيد المستعمر من أي ثغرة، ولم يمنع هذا من أن يفصل الدكتور سليمان بن سليمان من عضوية المكتب السياسي للحزب الدستوري ومن عضوية الحزب. وسبب اقصاء الدكتور سليمان بن سليمان انه بعد هدنة سنة 1945 وانتصار الحلفاء على النازية وبروز الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية كقوتين كبريين منتصرتين في الحرب اضطر حزب الدستور الجديد إلى اللجوء إلى اختيار استراتيجية جديدة. وقد كلف الدكتور سليمان بن سليمان أحد قادة الحزب الجديد التقدميين والذي كان يمثل اتجاها تقدميا يتعارض مع اتجاهات قادة الحزب وخاصة بورقيبة والمنجي سليم وصالح بن يوسف كلف بتنفيذ هذه الخطة التي تقتضي بأن يتجه في اتجاه المعسكر الاشتراكي وأن يظهر للمعسكر الغربي بأن هناك تحولا لدى بعض قادة الحزب الدستوري الجديد في اتجاه المعسكر الاشتراكي فأسندت إلى الدكتور سليمان بن سليمان رئاسة تحرير جريدة الحزب « الرسالة » الصادرة بالفرنسية فأسس لجنة تسمى لجنة الحرية والسلم وبدأ يوجه جريدة الحزب الدستوري الجديد « الرسالة » باتجاه المعسكر الاشتراكي. وصادف ان تقدم الشهيد فرحات حشاد بطلب الاتحاد العام التونسي للشغل الانضمام إلى الاتحاد الدولي للنقابات الحرة « أي النقابات الغربية » فرفض طلبه فتقدم إلى الاتحاد النقابي العالمي المنضوي تحت لواء المعسكر الاشتراكي فقبل طلبه.

وعندئذ أسرع الاتحاد الدولي للنقابات الحرة وقبل فرحات حشاد والاتحاد العام التونسي للشغل في عضوية هذه المنظمة الدولية. وبذلك أصبح الاتحاد العام التونسي للشغل عضوا عاملا في هذه النقابات.

ثانيا: انه قامت حملة شعواء من الدوائر الاستعمارية والغربية تتهم حزب الدستور الجديد بالشيوعية بسبب الوجهة التي اتجهها الدكتور سليمان ابن سليمان بجريدة الحزب قبل اقصائه من المكتب السياسي للحزب الدستوري الجديد فما كان من قيادة الحزب الا ان طلبت من الدكتور سليمان ان يتخلى عن اتجاهه لفائدة سياسة التقارب من المعسكر الغربي. فأصر الدكتور سليمان على موقفه، فوقعت محاولات لاقناعه توسط فيها الشهيد فرحات حشاد فرفضها الدكتور سليمان واعتبر هذا الخط الذي سار عليه هو الخط الصحيح واتهم قيادة الحزب بالسير وراء السياسة الأمريكية. ولما أصر على موقفه فصلوه من الحزب واتهموه بالشيوعية.

عودة إلى تونس بالاتفاق مع فرنسا:

وعاد الحبيب بورقيبة رئيس حزب الدستور الجديد من القاهرة إلى تونس سنة 1949 ليخوض تجربة جديدة. وأثناء اقامة الحبيب بورقيبة بالقاهرة وزياراته لفلسطين وسوريا والعراق قدمت له القاهرة بالخصوص كل الدعم والمساعدة بدافع قومي شريف وخاصة حزب الوفد وصحافته ومن بينها جريدة المصري. وأقنع الحبيب بورقيبة بعض الساسة المصريين بضرورة عودته إلى تونس بدعوى ان صالح بن يوسف والمنجي سليم قد خانا الحركة وأخفى عن المصريين اتصالاته بالسفارة الفرنسية بالقاهرة التي أبدى فيها استعداده للتفاوض مع فرنسا على أساس منح تونس الاصلاحات مقابل عقد معاهدة مع فرنسا تخول لها امتيازات استراتيجية واقتصادية هامة وقد كان هذا هو السبب الحقيقي الذي حدا به للعودة. وعلى هذا الأساس شكلت حكومة تونسية برئاسة محمد شنيق في 17 تشرين أول سنة 1950 وقد شارك حزب الدستور الجديد في هذه الحكومة التي أسندت وزارة العدل فيها إلى صالح بن يوسف الأمين العام للحزب الدستوري الجديد، على أساس الدخول في مفاوضات. وشكل وفد للتفاوض مع فرنسا برئاسة محمد شنيق وعضوية محمد بدره وزير العمل والشؤون الاجتماعية وصالح بن يوسف وزير العدل وكانت مطالب الجانب الفرنسي تتمثل في:

1 ـ تشكيل حكومة تونسية متجانسة وارجاء النظر في وزارة المالية إلى مرحلة ثالثة من المفاوضات.

2 ـ الغاء منصب الكاتب العام للحكومة أو تعويضه بموظف تونسي.
3 ـ الغاء الاشراف الفرنسي على ميزانية الدولة.
4 ـ الغاء الدرك الوطني الفرنسي.
5 ـ الغاء خطة المراقبين المدنيين الفرنسيين.
6 ـ تشكيل مجالس بلدية مزدوجة عرب ـ وفرنسيين.
7 ـ انتخاب مجلس وطني تونسي توكل إليه مهمة اعداد دستور للبلاد

وقد كان الرأي العام الفرنسي مهيأ لمنح التونسيين بعض الاصلاحات. كذلك فان بعض الساسة الفرنسيين قد أدركوا ان الحزب الدستوري الجديد قد أعطى للفرنسيين فرصة للتفاهم المشترك عن طريق هذا البرنامج الاصلاحي المعتدل في مطالبه. وكان لتصريحات بعض قادة الحزب انه من الأجدى لتونس أن تستخدم طاقات شعبها في البناء لا في التدمير والخراب وقع لدى بعض الأوساط السياسية الفرنسية التي أبدت استعدادها لسماع وجهة النظر التونسية هذه. ولكن كانت هناك عقبات كثيرة لاتزال قائمة في وجه الوصول إلى اتفاق كامل بين التونسيين والفرنسيين. فالجالية الفرنسية بتونس مثلا كانت نشيطة في عدائها لأي تغيير يقع في سياسة فرنسا من شأنه أن يعود بالفائدة على الشعب التونسي أو يحقق أي كسب سياسي للحركة الوطنية مهما كان صغيرا. وقد ترتب عن قبول الحزب الدستوري الجديد الدخول في المفاوضات مع الفرنسيين معارضة شديدة من الحزب الدستوري القديم الذي عرض على زعيمه المرحوم محي الدين القليبي المشاركة في وزارة شنيق فرفض وأصدر بيانات يدين بها هذه التجربة التي حكم عليها بالفشل مسبقا. وكذلك أدان عبد الكريم الخطابي ويوسف الرويسي مشاركة الحزب الدستوري الجديد في الحكومة المزدوجة واعتبارها خيانة للأهداف الاستقلالية للمغرب العربي. وقد اعتبر هؤلاء المعارضون ان الدخول في مفاوضات مع الفرنسيين تنكر لميثاق العمل الوطني الصادر بالقاهرة سنة 1947 الذي وافقت عليه جميع الأحزاب والذي ينص على انه لا مفاوضة قبل الجلاء، خاصة وان ليبيا على أبواب الاستقلال وكان استقلالها محط آمال الحركات الوطنية لأقطار المغرب حيث أثبتت الحركة الوطنية في ليبيا أنها على استعداد للقيام بالواجب نحو إخوانهم ومساعدتهم على تحرير بلدانهم من الاستعمار الفرنسي وقد ارتبطت حركة النضال الوطني في ليبيا والجهاد في سبيل الخلاص من الاستعمار أشد الارتباط بالحركة الوطنية في تونس. وقد كان الثعالبي وباش حانبه ومحي الدين القليبي عملوا منذ القديم في الحركة الوطنية الليبية وساعدوها بما أوتوا من قوة. وقد أثبتت التجربة ان استقلال ليبيا سوف يكون له دور فعال في شد أزر النضال في المغرب العربي كله. ونحن هنا نضع

بيان البطل عبد الكريم الخطابي حول مشاركة حزب الدستور الجديد في الوزارة المزدوجة مع الفرنسيين وبيان يوسف الرويسي أحد أعضاء المكتب السياسي لحزب الدستور الجديد وبيانات اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري القديم (الحركة الوطنية الأم) .

بيـــان

من اللجنة التنفيذية للحزب الدستوري التونسي .
ذهبت وزارة الكعاك .
وخلفتها وزارة جديدة .

أردنا أن نعطي لأنفسنا الوقت للتروي قبل الاصداع بفكرتنا وان نعرف كيف يمكن للوزارة الجديدة التي قيدت نفسها بما التزمت به أن تنجز (اصلاحات أصولية) الا أن الازالة المزعومة للمستشارين قد اضطرتنا للخروج عن موقف الترقب والاحتياط .

ان هذه الوزارة حسبما صرح به المقيم العام أثناء الندوة الصحفية التي عقدها يوم 18 تشرين أول 1950 (هي حكومة اتحادية تضم ممثلي مختلف منازع الرأي العام التونسي) .

لسنا على وفاق مع مسيو بيرلي في هذه النقطة لأن الحزب الحر الدستوري قائم الذات بهيئاته النظامية .

وحين دعي للمشاركة في تشكيل الوزارة الجديدة لم يظهر له أن يلبي الدعوة لذا اننا ننفي ما تدعيه الحكومة من انها تملك (مساندة الأمة بأسرها) . ان هذه الحكومة حسب تصريح البلاغ الذي أذاعته يوم 17 أول تشرين (تشمل علاوة عن الأعضاء الفرنسيين سبعة وزراء تونسيين . وهي قد تشكلت في نطاق المعاهدات الرابطة بين البلاد التونسية وبين فرنسا على أساس الموافقة التامة لما تضمنه التصريح السفيري الواقع في 13 جوان الفارط وستتولى المذاكرات اسم الحضرة العلية في شأن التغييرات التأسيسية التي من شأنها أن تقود البلاد التونسية حسب مراحل متعاقبة نحو (الاستقلال الداخلي) . وهل نحن في حاجة لأن نذكر بأن المأمورية المنوطة بعهدة المسيو بيرلي حسبما تضمنه الخطاب الذي ألقاه المسيو شومان وزير خارجية فرنسا هي قيادة القطر التونسي على عدة مراحل لا نحو نيل (الاستقلال الداخلي) بل نحو

الاستقلال التام. فالشعب التونسي لا يقبل والحالة تلك أن تعوض كلمة (الاستقلال التام) (بالاستقلال الداخلي) لمجرد عبورها عرض البحر الأبيض المتوسط.

وأردف المقيم العام قائلا تعليقا على بلاغ 17 أوت أثناء ندوته الصحافية (لقد حصلنا باتفاق مع الحضرة العلية على **القبول الصريح** من طرف الذين شاركوا في الحكومة لفحوى الاصلاحات والحدود التي ستنجز فيها.

انما بقاء الرقابة الفرنسية التي قد تدخل عليها بعض التحويرات ومرونة وبقاء الأعضاء الفرنسيين بالحكومة .

وليس في الناس من يجهل ان في بلاد حماية داخلة في نطاق الحق الدولي مثل الحماية التونسية ليس للحامي أدنى حق في العمل المباشر. وقد أكد كل من مسيو برتلمي ومسيو نيس.وهما من أشهر أساطين القانون الدولي عند استفتائهما في 11 و 18 جويلية سنة 1921 (ان من مستلزمات الحماية احترام السيادة الداخلية للشعب المحمي. أما السيادة الخارجية فان للدولة الحامية نيابة فقط).

لذا نفكر كل التفكير ان السيادة سواء داخلية أو خارجية هي لنا خاصة ويستحيل علينا أن نؤمن من الوجهة القانونية بوجود سيادة مشتركة بهذه البلاد (أي سيادة تونسية وسيادة فرنسية).

وليست الحماية الا شبيهة بتقديم شرعي وهل يجوز جدليا وقضائيا ان يستولي المقدم على أدنى جزء من مكاسب منظورة. ويتضح علاوة على ذلك من معاهدة القصر السعيد ان الحماية وقتية. وعلى ذلك فمن المحتم ان تبارح السلطة الفرنسية في يوم من الأيام تراب القطر. فكيف يمكن اذن التوفيق بين فكرة الرحيل وبين فكرة السيادة المزدوجة. على ان اتفاقية المرسى لم تغير هذه الحالة بل سارت على البند الذي سطرته معاهدة باردو اذ ذكرت بفصلها الأول ما نصه (. . . سعيا وراء تيسير القيام على الحكومة الفرنسية بواجبات حمايتها الخ . . .).

ومن المفيد أن نذكر بهذه المناسبة المناقشة التي دارت في عام 1936 بالسفارة العامة بين المأسوف عليه المسيو فيانو كاتب الدولة بالأمور الخارجية اذّاك وبين بعض أعضاء اللجنة التنفيذية تكميل المناقشة التي اضطر أثناءها كاتب الدولة المذكور الذي كان من أنصار مبدأ السيادة المشتركة إلى الاعتراف بأن السيادة بالبلاد التونسية لا تكون الا سيادة واحدة **وسيادة تونسية**.

فقبول الفرنسيين بمثابة وزراء في صلب الحكومة يتألف منه والحالة ما ذكر خرق ليس فقط للسيادة التونسية وللمعاهدات الرابطة بين فرنسا وتونس وللقانون الدولي أيضا بل للمأمورية المنوطة بعهدة المقيم العام نفسه. فلا يؤاخذنا مسيو بيرلي إذا نحن قلنا له بكامل الصراحة انه سالك في هذا الصدد نفس الطريقة التي انتهجتها من قبله أسلافه وانه إذا أراد مثلما تشير عليه به مأموريته التي هي السير بالقطر التونسي نحو الاستقلال أو على الأقل نحو (الاستقلال الداخلي) فعليه أن يسلك طريقا معاكسة لما انتهجه على طول الخط.

وأغرب من ذلك هو أنهم يؤكدون على رؤوس الاشهاد في البلاغ الصادر في 17 أوت رغبتهم في ادخال اصلاحات في (نطاق المعاهدات) من جهة ومن جهة أخرى يسددون من أول وهلة طعنة نجلاء في كبد المعاهدات المذكورة وهذه النصوص (1) التي يدخلون ضمنها بكل صبابة وهيام ما يعبرون عنه بالعقود الموالية أو المعاهدات الصغيرة، لم تجر في شأن غالبها أدنى مناقشة من قبل.

وكلنا يعلم كيف تحرر الأوامر (2) . . . فلا فائدة ان نطلب في شرح كيفية تحضيرها وأسلوب نشرها وبالطريقة (البسيطة المرنة) ألا وهي طريقة اصدار الأوامر انتهينا إلى ما نحن عليه الآن. لقد ذكر المقيم العام في خطابه الذي ألقاه يوم 12 جوان سنة 1950 متحدثا عن الاصلاحات المزمع عليها (ان هذه التدابير قد وقع تحضيرها أو درسها منذ عدة شهور واني مكلف بمباشرة تطبيقها وعندما يقع انجازها، نبحث معا في جو من حسن النية عن الحلول التي من شأنها ادخال تحسينات على نظام السلطة العمومية وسير دواليب الادارة وعندما يتم تحضير الحلول بكامل العناية المرجوة على الصور التي رسمها سلفي بالنسبة للتحريرات التي ستأتي فانها تعرض على أنظار جلالة الملك وأنظار حكومة الجمهورية ويقع تطبيقها.

يظهر جليا من هذه البيانات ان المقيم العام كانت مهمته أن يطبق حالا الاصلاحات التي تتألف منها المرحلة الأولى والتي سبق تحضيرها منذ شهور من طرف مسيو مونسيل. ان هذه الاصلاحات كان من المتوقع تنفيذها قبل تأليف الوزارة الجديدة حتى انه أذيع على طريق الصحافة، بأن ذلك سيكون بمناسبة عيد الفطر. كل ذلك قد تبخر في الفضاء فلم يبق الأمر الآن معلقا بتطبيق اصلاحات هيئة من ذي قبل بل بالتفاوض مع الوزارة الجديدة في شأن هذه الاصلاحات كما لو لم يقع الخوض فيها ولم تبرز لعالم الحس أصلا وهذا ما يؤكد لنا ان القوم يريدون ربح الوقت. وفي الحقيقة ماذا سيردون لنا بالاصلاحات الموصى إليها.

1 ـ فتح مجال الدخول للوظيفة العمومية في وجوه بعض التونسيين مع اشتراط الفنية وفي دائـرة امكانيات الميزانية (المقررة من طرف نواب السكان ومع اشتراط احترام الحقوق المكتسبة احتراما تاما .

2 ـ تقوية متحتمة لجانب ذاتية الحكومة .

3 ـ اصلاح بلدي .

(أ) قبل الوزراء التونسيون المهمة الملقاة على عاتقهم بدون أدنى ضمان ولا أي برنامج مع ابقاء المستشارين والكاتب العام والمقيم العام بصفته رئيس مجلس الوزراء على نفس الحالة التي قبلت بها وزارة الكعاك التي كان البعض من أفراد الوزارة الجديدة يستردون عليها الفكر مع وجود فرق خطير ألا وهو تعهد الوزارة الجديدة بصورة قطعية بالمشاركة مع مديري بعض الادارات الذين أصبحوا وزراء الأمر الذي يقر بصفة غير قانونية مبدأ السيادة المشتركة بالبلاد التونسية .

حقيقة ان المستشارين ـ عملا بموجب الأمر الصادر في 7 سبتمبر سنة 1905 ـ قد استبـدلوا محلات اقامتهم . لكنهم لايزالون مثابرين على مراقبة الوزراء لا بداخل الوزارات بل بالكتابة العامة . فهذا اصلاح . يراد مثلا التخفيف معنويا على الوزراء التونسيين ولا يمكن اعتباره في الحقيقة اصلاحا لأن مراقبة المستشارين أنفسهم لاتزال موجودة برمتها .

(ب) ان الوظيفة العمومية التي كان ينبغي فتحها في وجوه المثقفين التونسيين في (الآجـال القريبة جدا أصبحت في الندوة الصحافية المنعقدة في 18 أوت « مسألة عويصة ينبغي تناولها بمزيد الحذر) . كان على وفاق تام مع المقيم العام في اعتباره ان كفاءة الموظف وخبرته الفنية لازمتان لصالح الأهالي أنفسهم غير انه لا ينبغي تعطيل دخول التونسيين في الوظائف العمومية ببلادهم وتقييد ذلك باعتبارات ترجع لما يسمى بالحقوق المكتسبة أو لما يفرض الميزان مع أننا نعلم حق العلم ان نواب السكان ليس لهم في نفس الأمر الواقع فيما يتعلق بالميزات الا صوت استشاري والحكومة الفرنسية هي التي تسيطر في آخر الأمر على تحرير الميزان التونسي .

على انه إذا كان في عزم هذه الحكومة ان تفتح باب الوظيفة العمومية على مصراعيه في وجوه التونسيين فان الوسائل اللازمة لذلك لا يتعذر ايجادها . الا اننا نصطدم بها للسادة الموظفين الفرنسيين من الحقوق التي ينبغي احترامها احتراما تاما . اننا نصرح على رؤوس الملأ ان الفرنسيين الذين يشغلون وظائف تصرف انما يباشرونها بغير حق

وبغير ما تنص عليه المعاهدات وانه من باب الانصاف الموافق للقانون ان ترجع هذه الوظائف للتونسيين الذين هم أصحابها الحقيقيون.

قد يكون الفرنسيون المباشرون لوظائف تصرف جديرين بالعناية وقد يكون انهم أحدثوا عائلة واستوطنوا بلادنا فيكون لمن الحق في ان يطلبوا حكومتهم دون سواها بوظيفة مماثلة لوظيفتهم بفرنسا أو بغرامة مطابقة لوظيفة التصرف التي يشغلونها في البلاد التونسية بغير حق ولا كتاب منير ضرورة ان الحكومة الفرنسية أو ممثلها بتونس هما اللذان فرضا تعيينهم في تلك الخطة.

وما هذا الاحترام لما للموظفين الفرنسيين صغيرهم وكبيرهم من الحقوق المكتسبة الا انتهاك لحرمة المعاهدات والقانون الدولي.

(جـ) يقال ان هناك اصلاحا ثالثا وتعنى به اصلاح النظام البلدي سيغمرنا في آخر السنة الجارية فعلى أية صورة سيتم تأليف المجالس البلدية ا هل تكون تونسية صرفة أم مختلطة ؟.

فهـذا الحـل الأخير الذي ارتضاه الدستور الجديد في حال انه يتألف منه خرق للمعاهدات والقانون الدولي أيضا لا يمكن ان يوافق عليه الشعب التونسي.

وانا نحذر السلطة في هذه البلاد من الاقدام على هذا الحل الذي نستخلص من تحليل التصريحات التي فاه بها العميد يوم 13 جوان والندوة الصحافية التي عقدها يوم 18 أوت تحليلا دقيقا هي :

(1) انه كان في عزم الحكومة الفرنسية اجراء اصلاحات أوسع مما وقع الاعلان به

(2) وانه ازاء (فكرة المصانعة التي لا ريب فيها) والتي بدت في البلاد التونسية عند بعض عناصر من السكان بتونس تولدت فكرة الرجوع إلى الوراء من أدمغة حماتنا وفي غضونها اتخذت بعض تشهدات.

اننا لنأسف لهذا الموقف ومازلنا نعتقد مهما يقال في هذا الصدد ان الاصلاحات الثلاثة المزمع عليها والموعود بانجازها منذ عهد بعيد هي بعيدة بعدا شاسعا عن الاصلاحات الجوهرية التي تعلقت بها رغبة الجناب العالي (1) أبقاه الله وهي لا يمكن أن ترضي بحال الشعب التونسي.

---

1) باي تونس.

ان الشعب التونسي يطالب بأن تعلن فرنسا على رؤوس الملأ عزمها على : ـ

(1) ان ترجع له في أقرب أجل ممكن حق التصرف في جميع شؤونه الداخلية التي سلبت منه شيئا فشيئا على توالي الأعوام منذ انتصاب الحماية.

(2) وان ترجع له استقلاله التام الذي هو حق طبيعي لا يعتريه مسخ. ولا نقض وذلك فيما يلزم من الوقت العادي لارجاع شؤوننا الداخلية بأيدينا. ليس من المعقول أن يبقى شعب ضعيف على طول الأبد تحت سيطرة شعب أقوى منه لا لمبرر اخر غير انه ضعيف. ان فكرة دوام بقاء فرنسا بهذه الديار التي رضي بها الوزراء الجدد هي فكرة ينقصها منطوق ومفهوم معاهدة باردو وأيد ذلك ان الفصل الثاني من المعاهدة المذكورة قد نص على ان الحماية الفرنسية لها صفة وقتية صرفة.

ثم انه قد بان بالكاشف (ان الحماية هي نظام سياسي واقتصادي لا يتلاءم قط مع حقوق السيادة التي للشعب التونسي ولا مع مصالحه الحيوية كما أثبتت ذلك لائحة المؤتمر الوطني المنعقد في 23 أوت 1946 والتي وقع الاقتراع عليها بالاجماع من طرف الدستور القديم والدستور الجديد وممثلي جميع الهيئات الثقافية والفلاحية والتجارية والصناعية الخ.

فبعد تجربة دامت سبعين عاما كانت تتخللها ضروب كثيرة من الغضب والتفقير قد تبين أن هذا النظام الاستعماري قد سعى إلى حتفه بظلمه وحكم على نفسه بالزوال.

علما ان الفكر العام الفرنسي ما عدا المحظوظين والمنتفعين لم يسعه الا الاعتراف في آخر الأمر بتلك الحقيقة.

فلماذا يا ترى قد قبل الوزراء التونسيون بمهمّة احياء الموتى.

أما الدستور فقد رفض المشاركة في الحكم لأنه كان على يقين تام بأنه عاجز عن الاتيان بالمعجزات ففي الوقت الذي منحت فيه انجلترا وأمريكا وهولندا استقلال مستعمراتها أو البلدان التي كانت تحت حمايتها وفي الوقت الذي وصلت فيه طرابلس الشقيقة للظفر هي أيضا باستقلالها وفي الوقت الذي حكم فيه الضمير العالميّ على الاستعمار نرى الجانب الفرنسي المقابل لنا يتجاهل في نفس الأمر والواقع تطور الشعوب في العالم والقواعد التي تضمنها ميثاق الأمم المتحدة وحتى مقدمة الدستور

الفرنسي نفسه أي من السهل على من كان بيده زمام الحكم أن يعلن ان فكرة الوطنية هي (فكرة متأخرة) أكل عليها الدهر وشرب وأنه حلت محلها الآن (فكرة ارتباط المصالح والتعاضد بين الأمم) .

أجل ان فكـــرة ارتبـــاط المصالح والتعاضد بين الأمم قد تكون في حد ذاتها شيئا حسنا لكن يجب الاقبال عليها والاحتكام إليها في جو من الحرية ولا ينبغي ان تفرض بالقوة وذلك هو السبب الذي يريد الشعب التونسي من أجله استرجاع حريته أولا وبالذات .

هذا وكثيرا ما يجزم بعضهم ان البلاد التونسية (قطر صغير لا يمكنه الاستغناء عن فرنسـا) ولسنا ممتنعين عن سياسة التعاون مع فرنسا لكننا نريد أن يقام صرح ذاك التعاون على أساس الاستقلال والحرية وإذا كانت البلاد التونسية يتألف منها شعب صغير فان بلادا مثل لبنان واللوكسمبورغ الخ . . هما أصغر من البلاد التونسية حجما ومع ذلك فهما يتمتعان بنعمة الاستقلال . . .

اذن فهاته الحجة لا يمكن ان يعلل بها استمرار وجود فرنسا بهاته الديار وإذا قيل لكم يا حضرة المقيم العـام ان التـونسيين الـذين أفقرهم الاستعمار والذين تصبب جبينهم عرقا طيلة عشرات السنين من أجل الاستعمار والذين يرون مئات الآلاف من أبنائهم يجوبون الطرقات لفقدان المدارس بينما ميزان بلادهم تبتلعه في كل سنة شرذمة لايزال عددهم كل يوم في ازدياد من شركات وموظفين ومستعمرين فرنسيين وإذا قيل لكم ان الـذين يتـذوقون الآن مختلف الآلام في أجسادهم وأرواحهم من مصائب الاستعمار يؤثرون العبودية على الحرية فلا تصدقوهم ولا تنصتوا لأقوالهم .

وإذا كان الدستور الجديد والبعض من اعضاء الهيئة الوزارية الحاضرة الذين وافقوا على مقـررات المؤتمر الوطني المنعقد في 23 أغسطس سنة 1946 يقبلون الآن مبدأ السيادة المزدوجة ويتوخون طريق النكوص على الاعقاب فان الشعب التونسي ليس له ما يدعوه لتبديل موقفه ونقض خزله بيده على ان هذا الشعب له أسباب شرعية ليكون غير مطمئن. وبالفعل فان الشعب التونسي الذي لم تقع استشارته والذي ينبغي ان يسمع له قول في هذا الصدد لم يفوض لكائن من كان سواء داخل الوزارة أو خارجها حق التفاوض لادخال تحويرات أساسية لها تأثير فادح على مستقبل البلاد وليس لغير مجلس وطني تكون الوزارة منبثقة عنه ومسؤولة لديه الصفة القانونية لتعيين مفاوضين يتـولون باسم الحضرة العلية اجراء مذاكرات مع فرنسا تتعلق بتطور العلاقات بين تونس وفرنسا

ومهما يكن من الأمر فاننا نحذر الوزراء التونسيين سوء عاقبة كل اندفاع يصدر منهم في سبيل تحبيذ الدخول في الاتحاد الفرنسي الذي لا يخالف الا في الاسم فقط نظام الامبراطورية الفرنسية السابقة ونذكرهم من جهة اخرى بموقف الجناب العالي أيده الله وموقف الشعب التونسي بأسره من ذلك الدخول ورفضهما له رفضا تاما.

ان مناظر الشعوذة التي نشاهدها اليوم لا تدوم وسيكون المستقبل للذين يحسنون الثبات. ان المحاولة التي ترمي لابتلاع سيادتنا تلك المحاولة التي نحتج عليها بكل قوانا لن يكتب لها النجاح بحول الله، بفضل شدة شكيمة الشعب التونسي وقوة عزيمته.

وقد كان ولايزال همنا الوحيد الذود عن حياض الشعب وانقاذه. ويكون الاستقلال في آخر الأمر مكللا بجهودنا ولنعم أجر العاملين.

عن اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري التونسي
صالح فرحات
الأمين العام للحزب الحر الدستوري التونسي

بيان من اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري التونسي

ان اللجنة التنفيذية للحزب الدستوري التونسي التي ما فتئت منذ ثلاثين سنة حاملة راية الدفاع الصادق عن القضية التونسية وموجهة لكل مسعى مبكر من شأنه ايصالنا لاستقلالنا قد رأت نفسها مضطرة لعدم التغاضي عن التصريحات الخطيرة التي أفضى بها السيد الحبيب بورقيبة رئيس الدستور الجديد في خلال الشهر الماضي وذلك بالرغم من وطنيتها وما تشعر به من وجوب المحافظة على الاتحاد بين الأبناء، هذه الأرض المسلمة التي يستغلها منذ عشرات السنين استعمار شديد الوطأة لا يطاق. وهل نحن في حاجة لأن نذكر صديقنا بورقيبة بأن ممثلي الدستور والدستور الجديد وجميع المنظمات الثقافية والفلاحية والتجارية والصناعية وغيرها قد اجتمعوا في مؤتمر تاريخي ليلة السابع والعشرين من رمضان 1365 - حال مغيبه في مصر - وقرّروا بالاجماع العزم على السعي لنيل الاستقلال وبذل كل الجهود في سبيل الظفر به وانه منذ ذلك الحين أصبحت مقررات المؤتمر ميثاقا قوميا وهذا الميثاق قد ارتضاه وصادق عليه السيد بورقيبة نفسه حسب التصريحات التي نشرت له في القاهرة. فكيف يجوز والحالة ما ذكر لطرف واحد من أطراف المتعاقدين ان ينكث العهد أو يخل الميثاق بمفرده.

وهل يلزم ان نذكره بالتناقضات التي تحويها خطبه التي يلقيها أحيانا تحت تأثير الاندفاعات الحماسية الطارئة وأحيانا تحت تأثير ظروف خاصة أثناء تنقلاته العديدة ؟ ففي بعضها نراه يطالب باصلاحات وفي أخرى نراه ينادي بالاستقلال وفي غيرها يقول اننا ضعفاء ولا غنى لنا عن الاتكاء على دولة قوية وفي تصريحاته الأخيرة بباريس حيث ذهب لينذر الرأي العام الفرنسي ـ حسبما قال ـ قد ابتدأ بالمطالبة بالتحرير ثم عقب هذا المطلب تقديم برنامج ذي سبع نقط ثم شفع ذلك بطلب تحويل السيادة ويرى انه في الامكان أن يتم هذا التحويل بصورة تدريجية.

ان للرئيس الدستوري الجديد أن ينكث كما شاء وكيفما شاء العهد الذي أجمع عليه المؤتمر الوطني وأقره وصادق عليه هو وحزبه لكننا ننكر عليه بكل شدة كل صفة يدعيها لتمثيل عموم الشعب التونسي وخاصة الدستور في هذا الصدد.

وكيف يجوز لنا ان نسمح للسيد بورقيبة الذي يطالب بتحويل السيادة تدريجيا بأن يميل من التناقض لحد التنازل طوعا واختيارا عن جانب تلك السيادة عند تحدثه عن الانتخابات البلدية وذلك بقبول تمثيل المصالح الفرنسية في كل الجهات التي توجد فيها أقليات فرنسية.

فهل يجهل السيد رئيس الدستور الجديد انه لا يباح للأجانب في أي بلد من بلدان العالم ـ والفرنسيون هم بصفة قانونية أجانب في المملكة التونسية ـ ان يشاركوا في الهيئات المنتخبة وان هذه المشاركة هي طعنة نجلاء في كبد سيادتنا. وان معاهدة باردو المنعقدة في سنة 1881 وحتى اتفاقية المرسى التي تلتها في سنة 1883 لا تجيزان أبدا مثل تلك المشاركة وإذا كان الفرنسيون في الحالة الراهنة ممثلين في مجالسنا المنتخبة فان هذه الحالة المناقضة للمشروعية هي نتيجة القوة والقوة لا يبنى عليها الحق أصلا ولا تصلح أبدا ان تكون سندا له.

أفهل يريد السيد بورقيبة ان يخلع على هذه الحالة الواقعية ثوب المشروعية ويوصلنا لطور أسوأ مما قررته معاهدات الحماية ؟

لقد عرض رئيس الدستور الجديد أيضا (تأسيس مجلس ملي منتخب بالاقتراع العام تكون مهمته الأولى سن دستور ديمقراطي يقر العلائق الفرنسية التونسية المقبلة على أساس احترام المصالح الشرعية التي لفرنسا بتونس وكذلك على أساس احترام السيادة التونسية).

ومراعاة لجانب النزاهة نقول ان السيد بورقيبة يظهر منه انه يرى ان يكون هذا المجلس متركبا من تونسيين فحسب وان كان لم يوضح هذا بصريح العبارة. بيد انه وقد اعترف بمبدأ تمثيل الفرنسيين في المجالس البلدية المنتخبة هلا يخشى حينئذ أن يعارضه الفرنسيون الذين يريد الجدال معهم بالمبدأ الذي أقره بنفسه ويحاجوه بتنازله الخطير. وعندئذ يكون هذا المجلس شبيها بمجلس كبير ولن يزيد عليه الا اشتغاله بالسياسة. على ان هذا المجلس الوطني ولو كان مؤلفا من تونسيين خاصة فانما يكون مقيدا منذ البداية حيث قد فرض عليه احترام المصالح المشروعة الفرنسية مع احترام السيادة التونسية.

ولا شك ان السيد الحبيب بورقيبة يوافقنا على ان هذين (الاحترامين) مناقضان حتى لبعضهما بعضا وان كل شيء في هذه البلاد هو مصالح مشروعة فرنسية : **مصالح استراتيجية ومصالح اقتصادية ومصالح ثقافية وحقوق مكتسبة ومنح فاضحة** وأسلوب للتوظيف مجحف . . . بحيث ان الحماية هي التي تستمر على سيرها ويتأيد مفعولها في ظل هذا البرنامج الجديد.

وشتان بين سيرتها وهي تلاقي عن اعتداءاتها العديدة والمتكررة احتجاجات المدافعين عن هذا الشعب منذ ما يزيد عن النصف قرن وبين استقرارها على أساس متين وعليها طابع المشروعية الديمقراطي. يرى رئيس الدستور الجديد ان **روح التعاون الفرنسي هو بالنسبة إلينا ضرورة جغرافية وان بلادنا هي ضعيفة جدا عسكريا وقوية جدا استراتيجيا فلا غنى لها حينئذ عن الاستناد عن دولة كبيرة.**

ان هذا الكلام المزري الذي يحز في نفوسنا ايلاما هو نفس الكلام الذي تستعمله الدول الاستعمارية كلما حاولت تبرير استحواذها على بلدان أضعف منها قصد استغلالها واستنزاف دمائها فهل يريد السيد بورقيبة ان يستبقينا إلى الأبد تحت سيطرة دولة أجنبية كبيرة (كالعربة المجرورة - رورك -) ويفضل ان تكون فرنسا. وهلا كان أولى به ان يعتبر ان الشمال الافريقي الذي يضم اكثر من 25 مليون من السكان انما تتألف منه حين يهتدي للنظام الاتحادي دولة قادرة على حماية حوزتها والدفاع عنها بضراوة وبسالة. وهلا كان أولى به ان يتصور أيضا ان الانسانية التي آلمت نفوسها مساوىء الاستعمار واستنكرته وهذا الاستنكار هو بصدد النمو والانتشار منذ بضع سنين لدى الأمم المتحدة وصار منهاجا محترما قد يقرر في يوم قريب القضاء بصورة بأنه لا مرد لها على هذا الضرب الشنيع من ضروب استغلال الانسان للانسان ويعتبر الاستعمار بمثابة جريمة تقترف ضد بني الانسان.

واننا اذ نقول ذلك انما نقصد به الاشارة على صديقنا ورفيقنا القديم في الكفاح بأن يتذرع بالصبر ـ لأن حياة الشعوب هي أطول بكثير من حياة الأفراد ـ وان يعرف كيف يتحمل الأمور بدون أن يتزعزع مهما كانت التكاليف وان لا يفرط في أي شيء من متاع الوطن.

على اننا نود ان نتعاون مع فرنسا غير ان هذا التعاون ينبغي أن يقرر وينمو مع الأيام لا بين رجال لهم الأمر واخرين عليهم الطاعة والامتثال بل بين شعبين مستقلين يقران علاقتهما على قدم المساواة وفي كنف تبادل المصالح والصدق والاخوة البشرية.

وهل يسمح لنا صديقنا بورقيبة أن نعاتبه عتابا أخيرا من أجل ما طلبه من تحويل السيادة تدريجيا فقد كنا نشتهي انه لو استعمل عوض لفظ التحويل لفظ الارجاع عند تحدثه عن السيادة التونسية لأنه مما لا نزاع فيه قانونيا انه لا توجد ولا يمكن ان توجد في هذه البلاد الا سيادة واحدة لا شريك لها هي سيادتنا. وذلك ان فرنسا عندما نصبت حمايتها على المملكة التونسية على النحو الذي نعرفه كلنا . . . قد ضمنت لنا سيادتنا الداخلية. أما السيادة الخارجية فان المغفور له سمو الصادق باي قد كلف الدولة الحامية بتمثيله في بعضها وهي لا يمكن ان تكون أيضا شيئا آخر غير سيادتنا. وقد حصل ان استحوذ حامينا بصورة غير مشروعة على كامل تلك السيادة بعد سبعين سنة قضاها وهو ينتهك حرمات المعاهدات انتهاكا لا حد له.

فما بالنا نعرض عليه والحالة ما ذكر ان يرد علينا حقنا تدريجيا ؟ ولماذا هذا التنازل ؟ فهل ذلك يتطلب منا شكره على نكثه عهوده ؟ أم هل القصد من ذلك تليين جانبه عساه أن يعطف علينا ويميل إلينا ؟

لا نفهم شيئا من هذا اللهم الا ان تكون للسيد بورقيبة أسباب يشمئز منها العقل ولا يقبلها الفكر. وكم نكون ممنونين له لو يتفضل ببيانها لنا وتبديد المخاوف التي ساورتنا من أجلها لكن في الحالة الراهنة وتلقاء ما ظهر للسيد بورقيبة من التنازلات بدون مبرر لا يسعنا مع أسفنا الكبير الا أن نحتج بكل ما تسمح لنا به وطنيتنا الحارة على سياسة تساهله في الأمور الجوهرية لا يمكن ان يغيب عن أحد خطرها بالنسبة لمستقبل هذا الشعب.

ولذا فان اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري التي قام الدستور على سواعد رجالها وإليها يرجع الفضل في انشاء حركة المقاومة المنظمة في هذه البلاد.

ترى من واجبها في الوقت الذي نالت فيه الشعوب التي كانت بالأمس مستعمرة استقلالها (سوريا ـ لبنان ـ مصر ـ الفلبين ـ الهند ـ اندونيسيا ـ طرابلس الخ) ان تحذر الشعب التونسي بأسره سوء مغبة الأخذ بسياسة الاستجداء والتنازل التي يتمسك بها رئيس الدستور الجديد وهي اذ تقوم بهذا الواجب تعلن انها تفعل ذلك وهي آسفة ـ ولايزال لها أمل في أن ترى هذا الشعب الذي حطمه الاستعمار معتصما في النهاية بحبل الاتحاد المتين ومستشعرا روح الاخوة الحقيقية بين جميع أفراده إذ لا نجاة له الا في الامتثال ـ بدون انقطاع وبدون فتور وفي نطاق الكرامة والشرف ـ لمقررات مؤتمر ليلة السابع والعشرين من رمضان للوصول إلى هدفه الأسمى **الاستقلال التام**.

صالح فرحات
الأمين العام
للحزب الحر الدستوري التونسي

بيان من اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري إلى الشعب التونسي

ان اللجنة التنفيذية للحزب الدستوري التونسي بعد درسها للحالة الحاضرة على ضوء التطورات العامة، ترى من واجبها الحتمي في هذه الظروف الدقيقة التي تجتازها قضية الأمم المستضعفة ان تذكر الشعب التونسي بما قرره المؤتمر القومي العام المنعقد ليلة 27 رمضان الموافق الثالث والعشرين من أوت سنتي 1365 ـ 1946 من افلاس الحماية كنظام سياسي اقتصادي يناقض السياسة التونسية ومصالح الشعب الحيوية، واعلان عزم الأمة على السعي للحصول على استقلالها التام.

ومنذ ذلك اليوم التاريخي أصبحنا نشاهد ـ بكل أسف ان حالة الجالية الفرنسية التي ما انفكت في تحسن وازدهار نتيجة لاستغلالنا وذلك على الرغم من ان التطورات الحاصلة في الميدان الدولي تطبيقا للمواثيق التي أسفرت عنها الحروب والتي تكفلت بتحسين حالة الشعوب المستضعفة في جميع الميادين تلك المواثيق التي وقعت عليها فرنسا وضمنتها دستورها الأخير، وفي ذلك تناقض واضح بين ما التزمت به وبين سلوكها العملي المضر بحقوقنا ومصالحنا والمعطل لنهضتنا ولنيل استقلالنا. وفي الوقت

الذي نرى فيه فرنسا تتشبث بالنظام الاستعماري العتيق ذلك النظام غير الانساني الـذي فقـد الأسـاس الدولي حيث نبذته منظمة الأمم المتحدة نرى بعض الدول المستعمرة وقد بادرت تنفيذا لما قررته تلك المنظمة إلى تصفية تركتها الاستعمارية بطريقة سلمية هادئة نالت نجاحا باهرا ماديا ومعنويا وبعض الدول الاستعمارية الأخرى التي امتنعت من الاستجابة لما قررته هيئة الأمم المتحدة أرغمت على تمكين الشعوب التي كانت خاضعة لها من استقلالها بعد مفاوضات بينها وبين ممثلي تلك الشعوب بحق، تحت اشراف منظمة الأمم المتحدة.

ويجب أن ننبه الشعب التونسي هنا إلى ان الاستعمار الذي نظم مؤتمرات دولية، لا يمكن ان ينتهي الا بصفـة دولية ما لم تبـادر دولـة استعمارية ما إلى تصفية قضيتها الاستعمارية تصفية عادلة.

وان اللجنـة التنفيذية للحـزب قد شعرت من أول وهلة بهذا الاتجاه الجديد في السياسـة الدولية فبادرت في خلال الحرب الأخيرة إلى عقد مؤتمر دستوري في شهر سبتمبر سنة 1944 قرر السعي للحصول على الاستقلال الذي كان ولازال هدفنا الأسمى وأوكل إلى اللجنة التنفيذية اختيار الظرف المناسب للاعلان بهذا الأمر.

ولقد قامت اللجنة التنفيذية بهذه المهمة التي أوكلها المؤتمر وكانت كالحارس الأمين على هذا القرار الذي قرره، فعندما حاول المقيم العام الجنرال ماسط الرجوع بالأمة إلى سياسة الاصلاحات لتلهية الشعب التونسي ولفت نظره عن الهدف الذي ينبغي أن يتجـه إليه وارتـأى تشكيل لجنة لذلك الغرض حاول استدراج بعض التونسيين للمشاركة فيها، ورأت اللجنة التنفيذية للحزب جنوح بعضهم للاستجابة إليه فقامت في الحين وسعت بنجاح لحملهم على العدول عن ذلك.

ولـما انتهت الحـرب بذلت اللجنة التنفيذية مجهوداتها لاقناع الوطنيين التونسيين الذين يهمهم الأمر بتكوين جبهة وطنية تعقد مؤتمرا قوميا يضم نواب جميع الهيئات والمنظمات التي تمثل مختلف طبقات الشعب التونسي كله يصادق على ميثاق قومي يتضمن الاعلان بالمبدأ الذي قرره المؤتمر الدستوري سنة 1944 فكان مؤتمر 27 رمضان الذي اتخذت فيه الأمة التونسية اتحادا مخلصا تسامت فيه فوق جميع الاعتبارات وصادقت على ذلك الميثاق الذي وضعت اللجنة التنفيذية خطوطه الرئيسية والذي وضع حدا لكل خلاف أو تأويل من ناحية المبدأ الذي ينبغي أن يتوخاه كل من يتصدى للقيام بمهمة الكفاح السياسي في هذه البلاد. ولقد حرصت اللجنة التنفيذية على أن يستمر

ذلك التكتل والاتحاد اللذان ظهرت آثارهما الطيبة في ذلك الظرف التاريخي وان يكون أكثر ثباتا واستقرارا حتى يتيسر لنا ان نستمر على السير لتحقيق الهدف الذي تضمنه الميثاق القومي في جبهة متحدة متماسكة لا يجد فيها الخصم منفذا وتكون أقوى ضمان للفوز والنجاح بيد أننا أصبحنا نرى بكل أسف انحرافا عن الميثاق القومي الأخير إلى سياسة اصلاحية ترجع بنا إلى عهد 1922 . بل لقد بلغ الأمر في سبيل تحقيق بعض الغايات إلى التفريط في أمور خطيرة تتعلق بصميم السيادة التونسية ومصلحة الشعب التونسي وهو ما نعده افتئاتا على هذا الشعب ولا نقره أبدا.

واللجنة التنفيذية ترى انها ازاء هذه الأمور الخطيرة وفي مثل هذه الظروف الدقيقة لا مناص لها من ان تحذر الشعب التونسي من التطويح به في مهام غير واضحة المعالم وتوريطه في شراك يعسر عليه فيها بعد الخلاص منها وهي تعلن إليه : ـ

أولا : انها لاتزال متمسكة ـ قولا وعملا ـ بالميثاق القومي لليلة 27 رمضان.

ثانيا : انها لا تعترف لأي أجنبي بأي حق في بلادنا (فتونس للتونسيين) وليس للأجانب مهما كانت علاقتهم بنا الا المصالح المشروعة التي لا تتنافى مع مصلحة الشعب التونسي وسيادته.

واجتنابا لكل تأويل سيء فاننا نوضح أننا لانصدر في ذلك عن أي تطرف ملي ضيق النظر أو تعصب عنصري بل ان غرضنا وضع حد لهذا التدخل في أمور سيادتنا واستغلال مواردنا استغلالا جائرا انحط معه المستوى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي للشعب حتى يمكن لنا ان نعيش احرارا مستقلين في بلادنا كسائر الأمم الحرة. ونحن على استعداد طيب للتعاون مع سائر الأمم الحرة لمصلحة الجميع ولخير الانسانية العام.

ولذلك فهي تهيب بالشعب التونسي إلى التمسك بحقه الكامل في السيادة والاستقلال وعدم الرضى بالحلول العرجاء التي لا تنزع غل العبودية من عنقه بل تزيد في تمكين خصمه من مقاومته وتدعوه إلى التكتل والاتحاد المخلص في جبهة متينة متماسكة تسمو عن جميع الأغراض والنزعات الا مصلحة الوطن العليا مثلما فعل ذلك في مؤتمره التاريخي العظيم ليلة 27 رمضان وان في استجابته لدعوتنا المخلصة الوسيلة الوحيدة لتحقيق حريتنا واستقلالنا.

عن اللجنة التنفيذية للحزب الحر
الدستوري التونسي القديم
صالح فرحات
الأمين العام

بيان عبد الكريم الخطابي
حول الوضعية الحاضرة في تونس

ان الظروف الحرجة التي تجتازها قضايا المغرب العربي تجعل لزاما علينا أن نبين بجلاء وحزم موقفنا من الحالة الراهنة في تونس. وهي الحالة التي نجمت عن اشتراك الحزب الدستوري التونسي الجديد في الوزارة القائمة، وقبوله التفاوض مع الفرنسيين بقصد ادخال بعض التغييرات على وضعية البلاد السياسية من شأنها ـ كما فعل ـ « أن تؤدي بعد قطع عدة مراحل غير محدودة إلى الاستقلال الداخلي ».

ففي 17 أغسطس من السنة الماضية تألفت الوزارة الحالية في تونس من ستة من الوزراء التونسيين وستة آخرين من الفرنسيين، وشارك فيها الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد بوزير واحد، وكان مفهوما عند الجميع ـ حسب البيانات الرسمية ـ ان الـوزارة قامت على أسـاس الوضعية الاستعمارية المفروضة على البلاد، وهذا ما أدخل الريبة في نفوس جميع الوطنيين لا في تونس وحدها، بل في كافة أقطار المغرب العربي، اذ ان المبادئ التي تقوم عليها الأحزاب الاستقلالية المغربية، والمواثيق التي تربط بينهـا، وميثاق لجنة تحرير المغرب العربي التي تنضوي تحت لوائها، كلها تعتبر الأوضاع القائمة في أقطار المغرب أوضاعا استعمارية لا يجوز الاشتراك في الحكم على أساسها، بل يعد نقضا لمبدأ الاستقلال الذي تنادي به هذه الأحزاب، هذا علاوة على ما تعهدت به الأحزاب المشتركة في اللجنة من عدم الدخول مع الفرنسيين في مفاوضات تحقيق بعض الاصلاحات الجزئية نظرا لما بينته التجربة في الأقطار الثلاثة من ان كل اصـلاح لا يمكن ان يكون سليما الا إذا كان موجها من قبل الوطنيين أنفسهم، وفي ظل حريتهم واستقلالهم.

لهذا فان اشتراك الحزب الدستوري الجديد في الوزارة قوبل في كافة الأقطار المغربية باستياء عام، وعـد نكسـة إلى الوراء لا تتمشى مع ميثاق ليلة القدر الذي أمضته الأحـزاب التـونسية في 23 أغسطس سنة 1946 ولا مع ميثاق لجنة تحرير المغرب العربي، ولا مع الوعي القومي العام الذي أصبح يؤمن بأن الأوضاع المفروضة على بلاده أوضاع غير مشروعة وان التخلص من ربقتها لا يتأتى عن طريق الاشتراك في الحكم على أساسها، ولا بالمفاوضة في تغييرات جزئية لا تقوم على أساس الاعتراف بالاستقلال التام أولا وقبل كل شيء. ومع هذا الاستياء الذي أحدثه اشتراك الحزب في الوزارة الاستعمارية القائمة والبلبلة التي أدخلها على أفكار المواطنين جميعا، فانا لم

نرد ان نسارع إلى اعلان موقفنا منه، بل فضلنا التريث إلى ان تنجلي الحقائق بتمامها، ونعرف بصفة خاصة موقف ممثل الحزب في الوزارة من نتيجة المفاوضات المزعومة، بالرغم من ان تأليف الوزارة على أساس الوضع القائم، ومشاركة الفرنسيين فيها كان وحده كافيا للحكم بأن المفاوضات التي ستقوم بها سوف لا تؤدي إلى أية نتيجة ترضى عنها المطامح القومية.

وتتابعت الشهور بعد ذلك « والوزارة التفاوضية » ـ كما أطلق عليها ـ لا تتقدم خطوة واحدة في سبيل تحقيق الأماني الوطنية إلى ان حل فبراير الماضي فأعلن على الملأ ان الوزارة قد أمضت مع الفرنسيين اتفاقا يقضي بأن تكون الوزارة التونسية برئاسة وزير تونسي الا في حالة الطوارئ فيتولى رئاستها المقيم العام الفرنسي، على ان يكون تأليفها من ستة من الوزراء التونسيين، وستة من الوزراء الفرنسيين.

كما يشتمل الاتفاق على ادخال تغييرات اخرى في الادارة التونسية تتعلق بتحديد نسب الموظفين التونسيين والفرنسيين بها، وتوزيع اختصاصاتهم. هذا هو كل ما أسفرت عنه المفاوضات المزعومة بعد ثمانية أشهر من تأليف « الوزارة التفاوضية » فتبين بذلك للرأي العام أكثر من ذي قبل فشل التجربة التي انزلق إليها الحزب. وبات ينتظر من رجاله المسارعة إلى انهائها، والرجوع إلى الكفاح الصحيح لأجل تحقيق المبادئ الاستقلالية التي أقرتها لجنة تحرير المغرب العربي، وارتبطت بها كافة الأحزاب الاستقلالية. ولكن الحزب بدلا من ان يستجيب لرغبة الأمة أخذ ينوه بهذا الاتفاق، ويعتبره خطوة أولى تتبعها خطوات أخرى لتخليص « السيادة التونسية » في حين انه يعتبر لطمة للأماني الوطنية، لأنه يعترف للفرنسيين بحق « المشاركة » في حكم تونس، الأمر الذي يتنافى حتى مع معاهدة الحماية نفسها، فكيف يسوغ لحزب ينادي باستقلال البلاد ان يعترف للفرنسيين بهذا الحق، ويعتبره خطوة أولى لتخليص السيادة التونسية ؟

لقد كشف هذا الاتفاق عن النوايا الحقيقية التي يكنها الفرنسيون من وراء « سياسة المراحل » التي يطلبون من الوطنيين قبول الاشتراك في الحكم على أساسها. فهي لا ترمي إلى تحقيق استقلال البلاد، ولكن إلى تعويق هذا الاستقلال عن طريق تضليل الرأي العام بقبول الوطنيين المكافحين لكراسي الوزارة، ورضاهم عن « اصلاحات » مدخولة يقومون بها ويخفون خطرها على مستقبل البلاد.

ومع ذلك فان الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد لم يقم أي وزن لهذا الخطر وظل مشتركا في الوزارة القائمة، ومتشبثا بالاستمرار في « التجربة » التي أخفقت أكثر

مما كان في صفوف الأمة المغربية، كما عرض وحدة الشعب التونسي المكافح إلى التصدع وتشتيت الجهود وجل الهيئات الوطنية تنصرف إلى التنابذ، والتناحر فيما بينها في وقت هي أحوج ما تكون فيه إلى التكتل، وتوحيد الكلمة لمواجهة المعتدي الغاصب.

لهذا كله فاننا نعلن استنكارنا لمشاركة الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد في هذه التجربة، ونعتبر هذه المشاركة اخلالا بميثاق لجنة تحرير المغرب العربي، واعترافا بأوضاع لا تقرها، كما نعلن معارضتنا الشديدة لما أسفرت عنه هذه التجربة لمنافاته للأماني الوطنية ومساسه بجوهر السيادة التونسية التي يجب أن تكون من حق التونسيين وحدهم لا يشاركهم فيها غيرهم. وندعو الحزب إلى سحب ممثله فورا من الوزارة والرجوع إلى ميدان الكفاح الصحيح على أساس المبادئ الاستقلالية التي أقرتها اللجنة، وارتبطت بها الأحزاب في كافة أقطار المغرب العربي. كما اننا ننبه الحزب إلى ان استمراره في هذه التجربة سوف لا يقتصر خطره على تونس وحدها، بل سيلحق القطرين الشقيقين: الجزائر ومراكش أيضا، وانه الآن أمام مسؤولية كبرى هي مسؤولية المحافظة على كيان الحركة الاستقلالية في أقطار المغرب العربي كله، وعدم تعريضها إلى التصدع والانهيار بسبب تحويل اتجاهها، والاخلال بمواثيقها، وتعرض وحدة التضامن فيما بينها إلى التمزق والانحلال.

ويهمنا ان نؤكد ان لجنة تحرير المغرب العربي التي ينضوي تحت لوائها جميع الأحزاب الاستقلالية المغربية لا تتحمل أية مسؤولية في السياسة التي ينتهجها هذا الحزب مادامت تخالف مبادئ ميثاقها، كما نتبرأ من أي عمل يصدر عنه مادام لا يرجع إليها لمعرفة رأيها مقدما حسبما ينص عليه ميثاقها.

القاهرة 8 شوال سنة 1370 هـ
الموافق 12 يوليه سنة 1951 م

« التوقيع »
عبد الكريم الخطابي
رئيس
لجنة تحرير المغرب العربي

بيان من الأستاذ يوسف الرويسي

في الوقت الذي ينهار فيه صرح الاستعمار في آسيا وتتزلزل الأرض بمعاقله الافريقية وتتحفز بقية الشعوب المغلوبة على أمرها لاغتنام الفرص التي تخلقها الظروف فتحطم قيود الاستعمار وتفك سلاسل العبودية.

وفي الوقت الذي يصبح فيه شمالي افريقيا خطا أساسيا لحرب مقبلة ومركزا استراتيجيا مرموقا من المعسكرين المتقابلين مما يتيح لأهله فرصا مواتية تمكنهم من افتكاك حريتهم واستقلالهم وظرفا مناسبا يساعدهم على خلق قوة تلعب دورا أصيلا في سياسة الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط وفي الوقت الذي استطاع الوطنيون ان يحطموا الستار الحديدي المضروب حول المغرب ويرفعوا صوت بلادهم المكبوت عاليا في أنحاء العالم ويكونوا لقضيتهم أنصارا في كل مكان.

وفي الوقت الذي غدا فيه الصراع القائم بين سلطات الاستعمار والحركات الاستقلالية في تونس ومراكش محل اهتمام دول العالم ومثار عطف الشعوب المناضلة في سبيل الحرية. وفي الوقت الذي تزحف فيه الحرية على الحدود الشرقية التونسية ويستعد الشعب الليبي الشقيق لممارسة استقلاله في عام 1952.

وفي الوقت الذي كانت فيه الجامعة العربية تعد عدتها لعرض قضية تونس وبقية قضايا المغرب العربي على هيئة الأمم المتحدة.

وفي الوقت الذي كان مقدرا أن يكون لتونس دور رئيسي في النضال القومي لتحرير بلاد المغرب لموقعها الجغرافي من هذه البلاد والوعي المنتشر بين أهلها مما يدفع بالقائمين على حركتها الوطنية على زيادة رص الصفوف في الداخل واحكام خطط التنظيم والعمل الموحد للحركات الاستقلالية في المغرب العربي ومواصلة النضال بجانب الاستعداد للطوارئ وأخذ الاهبة للتطورات.

في هذا الوقت الذي تهيأت فيه الفرص وتكتل فيه الشعب بجميع طبقاته حول الحركة الوطنية وتكامل فيه استعداده للمقاومة الجدية كنتيجة لتجارب سبعين عاما في النضال واستعد للوثبة الحاسمة التي تطوح بالاستعمار وتريح البلاد من مساوىء الاحتلال والحكم الأجنبي فوجئ العالم العربي بمشاركة بعض زعماء حزب الدستور في وزارة مختلطة من التونسيين والفرنسيين على الأسس التي حددها المقيم العام الفرنسي في خطبه وبلاغاته وهي : (تتلخص في تشكيل وزارة مختلطة تقوم بمهمة

المفاوضات واجراء اصلاحات تنتهي بالبلاد على مراحل متتالية إلى الاستقلال الذاتي الداخلي وتشريك التونسيين بصورة تدريجية في شؤون بلادهم بشرط المحافظة على الحقوق المكتسبة للفرنسيين وضرورة التعاون الفرنسي التونسي القائم على الوضع الجغرافي والمصالح المشتركة واعتبار البحر الأبيض لا يقيم حاجزا بل يوحد بين فرنسا وتونس. وأكد المقيم العام عدم امكانية تصور مستقبل تونس بدون اعانة فرنسا وحضورها الدائم وحذر التونسيين من التطلع لما وراء ذلك ومن التمسك ـ بما سماه ـ القوميات الضيقة أو البائدة.

ان هذه الظاهرة الغريبة التي تبدو في شكل تحول خطير في الاتجاه القومي في تونس قد أعطت الرأي العام الخارجي صورة غير صحيحة عن مدى انتشار الوعي في تونس وعن صدق نضال حركتها الوطنية وأثارت استياء عميقا في جميع الأوساط الوطنية العربية في المشرق والمغرب على السواء فلم تتمالك هذه الأوساط عن ابداء حيرتها في تفسير الحافز الذي دفع ببعض قادة الدستور الجديد إلى التراجع عن خطة النضال المغربي الموحد التي سار عليها الحزب في الماضي إلى الانكماش في حدود القطرية الضيقة والانحراف عن الأسلوب النضالي الصحيح إلى الأخذ بالأساليب الضعيفة الفاشلة والتنكر للمبادئ الاستقلالية والمواثيق القومية إلى التورط في المفاوضات على أساس الحماية وقبولها كأمر واقع والمشاركة في الحكم الاستعماري مع السلطات الأجنبية والدخول في وزارة محدودة الصلاحيات تخضع قراراتها لتأثير الكاتب العام الفرنسي ويرأس مجلسها المقيم العام.

والحق ان المتتبع لسير الحوادث الجارية في تونس يرى انه لا الحزب الدستوري كحركة مقاومة ولا الشعب التونسي المناضل يمكن ان تحمل عليهما تبعة التطورات الأخيرة في الاتجاه الجديد فالشيء بأغلبيته الساحقة وفي طليعتها شبابه الواعي يستنكر الاتجاه الجديد ولا يقره ويصر في تصميم وعزة على مواصلة النضال على الأسس التي قررها ممثلوه في المؤتمرات الوطنية وهي أولا المؤتمر الوطني المنعقد في تونس في 23 أغسطس سنة 1946 وثانيا مؤتمر المغرب العربي المنعقد في القاهرة في 2 فبراير سنة 1947 وثالثا ميثاق لجنة تحرير المغرب العربي. وجميع هذه المواثيق تنص على الغاء نظام الحماية المفروض بالقوة على البلاد واعلان الاستقلال التام والجلاء والانضمام إلى الجامعة العربية وتمنع بصفة باتة الدخول في مفاوضات مع سلطات الاستعمار على غير أساس الاستقلال. والحزب الدستوري الجديد كان طرفا في هذه المؤتمرات الوطنية تبنى مقرراتها واعتبرها ميثاقا له يسير بهديه ومبادئ أصوله لا تقبل التأويل ولا يجوز الانحراف عنها بحال.

ولكن الـذين يتحملون تبعـة التطورات الأخيرة بعض أعضاء الديوان السياسي للحزب ممن استبد بهم الغرور وتوهموا ان ما يتمتع به بعضهم من شعبية يخولهم حق التصرف في مقدرات الشعب بما توحي به انفعالاتهم الآنية وأهواؤهم الشخصية دون التقيد بالمبادئ والمواثيق والأوضاع الحزبية دون حاجة إلى الرجوع إلى المؤتمرات التي ربـطتهم بأهـداف وقيدتهم بمـواثيق فلم يتحـرجوا أولا من الدخول في مفاوضات انفرادية مع سلطات الاستعمار والتقدم إليها بمطالب رسمت بطابع الضعف والتراجع والاستخـذاء وأضـافت إلى البـلاد قيودا جديدة تربـطهـا بصـورة دائمـة بعجلة الامبراطورية الفرنسية ولم يستنكفوا ثانيا من المشاركة باسم الحركة الوطنية الاستقلالية في الوزارة المختلطة تحت الشروط التي وضعها المقيم العام وبذلك قلبوا الحزب عمليا من حركة مقاومة استقلالية إلى حزب تعاوني مع سلطات الاستعمار محاولين تسخير الحـزب والمنـظمات الشعبية لتـأييد الـوضع الحاضر وخدمة مصالح الوزارة الجديدة وانطلقت دعايتهم تضل الشعب وتوهمه بأن (دخولهم في الوزارة الحاضرة هو السبيل الوحيد للمحافظة على السيادة التونسية وان قبول فرنسا للدخول معهم في المفاوضة ـ على أساس الحماية ـ كسب لتونس في معركة الحرية . . وان مشاركة الحزب في الحكومة المختلطة درب من دروب الكفاح القومي ولون من ألوان البراعة السياسية المستوحاة من عبقرية فذة لا يتمتع بها غيرهم من قادة الشعب المناضلة وانهم بهذه العملية قد خطوا خطوة أولى في استرجاع السيادة التونسية ونقلوا الكفاح إلى داخل الحكم ليهيؤوا للشعب استقلاله من أقرب طريق وليوفروا عليه النضال وتقديم الاضاحي وبذل الدماء .

وهكذا تتبدل الحقائق وتتغير المفاهيم وتنعكس قيم الأشياء فيصبح التنكر للمبادئ الوطنية براعة في السياسة والتعاون مع المستعمر لونا من ألوان الكفاح القومي وهو منطق غريب لا يستساغ في صدوره من المستعمرين ولا يصح أن تخاطب به حتى الشعـوب البـدائية . ان عملية الاشتراك باسم الحزب في الوزارة المختلطة التي يلذ لبعضهم ان يسميها (حكـومـة المفتي) كان نتيجـة لخطة استعـمارية دبـرت بليل وأحكمت أطرافها بمهارة لخدمة مصالح الاستعمار وتوطيد أقدامه في تونس وللقضاء على الحركة الوطنية ولو لمدة من الزمن توفّقت فيها السياسة الفرنسية ـ على عادتها ـ إلى أبعـد حدود التـوفيق وتـورط فيهـا الديوان السياسي بتأثير بعض المخدوعين وذوي الـوصولية فهي ليست خطوة للتدرج في استرجاع السيادة كما تقول الدعاية المضللة الخادعة بل هو مرحلة حاسمة في دعم الحماية واكسابها صفة المشروعية وخطوة جريئة في تقرير نظام السيادة المزيف والذوبان في الوحدة الفرنسية . خطة بارعة خدمت فرنسا

أجـل الخـدمات في وقت تنحدر فيه جيوشها وتتحطم قواتها العسكرية أمام صلابة الفيتناميين بالهند الصينية وتخشى اندلاع ثورة لاهبة في شمال افريقيا فخففت عنها حد الضغط وأمنت لها جانب الخـطر الـذي كانت تخشاه وفتحت أمامها آفاقـا جديدة تستنيرها ضد الأمم القومية للأقطار الافريقية المنكوبة باستعمارها ومكنتها من سلاح أصابت به حركة النضال الموحد للمغرب العربي فغدت تتحداها متفرقة بعدما كانت فرائص الاستعمار ترتعد فرقا من مواجهة خمسة وعشرين مليون من العرب المغاربة الاشداء. خطة بارعة طعنت الكرامة الوطنية والوجدان القومي في الصميم ونزلت بالمثـل العليا والأهداف إلى ميدان المساومة سيكون من نتائجها زعزعة ثقة الشعب بنفسه وبقدرته على الكفاح واخماد شعلة النضال فيه وتوجيهه وجهة خاطئة تحمله على الرضا والتسليم وتروضه على الاستكانة والرضوخ لمآرب المستعمرين وهي إلى جانب ذلك تفوت على تونس فرصا مواتية في هذا الظرف الدولي المناسب وتجعل من العسير عليها الحصول على سند خارجي بعد الاتفاق بين حركاتها المقاومة والسلطات الاستعمارية.

وإزاء هذه التصرفات الطائشة المناقضة لابسط المبادئ القومية والبعيدة عن الادراك السياسي بعد خيبة المساعي والجهود التي بذلت طيلة ثلاثة أعوام لتلافي وقوع الحركة الـوطنية في كارثـة واستجابة لما يحتمه علي الواجب كمسؤول في قيادة الحزب اعلن معارضتي الشديدة لما قام به بعض الزملاء وجاء ذكره في هذا البيان منددا بكل محاولة ترمي إلى ربط تونس بوحدة خارجة عن محيط وحدتها الطبيعية وهي وحدة الأمة العربية ومستنكرا باشمئزاز هذا النوع من العبقرية السياسية التي ابتدعت فكرة تجزئة السيادة وجعلت من حقوق الوطن موضوع مساومات ورضيت بخلق وضع جديد في البلاد يقوم على أساس الأمر الواقع وتوطيد الاستعمار واعتبار ما اغتصبه الفرنسيون بالقوة القاهرة من قبيل المصالح المشروعة والحقوق المكتسبة ما أكد بأن لتونس حقها الطبيعي في السيادة المطلقة على أرض الوطن كحقها في الاستقلال والحرية والتفرد بالحكم والنفوذ.

ان التصرفات الأخيرة التي قام بها بعض اعضاء الديوان السياسي قد كشفت عن نقطة تحول خطير في الاتجاه القومي في تونس تجلت بشكل واضح في مشاركتهم في الوزارة المختلطة وظهرت بوادرها في توجيه النضال وجهة خاطئة وحصره في الجزئيات بصورة أظهرت القضية الوطنية بمظهر نزاع محلي بين الشعب العربي في تونس والجالية الفـرنسية وأعطت لفرنسا صفة المرجع الأعلى والحكم في فصل النزاع بينهما الواجب

يقضي بترك النضال يتجه اتجاهه الطبيعي ضد النظام الاستعماري الذي تقوم على أساسه الامتيازات وضد سلطة الاحتلال التي تدعم امتيازات الفرنسيين بسلطانها السياسي وتحميها بقواتها العسكرية.

وان وجود فرنسا في تونس كان نتيجة لعدوان مسلح وحماية فرضت على البلاد فرضا وقامت على أسنة الحراب وقد قاومها الشعب التونسي بثوراته ونضاله وبذله للأموال والأرواح والدماء الزكية طيلة سبعين عاما فهو وجود عدواني لا يكسب المعتدي أي حق في البلاد المعتدى عليها ولا يلبث أن يزول بزوال الاستعمار الذي هو الآن في طريق الانهيار.

ان التطورات الأخيرة قد أثبتت بصورة لا سبيل معها إلى الشك ان نقطة الضعف في النضال التونسي تمكنت في صميم القيادة وان ما أصاب القضية التونسية من الجمود والتراجع والانكماش بالرغم عن تزايد الاستعداد الشعبي وتوافر الامكانيات يرجع في حقيقته إلى فقدان القادة الاكفاء على رأس الحركة الوطنية القادرين على الاستفادة من هذه القوة الشعبية النامية وتوجيهها وجهة صحيحة لتحقق الأهداف الوطنية.

لذلك أدعو الوطنيين إلى المبادرة بحل هذه المشكلة الأساسية واتخاذ الاجراءات اللازمة لتجديد قيادة الحركة الوطنية وابعاد المسؤولين عن التطورات الأخيرة وتنظيم الحزب على أسس جديدة والتشبث بالمبادئ والمواثيق القومية وجعلها أساسا للنضال ومعيارا لصدق الوطنية ومقياسا لصحة الأمة.

يوسف الرويسي
عضو المكتب السياسي للحزب
الدستوري الجديد
ورئيس مكتب لجنة تحرير المغرب العربي
في دمشق

فشل المفاوضات ـ وبداية حرب العصابات الشعبية :

بعد سنة كاملة من التفاوض مع الفرنسيين فشلت تجربة الحزب الدستوري الجديد التفاوضية بالرفض الاستعماري لأي تغيير في السياسة الاستعمارية بالمغرب وقد كان الجنرال جوان المقيم العام الفرنسي بالمغرب الأقصى قد ضغط على سلطان المغرب محمد بن يوسف وحاصر قصره بالدبابات وهددوه بالخلع. وقد استنكرت الحركة الوطنية هذا الموقف ودعت إلى مساندة محمد الخامس في صراعه ضد سلطة الحماية

بالمغرب. وهب طلبة جامع الزيتونة في جميع أنحاء القطر التونسي احتجاجا على تصرفات الجنرال جوان والسلطات الاستعمارية بالمغرب. وتنكر الاستعماريون لحكومة شنيق التفاوضية، وأرادوا اعتقال صالح بن يوسف وزير العدل والأمين العام للحزب الجديد ومحمد بدره وزير الشؤون الاجتماعية فما كان من هؤلاء الا ان فروا إلى القاهرة وقدموا شكوى باسم الحكومة التونسية إلى مجلس الأمن وزج بالبلاد في حالة من القمع والارهاب على اثر اعتقال حكومة شنيق.

وكانت السلطات الفرنسية قد اعتقلت في يوم 18 يناير سنة 1952 المنجي سليم والحبيب بورقيبة والهادي شاكر واستمرت الاعتقالات في صفوف الحركة الوطنية عموما سواء كانت من بين الحزب أو غيره من التنظيمات الأخرى تمشيا مع سياسة الغدر الذي بيتته السلطات الاستعمارية الفرنسية. ووضع المقيم العام دي هيتكلوك البلاد تحت الحكم العرفي وخول سلطات استثنائية للجنرال فرباي.

وكان لتمكن صالح بن يوسف ومحمد بدره من الافلات من قبضة المستعمرين والالتحاق بالقاهرة وقع كبير في نفوس المواطنين التونسيين حيث أذكى هذا الحادث روح الحماس لديهم وساعد على الرفع من معنوياتهم، وتوالت الاعتقالات في جميع أرجاء البلاد وشملت كل المناضلين التونسيين سواء أكانوا أعضاء في الحزب الجديد أو الحزب القديم أوالحزب الشيوعي التونسي أو غيرها من الأحزاب. وكانت السلطات الفرنسية تعتقل كل من يشتبه في انتمائه للحركات الوطنية حتى امتلأت السجون والمحتشدات الصحراوية. وامعانا في تشديد اجراءات القمع لمنع الحركة الوطنية من القيام بأي رد فعل سريع اتخذ الجنرال غرباي عدة اجراءات صارمة مثل منع التجول ليلا بكافة انحاء البلاد وفرض رقابة على الصحافة التونسية. ولكن الاضرابات استمرت في كافة أنحاء البلاد مما دفع بالحكومة الفرنسية إلى تعزيز قواتها المسلحة الموجودة بتونس.

وقد أصدرت وزارة الحربية الفرنسية بلاغا في أواخر يناير سنة 1952 جاء فيه: « ان وزارة الحربية تعلن ان ارسال الجنود إلى القطر التونسي لم ينقطع كما يتبادر إلى الذهن من نبأ نشرته بعض الصحف وقد أبحرت جميع النجدات المقررة وأعدت أخرى لكي تلحق بها إذا مست الحاجة إليها » ويبدو ان في هذا تطمينا للدوائر الاستعمارية بتونس التي كانت مصممة على سحق الحركة الوطنية التونسية واخضاع الشعب التونسي اخضاعا تاما. وقد فات على هؤلاء ان الشعب العربي في تونس أصبح مستعدا للدخول في معركة حاسمة مع قوات الاحتلال وانه عقد العزم على نيل حريته واستقلاله مهما كلفه ذلك من ثمن.

وأخيرا حصل الصدام الدموي العنيف بين الجماهير الشعبية الرافعة لشعارات الحرية والمنادية باطلاق سراح المعتقلين السياسيين والقوات الفرنسية الضخمة . وسقط عشرات القتلى والجرحى من الوطنيين وقد شملت الاصطدامات بين المواطنين والقوات الفرنسية جميع أنحاء البلاد وخاصة تونس وبنزرت والحمامات والقيروان وسوسة وصفاقس . وكانت أحداث مدينة تونس على الخصوص عنيفة ومتكررة حيث وقعت الاصطدامات اثر الاصطدامات واشترك فيها العمال والطلبة والنساء . ولعب طلبة جامع الزيتونة دورا هاما حيث كان جامع الزيتونة مقرا لتجمعات شعبية كبيرة ومنطلقا لتظاهرات كبرى كانت تنتهي بالصدام الدموي مع القوات الاستعمارية .

وقد أدرك الوطنيون على كافة انتماءاتهم الحزبية ان أسلوب الصدام مع القوات الفرنسية عن طريق التظاهرات الشعبية لا يمكن أن يؤدي إلى ارغام قوات غازية سفاكة للدماء على التراجع عن سياستها والاستجابة لمطالب أبناء البلاد، فلجؤوا إلى طريقة جديدة في النضال تتمثل في مهاجمة قوات الاحتلال في جماعات صغيرة منظمة . وقد جرب هذا الأسلوب بنجاح في بنزرت حيث هاجمت جماعة وطنية مسلحة دورية من الحرس العسكري الفرنسي وقتلوا أحد أفرادها وأجبروا الباقين على الفرار.

(قاد الحركة حشاد والنقابات العمالية من يناير سنة 1952 إلى ديسمبر سنة 1952) واجتاحت الاضرابات والتظاهرات الشعبية الجنوب التونسي كله . وسار المواطنون بالآلاف في كل من صفاقس وقابس وقفصه ونفطة وتوزر ومدنين وجرجيس في تظاهرات شعبية صاخبة .

ولجأ الوطنيون التونسيون إلى أسلوب حرب العصابات فقطعوا أسلاك الهاتف في الدخلة والكاف والقيروان وصفاقس وقابس وقفصه كما حطموا السكك الحديدية والجسور والطرق خاصة طرق المواصلات الرابطة بين تونس والجزائر لمنع وصول النجدات من الجزائر. ونصبوا الكمائن لدوريات الحرس والجيش، وكان رد السلطات الاستعمارية عنيفا فقد قامت بعمليات تدمير وابادة واغتصاب باقي مناطق عديدة من البلاد وخاصة في الدخله حيث قتلت المواطنين ودمرت المنازل واغتصبت عددا من النساء .

وتصاعدت العمليات الفدائية في أنحاء عديدة من البلاد في المدن والقرى واشترك الوطنيون والشعب في تكوين وحدات مسلحة في الجبال كانت النواة للمقاومة الوطنية المسلحة ضد القوى الاستعمارية .

الفصـل الخامس

المقاومة الشعبية المسلحة

تنظيم وحدات المجاهدين المسلحة ونشاطها

كان الوطنيون التونسيون قد عقدوا العزم على التصدي للقمع الاستعماري المتزايد ولم يكن هناك بد من اللجوء الى أسلوب الكفاح المسلح ، إذا ما ركبت فرنسا رأسها وشرعت في تصفية الوطنيين واخضاع الشعب بقوة الحديد والنار.

ولم يكن خافيا على أحد ان القوى الوطنية التي كانت تستمد قوتها من مساندة شعب أعزل لا يملك من السلاح غير سلاح الايمان بحقه في الحرية ، غير قادرة على محاربة دولة غازية لها جيش عصري منظم يملك من وسائل الابادة ما يمكنه من القضاء على شعوب بكاملها ولكنها كانت تدرك أنه في صورة ما إذا تكونت وحدات مسلحة منظمة توجه ضرباتها للقوات الاستعمارية في الوقت والمكان المناسبين، ثم تنسحب تاركة العدو مدهوشا ومبهوتا فانها سوف تخلق جوا من الرعب في صفوفه وتنغص عليه حياته وتجبره في النهاية على الاستجابة لمطالب الوطنيين والعدول عن أسلوب القمع الجماعي .

وانطلاقا من هذا الأساس شرع فريق من الوطنيين بعضهم يناضل في صفوف الاتحاد العام التونسي للشغل وبعضهم في صفوف الحزب الدستوري التونسي في تكوين نواة سرية للحركة المسلحة فجمعوا السلاح وهيأوا الرجال المدربين على حمل السلاح وكان من هؤلاء من حارب في صفوف جيش المجاهدين في فلسطين ومن بين الذين كانوا أول من بادر الى حمل السلاح والالتحاق بالجبال وتكوين جيش التحرير التونسي الطاهر الأسود وبلقاسم البازمي ، وسعد بعر، وعلي بو الشنب المرزوقي ، وأحمد الأزرق ومصباح الجربوع ، والساسي البويحي وعمار بني .

وقد بلغ عدد هؤلاء المقاتلين في سنة 1954 حوالي « 3000 » ثلاثة آلاف مقاتل كان الجنوب التونسي مركز قيادتهم ومسرح نشاطهم وكانت هذه أول حرب عصابات منظمة في تاريخ حركات التحرير الوطني في المغرب العربي وكان السلاح الذي استعمله هؤلاء الفدائيّون في قتالهم من مخلفات الحرب العالمية الثانية حيث دأب الوطنيون على جمعه وكان في مجموعه سلاحا متوسطا رديئا يتكون من بنادق المانية وايطالية وفرنسية وقد استطاعوا فيما بعد الاستيلاء على بعض السلاح الجيد من القوات الفرنسية مثل الرشاشات والمدافع الرشاشة.

وبالرغم من قلة عددهم وضعف تسليحهم فقد كانوا يقارعون جيشا فرنسيا مدججا بالسلاح بلغ عدده في أواخر سنة 1954 ما لا يقل عن (مائة وعشرين ألفا) بما في ذلك فرق من اللفيف الأجنبي وسلاح الجو الفرنسي الذي استعمل لقتالهم المطاردات سريعة الحركة من آخر طراز وقد شمل نشاطهم نصب الكمائن ومهاجمة المستعمر وقتل المستعمرين والخونة التونسيين وحرق المزارع وتدمير المنشآت العسكرية والثكنات والسكك الحديدية والجسور والطرق.

لجنة الأربعين :

وعلى اثر اشتداد المقاومة في المدن والقرى والجبال وعند اقتراب موعد انعقاد الجمعية العامة للامم المتحدة في شهر ديسمبر سنة 1952 تقدمت الحكومة الفرنسية بمشروع إصلاحات سريعة عرضتها على الباي لتنال موافقته عليها وقد قصدت السلطات الفرنسية من وراء عرض هذه الاصلاحات إلى اخماد حركة المقاومة المسلحة وقطع الطريق في وجه الشكوى التي عرضتها الحركة الوطنية بمساعدة الجامعة العربية والدول الاسيوية على الجمعية العامة للأمم المتحدة. فما كان من الباي إلا أن عرض هذا المشروع على لجنة تتألف من أربعين وطنيا تونسيا للنظر فيها تعرف بلجنة الأربعين ترأسها الشهيد المناضل فرحات حشاد. وقد قرر أعضاء اللجنة رفض المشروع بالاجماع وأصدروا اللائحة ذكروا فيها أسباب الرفض جاء فيها ان :

1 ـ الحزب الحر الدستوري التونسي (الجديد).
2 ـ الحزب الحر الدستوري التونسي (القديم).
3 ـ الاتحاد العام التونسي للشغل.
4 ـ الاتحاد العام التونسي للفلاحة.
5 ـ الاتحاد العام التونسي للصناعة والتجارة.
6 ـ الغرف الاقتصادية الزراعية والتجارية.

7 ـ اتحاد المحامين.

8 ـ اتحاد الأطباء.

9 ـ اتحاد الصيادلة.

10 ـ اتحاد المهندسين.

11 ـ جميع المنظمات الرياضية والثقافية.

ان الموقعين أدناه ممثلي المنظمات القومية التونسية السياسية والنقابية والمهنية والصناعية والغرف الاقتصادية والمهن الحرة بعد أن اطلعوا على البيانات التي أفضى بها أمام الجمعية الوطنية وزير الخارجية الفرنسية حول مشروع الاصلاحات الذي تنوي فرنسا تطبيقه في تونس.

يرون أن هذا المشروع لا يعدو أن يكون مماثلا من جميع النواحي للمشروع الذي صدر بصدده بلاغ الاقامة العامة بتاريخ 12 أفريل الماضي والذي قد سبق ان اعتبر غير مقبول من قبل عموم الرأي التونسي وانه :

1 ـ يقر أسلوب السيادة المزدوجة إذ انه يقتضي باشراك الفرنسيين بصورة اجبارية في جميع المؤسسات السياسية في البلاد ويشركهم في ممارسة السيادة ممارسة فعلية.

2 ـ يعلن من جهة مبدأ الاستقلال الداخلي ويخالفه من جهة أخرى في الميادين الثلاثة الآتية : السلطة التنفيذية ـ السلطة التشريعية والادارة العمومية وذلك :

« أ » بالابقاء على المناصفة في داخل الحكومة التونسية حيث لا يزال الفرنسيون يحتلون ستة مناصب من بينها المناصب الرئيسية التالية :

السكرتارية العامة، والمالية والاشغال العامة والمعارف. ويضاف الى ذلك الأمن العام التابع الى الاقامة العامة مباشرة.

« ب » بالابقاء على تأشيرة التقييم العام على المراسيم الملكية وحق طلب وقف التنفيذ الممنوح للمقيم العام ضد أعمال الوزراء والاصلاح الوهمي للمجالس البلدية التي تبقى معينة تعيينا، وذات اختصاصات استشارية بحتة.

« ج » بالابقاء على جميع الاستثناءات والتطبيقات لمبدأ وظيفة عمومية تونسية « قائمة المناصب المخصصة للفرنسيين ـ هيئات التحكيم المشتركة الخاصة ـ المناظرات ـ جعل الامتحان باللغة الفرنسية في الوظائف العليا والرئيسية ـ استمرار تعيين موظفين فرنسيين بطريقة الاحالة » .. الخ.

(د) باحداث محكمة إدارية مختلطة ذات رئيس فرنسي تكون آلة في يد المقيم العام ليشدد استحواذه على ادارة البلاد.

3 ـ لا يحقق أي تقدم بالنسبة للوضع الحاضر في ميدان التطور الديمقراطي للمؤسسات التونسية . إذ أنه فيما يتعلق بالمجلسين المقترح احداثهما ان احدهما لا يعدو أن يكون صورة أخرى للمجلس الكبير لا مبدأ الانتخاب ولا سلطة التقرير.

4 ـ يقدم كانشاءات جديدة بعض المؤسسات الموجودة بالفعل في الوقت الحاضر، مناصب مساعدين تونسيين لمديري الادارات الفرنسيين (مثل ادارة المعارف والاقتصاد، والصحة، وقد وجدت منذ سنة 1946) ومجالس الأعمال (المقاطعات) المنتخبة المؤسسة سنة 1921 والتي وقع العدول عنها فيما بعد.

5 ـ يقدم من جديد المشروع الموضوع تحت الدراسة من سنة 1944 والخاص بالمجالس البلدية المنتخبة مع مبدأ التمثيل الثنائي في المدن الكبرى هذا وبما ان مثل هذا المشروع يعتبرون الحد الأدنى الذي يطالب به التونسيون لتسيير شؤونهم بكثير، وبما أن حسن الاستعداد والاعتدال الذي أبداه التونسيون طيلة فترة المفاوضات التي بدأت في شهر أغسطس سنة 1950 لم تقع مقابلتها بالمثل وبما ان الحكومة الفرنسية بعكس ذلك قابلت ذلك الموقف بمذكرة 15 ديسمبر وبسياسة البطش التي بدأت في شهر يناير سنة 1952 .

فانهم يعتبرون مشروع الاصلاحات الوهمية المعروضة من قبل الحكومة الفرنسية اذا وقع تنفيذه في الظروف الحالية سيعتبر بناء على هذه الملابسات من الناحيتين القانونية والواقعية مفروضا فرضا على الملك وعلى الشعب التونسي ولن يأتي بأي حل صحيح لأزمة العلاقات الفرنسية التونسية ويضعون ثقتهم في جلالة الملك لتحقيق أماني الشعب التي تنعقد مع الرغبة السامية المعلنة في مناسبات عديدة وخاصة في خطاب العرش في 15 ماي سنة 1951 ومع مصالح البلاد وسيادتها ضد كل التهديدات التي تتعرض لها.

ويناشدون الضمير العالمي لايجاد حل للنزاع الفرنسي التونسي على أساس العدالة والقانون الدولي المثلين في ميثاق الأمم المتحدة.

وبدأ الارهاب الاستعماري والمقاومة الشعبية المسلحة :

وبعدما تم رفض هذه الاصلاحات من طرف كافة المنظمات الشعبية والنقابات

والاحزاب السياسية الوطنية. فرض الجنرال « غرباي » الذي عرف بشراسته وقمعه لحركات التحرير الوطني في البلدان التي ترزح تحت الاستعمار الفرنسي جوا ارهابيا فهو الذي قاد مجزرة سطيف بالقطر الجزائري الشقيق الذي سقط فيها حوالي 45 ألف شهيد وقام باخماد الحركة الوطنية بمدغشقر التي قتل فيها ما يربو على المائة ألف قتيل. وبدأت عصي قمعه وارهابه الفاشي الاستعماري الذي سلطه على الشعب في تونس الذي يكافح من أجل الخلاص من النير الاستعماري وبدأ جو الارهاب يبرز في الأفق وتوالت الاعتقالات وفتحت السجون والمحتشدات أبوابها وأسس الحزب الاستعماري الفرنسي الذي يسمى « بحزب التجمع الفرنسي » على مرأى ومسمع من السلطات الاستعمارية وبمشاركة رجال الشرطة الفرنسيين عصابة أطلقوا عليها اسم « اليد الحمراء » التي بدأت في نشر جو من الارهاب والرعب بحيث بدأت بلغم بيوت الوطنيين الذين شكلت منهم لجنة الاربعين التي رفضت الاصلاحات المزعومة ونشرت جوا من الارهاب والرعب بحيث أصبح كل وطني عرضة للاغتيال ونسف بيته أو مقر عمله فما كان من الحركة الوطنية إلا أن جابهت هذه الأخطار فتم تشكيل مكتب سياسي سري برئاسة المرحوم فرحات حشاد وأحمد المستيري والطيب المهيري وآخرين وقد قاد فرحات حشاد العمل الوطني مع القيادات الاحتياطية لحزب الدستور الجديد وردت القوى الوطنية على الارهاب بمقاومة وطنية صلبة ومنذ ذلك اليوم بدأت الفرق الثورية داخل المدن التونسية تنشط في مقاومة الاستعماريين الفرنسيين. وقد أظهر الشعب العربي في تونس وحدة صماء وروحا نضالية عالية. وكلما تم اعتقال مجموعة قيادية وطنية خلفتها مجموعة أخرى لا تقل عنها صمودا وثباتا في وجه المستعمر. وكان لنضال الوطنيين في المدن أثر بالغ في رفع معنويات الجماهير الشعبية لتونس. فما كان من السلطات الاستعمارية الا ان جابهت هذا المد الثوري بعمل ارهابي وغيرت أسلوبها بحيث اغتالت الزعيم النقابي الخالد فرحات حشاد في 5 ديسمبر قبل سفره الى نيويورك لحضور عرض القضية التونسية على الجمعية العامة للأمم المتحدة.

فكان لاغتياله أثر عميق في نفوس انصاره ورفاقه من الوطنيين الذين صعدوا الى الجبال وكان ذلك دافعا لهم للمبادرة بحمل السلاح والالتحاق بالجبال. وسوف نتعرض للحديث عن فرحات حشاد في الفصل الخاص بالحركة النقابية التونسية.

وبعد اغتيال فرحات حشاد ونفي أنصاره الى المحتشدات والسجون قرر المقيم العام الطاغية « دي هو تكلوك » في سنة 1953 الشروع في الانتخابات البلدية ورشح لها فرنسيين وبعض الخونة التونسيين. فقررت الحركة الوطنية في ذلك الوقت افشال هذه الانتخابات وبدأت باغتيال الخونة الذين قبلوا بالترشيح للانتخابات متحدين

بذلك الإرادة الوطنية الرافضة لكل مشاريع الاستعمار وقد اختير أكبر عنصر استعماري وهو الشاذلي القسطلي صاحب جريدة « النهضة » ومن مؤسسي حزب الإصلاح ليكون مثلا لغيره من العملاء فاغتيل في وضح النهار في شارع الكنيسة بتونس العاصمة من طرف أحد الوطنيين يدعى الناصر بن السلسي الدقاشي « بمنطقة الجريد » كما اغتيل ولي العهد عز الدين باي الذي ظهرت منه بوادر التآمر على الحركة الوطنية من طرف الهادي بن جاب الله التوزري « منطقة الجريد »..

وظهر المعتدلون الوطنيون :

وعلى أثر هذه الاغتيالات في صفوف الخونة وقع اعتقال الهادي نويرة الأمين العام المساعد للحزب والمشرف على المكتب السياسي السري الذي كان يضم أحمد المستيري ومحمد السنوسي والبشير بو علي وسليمان آغا وعبد الحميد القنقيه، ووصلت الاعتقالات إلى صفوف الحركة الوطنية خارج تونس فقد جلبوا محمد الصمودي مندوب حزب الدستور الجديد في فرنسا مكبلا بالأغلال من باريس للمحاكمة في تونس بتهمة القيام بنشاط إرهابي داخل تونس.. وقد اعتقل أيضا الدكتور محمد بن صالح واعتبر من العناصر المسؤولة عن العمليات الإرهابية.. وأحيلت الجماعة كلها للتحقيق معهم فما كان من السيد الهادي نويرة إلا أن تبرأ مما نسب إليه واستقال من الحزب الدستوري الجديد في الوقت الذي كانت فيه الحركة الوطنية في تونس في أشد الحاجة إلى أي عنصر من عناصرها وقد اعتبر موقف الهادي نويره ضعفا واستسلاما وأدين من طرف المناضلين التونسيين..

ولكن هذا الموقف في الحقيقة والواقع كان مؤشرا واضحا لتنصل القسم الأكبر من قادة الحزب الدستوري الجديد من كل ما يحدث من طرف الحركة الشعبية الوطنية المسلحة، وكان تأكيدا على تبرئها من هذا العنف والتطرف الشعبي وقد كشف هذا الموقف عن تيارين من داخل قيادة الحزب، تيار يؤيد حركة العنف الثوري المسلحة وتيار يستهجنها ويتبرأ منها ويخشى منها ومن عواقبها ولكن لا مانع لديه من أن يستدير ليقطف الثمار ويستفيد من هذه الدماء ويتقدم ليكون عنصر تهدئة أمام الفرنسيين..

وبالرغم من استقالة الهادي نويرة واصل المكتب السياسي السري بقيادة المستيري الذي كان مختفيا وعضوية جلولي فارس والبشير بو علي وعبد الحميد القنقيه ومحمد زغندة والمرحوم مختار عطية ولم تضعف الحركة الوطنية بل واصلت النضال حتى عام 1954 وقد كان لحادث قامت به « اليد الحمراء » الفرنسية في منطقة « جلاص » إذ اغتالت الأخوين حفوز « بمنطقة القيروان » وقد كانا من المسؤولين عن الاتحاد العام

الفلاحين التنظيم النقابي « للفلاحين » رد فعل عنيف من طرف جيش التحرير التونسي، إذ انتقم الثوار لها بقتل خمسة من غلاة المستعمرين الفرنسيين واستمرت المقاومة المسلحة في البلاد..

وقد أظهر الشعب العربي في تونس انه قادر على أن يرد الكيل كيلين وباشتداد المقاومة المسلحة حدث شلل عام في جميع الأجهزة الادارية الاستعمارية.. واستمرت عملية الاغتيال العنصر الوطنية ...... فاختطفوا المناضل الزعيم الهادي شاكر ثم اغتالوه رميا بالرصاص في 13 سبتمبر سنة 1953 وأصبحت البلاد التونسية كلها تعيش في جو رهيب وأصبح كل وطني عرضة للاغتيال.. ومع هذا اشتدت المقاومة الشعبية واستمرت في الاتساع حتى بلغت أوجها في سنة 1954 .. وعندئذ أدركت الحكومة الفرنسية انها عاجزة عن أن تقضي على روح المقاومة لدى الشعب العربي في تونس فلجأت الى أسلوب المراوغة بالظهار استعدادها للتفاوض بتعيين « بيير فوازار » مقيما عاما جديدا لفرنسا بتونس عوضا عن الطاغية « دي هو تكلوك » في شهر سبتمبر سنة 1953..

وقد بدأ هذا السياسي الداهية خطواته السياسية الأولى بمحاولة التخفيف من حدة التوتر وذلك باتباع الطرق التالية ::

1 ـ استمالة الباي وحاشيته..

2 ـ تشكيل وزارة برئاسة محمد الصالح مزالي أحد وزراء حكومة محمد شنيق أوكل اليها الاصلاحات 4 مارس سنة 1954..

3 ـ اطلاق سراح بعض السياسيين..

4 ـ الغاء المحتشدات التي كانت مليئة بالمعتقلين وفي الوقت الذي كان فيه « فوازار » يلوح بالاصلاحات جديدة وبسلوك سياسة تستميل قسما كبيرا من الرأي العام التونسي فانه استمر في تنفيذ السياسة التي كان قد بدأها أسلافه فشدد الخناق على الوطنيين المحكوم عليهم وأذن بتنفيذ أحكام الاعدام بحق المناضلين في حين أنه كان قد ألغى المحتشدات ونقل رئيس الحزب الدستوري الجديد من منفاه بجزيرة جالطة الى فرنسا وذلك في 20 ايار سنة 1954 وقد لعب محمد المصمودي مندوب حزب الدستور الجديد دورا أساسيا بالاتصالات المتكررة بكل من « ادغار فور » و « منداس فرانس » و « فرنسوا ميتران » واطلاعهم على الحالة الصحية المتدهورة التي كان عليها رئيس الحزب الدستوري الجديد الحبيب بورقيبة..

والواقع ان محمد المصمودي قد استطاع أن يثير الرأي العام الديمقراطي في فرنسا وفي أوروبا حول الحالة الصحية التي كان عليها رئيس الحزب في منفاه وأقنع الفرنسيين أنهم بسلوكهم الغاشم تجاه الشعب التونسي ورئيس الحزب يسيرون في طريق مسدود واستطاع أن يرسل الى بورقيبة في منفاه « آلان سافاري » السياسي الفرنسي المعروف والنائب الاشتراكي وقد تدخل أيضا الرئيس الراحل جمال عبد الناصر لدى السفير الفرنسي بالقاهرة طالبا نقل الحبيب بورقيبه من منفاه الانفرادي غير الصحي بجزيرة جالطة الى مكان أكثر ملاءمة لصحته وكان بورقيبة يكتب من منفاه رسائل الى محمد المصمودي مندوب حزب الدستور الجديد يقول فيها : انه رغم الظروف القاسية التي كان يعانيها بمنفاه ومعاملة الحكومة الفرنسية له بهذه الطريقة فانه لا زال يؤمن بامكانية التعاون مع فرنسا ، وكان المصمودي بدوره يطلع أصدقاءه الفرنسيين على رسائل رئيس الحزب الدستوري الجديد مما جعل هؤلاء الفرنسيين وهم « منداس فرانس » و « ادغارفور » و « فرانسوا ميتران » يكبرون هذه الروح الرياضية من رئيس الحزب الدستوري الجديد الذي تعذبه فرنسا وتنفيه وهو غير يائس من امكانية التعاون معها وفتح صفحة جديدة في العلاقات . وفي واقع الأمر فقد كان هذا العنصر المشبع بالروح الفرنسية وبالتأكيد على التعاون مع فرنسا هو خير عنصر ينبغي احتضانه ودفعه الى الصدارة لتصفية الجانب الوطني الثوري « المتطرف » الذي بدأ يظهر على سطح المسرح السياسي الوطني التونسي . وبسرعة ادرك هؤلاء الفرنسيون المعتدلون ان خطة رئيس الحزب الدستوري الجديد منذ بداية حياته السياسية كانت أن يناضل من أجل أن يصل الى الاستقلال عن طريق التفاهم مع الفرنسيين وكان في أثناء الحرب العالمية الثانية يراسل صديقه الفرنسي « بيار جيلي » من سجنه بسان نيكولا بفرنسا . وقد جاء في احدى رسائله إليه : « انه يأسف أن يكون في أحد سجون فرنسا في حين انه كان يجب أن يكون الى جانب فرنسا وهو يخشى أن يفرج عنه من طرف المحور » . وكل ما يرجوه هو أن يخرج من السجن بواسطة فرنسا « مشيرا الى أمله في أن ينتصر الحلفاء » وقد تسببت هذه الرسائل في زرع بذور الخلاف بين بورقيبة وبقية أعضاء الحزب الدستوري الجديد الذين شكلوا المعارضة التونسية كما سنبين فيما بعد .

وقد بدأت الثورة تكتسح المغرب الأقصى ، هذه الثورة التي قامت بها الحركة الوطنية في المغرب والتي شكلت جيش التحرير المغربي . وبدأت الثورة في الجزائر والثورة المسلحة في الجبال التونسية وأصبح المغرب العربي كله من حدود ليبيا الى الصحراء المغربية في ثورة ملتهبة تكبد العدو الاستعماري أفدح الخسائر .

وباكتمال هذه الوحدة، من خلال الكفاح المسلح والأهداف المشتركة في الحرية، وهي الوحدة التي تعبر عن أماني الجماهير العربية في المغرب العربي في الوحدة والتحرر. وقد كانت دائما العناصر الواعية والقيادات الوطنية الثورية المؤمنة بوحدة المغرب العربي كخطوة أولى نحو توحيد الأمة العربية كانت تعتبر نقطة الضعف الأولى في نضال الحركة الوطنية في المغرب العربي هي التجزئة، أي تجزئة نضال الشعب الواحد في المغرب العربي فعندما تثور تونس تكون الحالة هادئة في مراكش والجزائر وعندما تشتعل الثورة في مراكش تكون تونس والجزائر في حالة ركود. ولما بدأت الثورة الجزائرية في نوفمبر سنة 1954 بدأ المناضلون يستبشرون خيرا لأنه كانت هناك ثورة مسلحة في المغرب الأقصى وثورة مسلحة في تونس، فبقيام الثورة الجزائرية اكتملت الوحدة النضالية لان استمرار الكفاح المسلح يقلل من ثمن التضحيات التي يدفعها شعبنا في المغرب لان العدو واحد والشعب المناضل واحد ولا يوجد أي سبب أو مبرر لهذه التجزئة التي تعيق سير المعركة وتؤخر وصول الشعب الى أهدافه وأمانيه والشعب العربي في المغرب العربي يدرك أهمية هذه الناحية وكان يطالب قيادات الحركة الوطنية ان لا يتركوا الأحداث تسبقهم بل عليهم أن يسيروا دائما مع الشعب جنبا الى جنب. أما نقطة الضعف الثانية والتي كانت موجودة فهي موقف بقية أجزاء الوطن العربي من النضال في المغرب وأعني الحكومات. فتأييدها لا يتعدى العواطف والوسائل الدبلوماسية بينما الواجب كان يدعو جميع شعوب الأمة العربية الى المساهمة الفعالة في تلك المعركة الدائرة في المغرب العربي لان معركة الحرية والاستقلال في المغرب العربي في ذلك الوقت كانت تتطلب حشد جميع الامكانيات الحكومية والشعبية ودفعها الى المعركة الحاسمة التي تقرر مصير جزء هام من هذا الوطن ومصير ما يزيد عن 40 مليون عربي يستطيعون اذا تحرروا في ذلك الوقت وتوحدوا أن يساهموا في بناء الكيان العربي الواحد السليم، ولكن تجزئة الكفاح دائما هي التي تؤخر النصر وتؤخر الوحدة المطلوبة.

ويبدو أن فرنسا خشيت أن تكون هناك أكثر من فيتنام واحدة، فقد خرج الفرنسيون من فيتنام بسرعة بعد « ديان بيان فو». وأصبح الاستعماريون الفرنسيون في مهب الريح لو تحولت تونس والجزائر والمغرب الأقصى كل منها الى فيتنام جديدة، ولو استطاعت الحركة الوطنية في المغرب أن تحقق بنضالها الشعار الذي سوف يطلقه جيفارا فيما بعد « فلتكن هناك أكثر من فيتنام واحدة » للقضاء على الامبرياليين، لكان انتهى الاستعمار وكان على فرنسا أن تبحث عن العناصر المتفرنسة التي تحول دون ظهور أكثر من فيتنام وقد وجدت ذلك في تونس وفي مراكش. فلما توحد الكفاح في

المغرب ساعد الرئيس الراحل « جمال عبد الناصر » هذا الكفاح واستلمت الحركة الوطنية في سوريا الحكم بعد سقوط الشيشكلي بدأ الموقف يتغير وتبنى اخواننا العرب في المشرق قضية الحرية والاستقلال في المغرب العربي وما كانت تعانيه فرنسا في ذلك الوقت من حرب ضروس في الهند الصينية وبدأت تخشى لهيب هذا الكفاح الموحد في المغرب العربي فكانت الاصلاحات 4 مارس سنة 1954 التي جاء بها المقيم « بيلار فوازار » ووقعها الباي.. وأدين موقف الباي ووزارة « محمد الصالح مزالي » من طرف الحركة الوطنية التي رفضت هذه الاصلاحات والتي اعتبرتها شبيهة بالاصلاحات التي قدمها المقيم السابق « دي هوتكلوك » وقد سافر « فوازار » الى فرنسا بعد تشكيل وزارة « محمد الصالح مزالي » وصرح بأن الحركة الوطنية في تونس قد انتهى أمرها..

لكن اشتداد المقاومة والضربات التي كانت تكيلها للاستعماريين جعل « منديس فرانس » رئيس وزراء فرنسا حينذاك يتصل بمحمد المصمودي مندوب حزب الدستور الجديد في فرنسا للتحدث معه حول موضوع مفاوضات بين تونس وفرنسا فما كان من المصمودي الا أن قال لمنديس فرانس « ليس هناك حل للمشكلة الا بالاتصال بالحبيب بورقيبة رئيس الحزب الدستوري الجديد ونقله من منفاه والدخول معه في محادثات » وفعلا عمل « منديس فرانس » بنصيحة المصمودي واتصل ببورقيبة رئيس حزب الدستور الجديد ودخل معه في محادثات سياسية ثم قام المصمودي بزيارة الى بورقيبة واطلعه على نوايا الفرنسيين وكذلك على تصريحات « فوازار » وعلى تخاذل الباي و « محمد الصالح مزالي » وعلى مواقف الباي وموافقته على مشروع « فوازار » فما كان من رئيس الحزب الدستوري الجديد إلا أن بعث إلى الباي بالوسام الذي كان أعطاه هذا الأخير إليه تعبيرا عن احتجاجه على تخاذل الباي ومسايرته « لفوازار » ومحمد الصالح مزالي..

قلنا بالرغم من محاولة فوازار الذي أراد عن طريق الباي ومحمد الصالح مزالي أن يلوح للشعب العربي في تونس بالاصلاحات زائفة إلا أن اشتداد المقاومة في تونس وعلى ساحة المغرب العربي كله جعلت الفرنسيين يبحثون عن مخرج لهم خاصة بعد هزيمة « ديان بيان فو »، وبينما كان « منداس فرانس » يتفاوض في جنيف لانهاء الحرب في الهند الصينية وقد تولى « منداس فرانس » الحكم في 18 حزيران سنة 1954 بعد هذه الهزيمة في الهند الصينية، وإذا بقضية المغرب العربي تواجهه وهو في بداية توليه رئاسة الوزارة الفرنسية، فقد نظر للمغرب العربي فوجده ثورة تشتعل من مراكش حتى حدود ليبيا فأراد أن يخرج ببلده من المأزق الذي تعانيه من جراء حربها في الهند الصينية وحربها

في المغرب العربي.. فأمر بنقل رئيس حزب الدستور الجديد من منفاه « بقروا » إلى قصر « لافرتي » بالقرب من باريس وذلك في 16 يوليه - تموز سنة 1954 وتقابل مع بورقيبة.. وبعد مقابلته لبورقيبة ذهب منداس فرانس إلى تونس وأعلن في خطاب رسمي أمام الباي بقرطاج استقلال تونس الداخلي وقد اعتبر هذا التصريح من طرف حزب الدستور الجديد نقطة تحول في السياسة الفرنسية وقد شكلت حكومة تفاوضية برئاسة السيد الطاهر بن عمار رئيس الحجرة الفلاحية وهو وطني مستقل.. وقد شارك الحزب الدستوري الجديد بعضوين في هذه الوزارة التفاوضية وكان ذلك في 2 « أوت » سنة 1954..

أسلوب التفاوض وأسلوب الكفاح المسلح والصراع بين أنصارهما ::

بدأت المفاوضات بين حكومة السيد بن عمار بمشاركة الحزب الدستوري الجديد والحكومة الفرنسية في 4 سبتمبر سنة 1954 بتونس وتحولت المفاوضات إلى باريس في 13 من نفس الشهر واستمرت هذه المفاوضات بين أخذ ورد..

وبينما الحزب الدستوري الجديد يتفاوض مع الحكومة الفرنسية برزت اتجاهات سياسية في تونس ترفض التفاوض وتطالب بمواصلة الكفاح حتى الظفر النهائي..

وأول من قام بمعارضة التفاوض مع فرنسا جماعة الحزب القديم الذي بدأ يمارس نشاطه من جديد وطلبة جامع الزيتونة ومنظمة « صوت الطالب الزيتوني » الطلابية وقد حاول حزب الدستور القديم بعد وفاة المرحوم « محي الدين القليبي » بمنفاه في دمشق أن يجدد نشاطه بتغيير اسم الحزب من الحزب الحر الدستوري التونسي إلى الحزب العربي الاسلامي،، ولما بدأ هذا الحزب نشاطه تصدى له حزب الدستور الجديد بكل قواه فوقعت معارك بين أنصار الحزبين في مدينة سوسة قتل فيها أحد أنصار حزب الدستور الجديد « محمد الكلثومي » وقد رد حزب الدستور الجديد على هذا بقتل « عبد الكريم قمحه » الذي اعتبر هو السبب في الحوادث الدامية التي وقعت بين الحزبين في سوسة.. وما كان من حزب الدستور الجديد إلا أن نشر جوا من الرعب والارهاب ضد أي معارض وأرسل رسائل تهديد لكل أعضاء حزب الدستور القديم بأن يستقيلوا من الحزب العربي الاسلامي.. فاستقال الداعون إلى إحياء حزب الدستور القديم تحت التهديد وكان من بين أولئك « عبد الكريم قريسة » و « عبد القادر التعبوري » و « الحبيب شلبي » أحد أعضاء اللجنة التنفيذية للحزب الدستوري القديم وغيرهم..

التفاوضيون يدعون الثوار لتسليم أسلحتهم :

واستمرت المفاوضات بعد ذلك بين حزب الدستور الجديد والحكومة الفرنسية. واستمرت المفاوضات من شهر سبتمبر سنة 1954 حتى 3 حزيران سنة 1955. وأثناء المفاوضات طلبت الحكومة الفرنسية من حزب الدستور أن يوجه تعليماته إلى الثوار بأن يسلموا أسلحتهم إلى السلطات الفرنسية فوافق الحزب على ذلك وأرسل مندوبين عنه للاتصال بالثوار لاقناعهم بتسليم أسلحتهم.

وفعلا استطاع الحزب الدستوري التونسي اقناع جزء كبير من الثوار بتسليم أسلحتهم والعودة إلى الحياة المدنية.

الثورة الوطنية على خيانة المتفاوضين :

بعد ان وقعت الاتفاقيات بين الحكومة التونسية التفاوضية والحكومة الفرنسية، حكومة « ادغار فور » الذي تولى الحكم بعد سقوط حكومة « منداس فرانس »، عاد الحبيب بورقيبة رئيس الحزب الدستوري الجديد إلى تونس في حزيران سنة 1955 وكان صالح بن يوسف الأمين العام للحزب الدستوري الجديد قد رأس وفدا تونسيا لمؤتمر « باندونج » وعندما بلغه نبأ توقيع الاتفاقية التونسية الفرنسية أعلن من « باندونج » في تصريح له : ان الشعب العربي في تونس يرفض المعاهدة التي وقعتها تونس مع فرنسا. وقال ان الحزب المتكلم باسم شعب تونس العربي قبل الحكم الذاتي كخطوة نحو الاستقلال التام ولذلك فهو يرفض أي اتفاق يقر الوضع.

وقال : ان الاتفاقية تنص على أنّ فرنسا لها الحق وحدها في التصرف في مصيرنا الخارجي والدفاعي. وان الدولة التونسية تلتزم بأن تسخر لفرنسا البلاد وأهلها وثروتها إذا ما احتاجت فرنسا لذلك بموجب اتفاقاتها الدولية كالدخول في حرب طاحنة لا ناقة لنا فيها ولا جمل، وهكذا أصبحت البلاد داخلة في الوحدة مع فرنسا التي طالما قاومها الشعب التونسي.

وهذا الانقسام ليس جديدا وإنما هو خروج إلى العلن بين الاتجاه الوطني المتفرنس والاتجاه الوطني العروبي داخل الحزب الحر الدستوري التونسي.

وفي دمشق صرح يوسف الرويسي عضو المكتب السياسي للحزب الدستوري الجديد ورئيس مكتب المغرب العربي بدمشق : ان الاتفاقية الجديدة هي مؤامرة استعمارية انجرفت إليها الحكومة التونسية، والوفد المفاوض، والذين يدعون إلى القاء السلاح من الزعماء واللجوء إلى المفاوضات فانهم بذلك يتنكرون لشعبهم ووطنهم

ولأرواح الشهداء الذين ضحوا وهم يبتسمون لأن فجر الخلاص لبلادهم من ربقة الاستعمار قد أشرق نوره « سنذكر نص بيان الرويسي في نهاية هذا الفصل ». أما علال الفاسي رئيس حزب الاستقلال فقد قال بهذا الشأن ان الاتفاق التونسي الفرنسي الأخير أعظم خيانة وقعت في شمال افريقيا منذ 250 عاما.

المجد للذين يحاربون اتفاق الخزي والعار :

وجه الأمير عبد الكريم الخطابي نداء جاء فيه :

« أيها الشعب في المغرب العربي.

ان هناك جماعة متضامنة من المستغلين تتربص بكل الدوائر وتريد أن توقعكم من جديد في قبضة الاستعمار، بعدما حملتم أسلحتكم وأدركتم ما يجب عليكم أن تفعلوه لأخذ حريتكم واستقلالكم.

هذه الجماعة قد باعت الكرامة والشرف والوطن وسلمت البلاد لطائفة قليلة من المستعمرين بثمن بخس هو تلك المناصب الزائفة الحقيرة، وقد سبق أن عملت هذه الفئة في تونس فسودت تاريخ هذا البلاد المناضل، لولا أن قيض لها اللّه رجالا صاروا يحاربون اتفاق الخزي والعار. ويمكننا أن نقول أن تونس اليوم ثائرة على الذين يسلمون بلادهم، وماضية في محو العار، وهي بلا شك ناجحة وكل ما كان أبرم بواسطة دعاة الهزيمة وعشاق المناصب سوف ينهار تماما وسوف ينهض عرب تونس لاستلام الكفاح اللائق في الوقت المناسب.

ان الشعب الفرنسي ليس في نيته أن يحارب مرة أخرى ليخلق هندا صينية جديدة في شمال افريقيا. وقد اقتدت جماعة تونس المستسلمة فأبرزت اتفاق « اكس ليبان » إلى حيز العمل والتنفيذ وأخذت تدلس وتغري عرب مراكش بالكلام المعسول وهي سائرة في نفس طريق اتفاق تونس، وستطالب المناضلين بالقاء السلاح، بعدما طلبت منهم الهدوء بحجة أن المفاوضة لا تكون إلا في هدوء والهدوء لا يكون إلا بالقاء السلاح وتسليمه لهذه الجماعة « الرباطية » الجالسة على عرشها حين يتفرغ الاعتداء للقضاء على الجزائر. فحذار من السقوط في الفخ المنصوب وإننا على يقين من أن الشعب سوف يستمر في الكفاح والنضال إلى أن يخرج من المغرب العربي كله آخر جندي فرنسي يحمل السلاح من جماعة المستعمرين ».

التياران المتصارعان يتصادمان ::

بعد هذه التصريحات الصادرة من القادة الوطنيين للمغرب العربي من باندونغ، إلى دمشق، إلى القاهرة، بدأ في تونس تياران يتصارعان، أحدهما يمثل الاتجاه المطالب بالاستقلال التام ووحدة الكفاح في المغرب العربي ويمثله صالح بن يوسف الأمين العام للحزب الدستوري الجديد، والثاني الذي قبل المفاوضات والاتفاقيات 3 حزيران سنة 1955 ويمثله الحبيب بورقيبة رئيس الحزب الدستوري..

وقد استطاع بورقيبة رئيس الحزب الدستوري الجديد بمساعدة السلطات الفرنسية الكاملة وبتأييدها التضميني المستتر — حتى يمكن لفرنسا أن تحتوي الحركة الثورية عن طريقه فهو أفضل وسيلة أمامها لاحتواء هذه الحركة وتصفيتها — استطاع رئيس الحزب أن يحد من قوة التيار الأول إلى أن عاد صالح بن يوسف في 13 سبتمبر بعد أن أرسل إليه وفد من حزب الدستور برئاسة «جلولي فارس» أحد أعضاء المكتب السياسي للحزب الدستوري الجديد وطلبوا منه أن يعود إلى تونس للحوار مع الحزب وبعد أخذ ورد قرر العودة إلى تونس.. وبعد عودته إلى تونس حاول رئيس الحزب اقناعه بالعدول عن معارضته للاتفاقيات وأن يستمر التعاون بينهما ويشكل صالح الوزارة.. لكن صالحا كان مصرا على موقفه من الاتفاقيات.. وفي يوم الجمعة 7 تشرين عقد صالح بن يوسف اجتماعا كبيرا في جامع الزيتونة حضره عدة آلاف من مختلف فئات الشعب اكتظت بهم رحاب الجامع والشوارع المحيطة به وألقى فيهم خطابا قال فيه ::

«أيها الإخوة المؤمنون،

أحييكم من هذا المسجد الإسلامي العظيم الذي كان ولا يزال يشع منه نور الإسلام الخالد، ومن هذا المحراب التاريخي الذي ينطق كله مجدا وعروبة وإسلاما.. أحييكم تحية الإسلام الخالدة.. تحية أحملها لكم من أعماق قلبي.. قد حملني إياها إخوانكم العرب والمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، من مصر، إلى ليبيا، إلى الشام، إلى بغداد، إلى افغانستان إلى باندونغ، إلى يثرب مدينة الرسول الأعظم عليه ألف صلاة وسلام.. ان أولئك الإخوان العرب والمسلمين الذين يبلغ عددهم أكثر من 400 مليون يهيبون بكم أن تكافحوا، وأن تضحوا بكل عزيز وغال لتحرير هذه الأرض التونسية تحريرا كاملا شاملا ويتحرر المغرب العربي كله من ربقة الاستعمار الفرنسي البغيض وحتى تبقى أرض المغرب العربي أرضا عربية مسلمة لا يدنسها شبح الاستعمار.. يهيبون بكم أن تشدوا بعضكم بعضا كالبنيان المرصوص وتقفوا صفا واحدا متراصا لتحطيم هذه الاتفاقيات التي اعترفت للاستعمار بما لم تعترف به معاهدة

«بياردو» سنة 1881 وهي المعاهدة التي لم تعترف بها قط.. فلقد أبقت معاهدة «باردو» لتونس شؤون السياسة الخارجية والأمن والجيش وكذلك الشؤون الاقتصادية.. أما الاتفاقية الأخيرة فقد جردتنا صراحة من السياسة الخارجية والأمن والجيش وأبقت اقتصادنا تحت رحمة فرنسا»..

وقال صالح بن يوسف.. ان الاستقلال الذي يضع أمن البلاد وقضاءها في أيد أجنبية ان هو إلا استقلال زائف وخدعة استعمارية.. ودعا عرب تونس إلى رفض هذه الاتفاقيات والاسراع إلى مؤازرة عرب الجزائر ومراكش في نضالهم ضد الاستعمار الفرنسي الغاشم، ونـدد بكل من تحدثه نفسه بكبت حرية الرأي في تونس والاساءة إلى الوطنيين الذين لم يفقدوا عزة نفوسهم ولم يريقوا ماء وجوههم من أجل عزة الاستعمار.

المواجهة ::

وهنا ثارت ثائرة الاستعمار الفرنسي إذ أيقن أن وراء هذا الاتجاه القومي خطرا يهدد مصالحه وأن قوى النضال آخذة في التجمع والانطلاق.. هذه القوى التي لم تنجح الاتفاقيات في تخديرها أو التقليل من اندفاعها واحتج المقيم العام الفرنسي «سيدو» على الخطاب الذي ألقاه «صالح بن يوسف» الأمين العام للحزب الدستوري الجديد، فما كان من الحبيب بورقيبة ممثل الاتجاه الفرنسي والذي أحس بأن كل شيء يكاد ينقلب رأسا على عقب.. إلا أن أخذ في المناورة بعد هذا الخطاب الذي كان له صدى بعيد في جميع أنحاء البلاد، فعقد اجتماعا بمدينة القلعة الكبرى وألقى فيها خطابا قال فيه :: «لقد تغلبنا على الجبروت الاستعماري بعمل داخلي وهو صمود الشعب ووحدته وبمناصرة الأحرار الفرنسيين والرأي العام الفرنسي وصحفه التقدمية ؟؟ فحلت الصداقة والتعاون محل الحقد والضغينة وهكذا وصلنا إلى نتيجة وهي تخليص سيادتنا الموحدة وبذلك كسبنا المعركة وبدلا من التقتيل واسالة الدماء أصبح الفرنسيون والاسرائيليون ضيوفنا واخواننا فلنتقبلهم بصدر رحب»..

وقد ختم خطابه بالتهديد والوعيد لمن يحاول جعل الحزب ذا اتجاهين ومخلوقا ذا رأسين،، فليحذر هؤلاء فبورقيبة لا يتوانى أمام مصلحة الوطن ومسؤولياته التاريخية عن اتخاذ قرار يحقق انسجام الحزب ووحدة الأمة.. !!!

هذا وقد أسرع رئيس الحزب الحبيب بورقيبة بتوجيه ومباركة من السلطات الفرنسية ففصل صالح بن يوسف من الأمانة العامة للحزب ومن عضوية المكتب السياسي ومن الحزب.. غير أن صالح بن يوسف رفض الاعتراف بقرار الفصل لأن قرار فصل الأمين العام لا يمكن أن يتم إلا بعد اجتماع المؤتمر العام للحزب الذي سيعقد بعد شهر.

وقد نسي الرئيس بورقيبة أن قضية فصل « البحري قيقة » من عضوية اللجنة لتنفيذة للحزب الدستوري القديم عام 34 كان حادثا مماثلا قد هدم الحزب الدستوري القديم ونشأ على انقاضه الحزب الدستوري الجديد الذي كان بورقيبة من مؤسسيه آنذاك وقد نشر الطاهر الأسود قائد جيش التحرير التونسي بيانا في جريدة الصباح موقعا باسمه وباعتباره « قائد المجاهدين في تونس » وعنوانه « فليسمع المتخاذلون » جاء فيه « إنّي لا أقبل الاتفاقيات التي عقدت مع فرنسا، لأننا دفعنا مهر الحرية دما عزيزا علينا. دفعنا دم زعمائنا. حشاد، وشاكر والاخوين حفوز ودم أبطال الكفاح والنضال . . . فكيف يمكن أن ننسى أرواحهم الزكية ودماءهم الطاهرة ونقبل مقابلها هذه الاتفاقية المزيفة واني أعلن تأييدي للزعيم الاستاذ صالح بن يوسف لأنه محافظ على أمانة الشعب ورسالته الخالدة واحذر كل انسان يريد التعرض لصالح بن يوسف الأمين العام للحزب الحر الدستوري التونسي ».

وفي القاهرة ألقى ابراهيم طوبال في نوفمبر 1955 خطابا نشرته الصحف أعلن فيه رفض شعب تونس للاتفاقية التونسية الفرنسية الجائرة التي يراد بها وضع الأغلال في يدي الشعب التونسي وربطه بعجلة الاستعمار وسيحطم الشعب الأغلال على رؤوس من وقعوا هذه الاتفاقية التي ترمي إلى تحويل تونس من الوجهة العربية إلى الغرب الاستعماري.

وقد قام صالح بن يوسف باعتباره الأمين العام للحزب بالرد على المناورة الفرنسية البورقيبية المظهر ففصل الحبيب بورقيبة من الحزب وفصل أعضاء المكتب السياسي المؤيدين لبورقيبة من الحزب أيضا.

وبهذا انقسم الحزب الدستوري على نفسه وأصبح حزبين :

1 ـ حزب الأمانة العامة للحزب الدستوري الجديد.

2 ـ المكتب السياسي للحزب الدستوري الجديد.

وبدأت مرحلة خطيرة من التصفيات، والدمار والخطف، والاغتيال باغتيال علي بن اسماعيل سائق سيارة صالح بن يوسف الذي طلب إليه أن يأتي بصالح بن يوسف وعلي الزليطني لاغتيالهما وعندما رفض ذلك اغتيل.

وبالرغم من تحذير صالح بن يوسف الأمين العام للحزب الدستوريّ الوفد التفاوضي منذ أن كان في جنيف يتتبع سير المفاوضات والحاحه على المرحوم « المنجي سليم » رئيس الوفد بعدم التورط في قبول الاتفاقيات، إلا أنه بمجرد ما سافر صالح

بن يوسف مع المرحوم (علال الفاسي) رئيس حزب الاستقلال ووفد جبهة التحرير الـوطني الجـزائـرية لحضـور مؤتمر باندونج وبالرغم من الوعود التي وعد بها المرحوم (المنجي سليم) بأنه لن يقبل اتفاقيات إلا انه بمجرّد ما وصل صالح بن يوسف إلى باندونج تقابل (ادغار فور) رئيس وزارة فرنسا مع (بورقيبة) رئيس الحزب فأعلن (بورقيبة) قبوله للاتفاقيات التي علق عليها الشهيد صالح بن يوسف عندما بلغه هذا النبأ وهو في باندونج بالتصريح التالي :

إنّ الشعب التـونسي يرد اليوم بعنف على الـدعاية المنظمة والموجهة التي قام بها الـوزراء المفـاوضـون التـونسيون في سائر أنحاء البلاد التونسية، لاغتصاب موافقة الشعب، ولـو موافقـة ضعيفة على الاتفاقيات التونسية ـ الفرنسية وفي هذه الساعة الخـطيرة من تاريخنا الوطني أوجه نداء أخيرا إلى حكومتنا وإلى أعضاء وفد التفاوض التونسي ليتحملوا مسؤولياتهم. انّ سلامة الوطن يجب أن تقدم على كل اعتبار سواء كان مبعثه التدبير في الخطة أو الانتهازية السياسية.

ان الاتفاقيات كما نشرتها الاقامة العامة الفرنسية بتونس في 8 و 9 مـاي يجب ألاّ يوقع عليها ولو بالأحرف الأولى فان أيّ وطني تونسي مهما علا لا ينبغي له أن يتجاوز الارادة الوطنية.

إنّ الشعب التونسي يرفض تلك الاتفاقيات وهو عازم على احباطها بجميع ما لديه من وسائل وعليه، فإنّ توقيع الاتفاقيات مع ما فيه من فرضها عليه معناه إعلان الحرب ضده.

وإنّي واثق من أنّ المفاوضين التونسيين سيعيدون النظر في موقفهم بناء على ذلك الاعتبار.

وبعـد عودة صالـح بن يوسف من بانـدونـج إلى القـاهرة واصل هجوماته على الاتفـاقيات التونسية الفرنسية وكان خطابه الذي ألقاه في 6 أكتوبر سنة 1955 في جامع الزيتونة بتونس العاصمة القشة التي قصمت ظهر البعير. والذي بسببه احتدم الصراع بينـه وبـين بورقيبة وفصل من الأمانة العامة للحزب. خاصة عندما قامت مظاهـرات صاخبـة وعنيفـة تهتف بسقوط الاتفاقيات. ولزيادة الفائدة نلقي بعض الضـوء على المـوقف بعـد هذا الخطاب. حيث تقدم المقيم الفرنسي « سيـــدو » للحكومة التونسية باحتجاج رسمي. وقال في احتجاجه انه لا يجوز للسيد صالح بن يوسف وهو الأمين العام للحزب الدستوري الذي وافق رئيسه بورقيبة على الاتفاقيات التونسية الفرنسية أن يعلن حربا شعواء على نفس الاتفاقيات.

ان موقف الشهيد صالح بن يوسف من هذه الاتفاقيات الخيانية جعل القاعدة الحزبية للحزب الدستوري الجديد تتحرك وتضغط على رئيس الحزب لكي يوضح لهم الموقف باعتبار أنّ الأمين العامّ صالح بن يوسف اتخذ موقفا مغايرا لرئيس الحزب، فما كان من رئيس الحزب إلا أن يجتمع بالأمين العام عدة اجتماعات لاقناعه بعدم المعارضة وأكد رئيس الحزب بورقيبة لصالح بن يوسف الأمين العام للحزب أنّه قد اتّفق مع « سيدو » المقيم الفرنسي على أن تستقيل حكومة السيد الطاهر ابن عمار فورا ويكلف صالح بن يوسف بتشكيل الحكومة مقابل أن يسكت عن مهاجمة الاتفاقيات التونسية الفرنسية. إلا أنّ الشهيد صالح بن يوسف رفض هذا العرض. وأبلغ بورقيبة بأن هذه الاتفاقيات مضرة بمصلحة الوطن العليا وبقضية تحرير المغرب العربي ووحدته، وألح على بورقيبة بأن يكشف حقيقة خطورة الاتفاقيات للشعب نفسه ويضغط على فرنسا بذلك، وطلب منه عقد مؤتمر للحزب يصدر قرارا ضد الاتفاقيات ويقول بأن هذه الاتفاقيات لا تلزم الشعب التونسي بشيء وأنه يعتبرها عديمة الجدوى، ثم يطالب المؤتمر الحكومة التونسية بابلاغ فرنسا موقف الشعب التونسي من الاتفاقيات، ومطالبة فرنسا بالدخول في مفاوضات جديدة على أساس الاعتراف بالاستقلال التام. فما كان من الحبيب بورقيبة رئيس الحزب إلاّ أن رفض هذا الاقتراح وقال مخاطبا صالح بن يوسف أنّه تعهّد لفرنسا أمام العالم بأنّه يعمل على انجاح هذه الاتفاقيات وأنّه يستطيع أن يحمل الشعب التونسي على قبوله كمرحلة حاسمة نحو الاستقلال التام، وقال بورقيبة أيضا لصالح بن يوسف أنّه الآن أصبح صديقا لفرنسا بعد أن عاملته معاملة العدو طيلة 25 سنة وأنّه لا يستطيع الاحتفاظ بهذه الصداقة الغالية إذا عجز عن البر بوعده.

وقال لصالح بن يوسف : باعتبارك الأمين العام للحزب يجب عليك تنفيذ كل سياسة يتبناها المكتب السياسي ومعارضة هذه السياسة من قبلك تعد خروجا عن الالتزام الحزبي وتمردا على قرارات الحزب. وكان رد صالح بن يوسف : إنّني لم أدخر وسعا أثناء المفاوضات بين حكومة فرنسا وتونس في تبصير المفاوضين وتحذيرهم من مشروع الاتفاقيات. وعلى هذا الأساس فأنا لست مسؤولا عن الخط السياسي الذي سار عليه المكتب السياسي للحزب وباعتباري أمينا عاما للحزب وحسب النظام الداخلي الذي يلزم كل المناضلين بأن الأمين العام يتمتع بصلاحيات واسعة النطاق دون غيره من المكتب السياسي وباعتبار الأمين العام للحزب هو المسؤول دون غيره من المكتب السياسي، وباعتبار الأمين العام للحزب هو المسؤول عند تنفيذ قرارات المؤتمر واللوائح وعليه توجيه الصحافة الحزبية، وهو الذي يدعو رؤساء الشعب والجامعات

لمؤتمرات دورية يقرر أتباعها الخط السياسي الذي يسير عليه الحزب، ثم تنتخب المكتب السياسي دون تعيين مسؤولية أعضائه، وقال انه بناء على نظام الحزب الداخلي فانه محق في رفضه الاتفاقية الفرنسية التونسية، حتى وان وافق عليها رفاقه أعضاء المكتب السياسي.

وبعد هذا الحوار الذي لم يصل إلى نتيجة بين رئيس الحزب بورقيبة والشهيد صالح بن يوسف، ذهب بورقيبة رأسا لمقابلة المقيم الفرنسي بعد خروجه من بيت صالح بن يوسف واجتمع به لمدة ثلاث ساعات طلب فيها المقيم الفرنسي بابعاد صالح بن يوسف عن البلاد التونسية فأجاب بورقيبة: ان اجراءك هذا قد يتسبب في اندلاع حرب أهلية، واتفق أن يفصل صالح بن يوسف من الأمانة العامة للحزب ويجرّده من جميع مسؤولياته الحزبية..

وما ان خرج بورقيبة من الاجتماع بالمقيم الفرنسي حتى دعا إلى عقد اجتماع للمكتب السياسي وأصدروا قرارا بتاريخ 13 - أكتوبر سنة 1955 يقضي بفصل الشهيد صالح بن يوسف من الأمانة العامة للحزب وتجريده من جميع مسؤولياته وعضويّة الحزب وهذا هو نص القرار: «بناء على أن الأستاذ صالح بن يوسف يتبع اتجاها مخالفا لاتجاه الحزب الذي صادقت عليه الهيئات المسؤولة للحزب من ديوان سياسي والمجلس المركزي وجامعات وشعب في مؤتمراتها الجماعية..

وبناء على انه جاهر بصورة واضحة لا شبهة فيها بمقاومته تلك السياسة من الداخل بواسطة المنشورات التي كان يقوم بارسالها من الخارج لاحداث الاضطراب والشغب على الحزب.. وبناء على انه أصر على موقفه رغم المحاولات التي قام بها الديوان السياسي والمنظمات القومية وكافة قادة المجاهدين وقسم كبير من مسؤولي الحزب لاقناعه بضرورة المحافظة على وحدة الأمة في نطاق اتجاه الحزب..

وبناء على استغلاله صفة الكاتب العام لمقاومة الحزب، وبعد دراسة جميع الظروف المحيطة بموقفه وعملا بالفصل الثالث والأربعين من القانون الداخلي للحزب فقد قرر الديوان السياسي للحزب الحر الدستوري التونسي فصل الأستاذ صالح بن يوسف من الكتابة العامة للحزب ومن عضوية الحزب»..

الرئيس - الحبيب بورقيبة

فما كان من الشهيد صالح بن يوسف الأمين العام للحزب ـ إلا أن رفض هذا القرار الجائر الذي لا يحق لرئيس الحزب أو المكتب السياسي اصداره بل هو حق من حقوق المؤتمر، وهذا نص بيان الشهيد صالح بن يوسف :

طالعت بالصحف التونسية الصادرة بتاريخ 13 ـ أكتوبر سنة 1955 قرارا من الديوان السياسي ممضى من الرئيس الحبيب بورقيبة يقضي بتجريد الأمين العام للحزب الحر الدستوري التونسي من الأمانة العامة للحزب ومن عضوية الحزب، واني بوصفي الأمين العام للحزب الحر الدستوري التونسي عامة أعلن أنّ القرار المذكور لم يكن صادرا عن ذي أهلية أو صلاحية حسب قوانين حزبنا.

ولذا فإنّي أعلن بطلانه من أساسه مؤكدا استمراري على مباشرة مسؤولياتي الحزبية وعملي السياسي الذي يتفق وحده والمبادئ الوطنية المقدّسة، تلك المبادئ التي طالما أعلنها وأكّدها حزبنا العتيد واني في ذلك أعتبر نفسي لازلت ولن أزال الأمين العام للحزب الحر الدستوري التونسي وفقنا اللّه جميعا لما فيه خير البلاد والعباد.

صالح بن يوسف

(الأمين العام للحزب الحر الدستوري التونسي)

وقد استنكر الشعب العربي في تونس هذا القرار الجائر الذي اتخذه بورقيبة والمكتب السياسي ونزلت مظاهرات إلى الشوارع تعبر عن سخطها واستنكارها متضامنة مع صالح بن يوسف منادية بسقوط الاتفاقيات ومطالبة بالاستقلال التام وبعودة الكفاح المسلح ووحدة المغرب العربي ودعم الثورة الجزائرية وصدرت الأوامر إلى البوليس الفرنسي الذي حصد برصاصه المواطنين القوميين وخاصة حوادث (سوق القرانه) بتونس العاصمة وغيرها في داخل القطر التونسي.

موقف الحركات التحريرية للمغرب العربي في القاهرة :

درست لجنة تحرير المغرب العربي بالقاهرة، في اجتماع عقدته وضم جميع وفود المغرب العربي الاتفاقيات الفرنسية التونسية، فاتهمت السيد بورقيبة والديوان السياسي بالتواطؤ مع الاستعمار بعقدهم اتفاقيات تختلف في معناها ومبناها عن المبادئ التي قام عليها الحزب الحر الدستوري التونسيّ والتي انضم بمقتضاها إلى لجنة تحرير المغرب العربي. ونظرا لمخالفتهم المبادئ التي قامت عليها اللجنة وحماية للحركات الاستقلالية بالمغرب العربي من التوجيه الاستعماري الذي بدأ يتسرب إلى هؤلاء القادة، قررت اللجنة فصل الديوان السياسي للحزب الحر التونسي الدستوري ورئيسه

بورقيبة من عضويتها واسناد السلطات التي يتمتع بها إلى السيد صالح بن يوسف بصفته الأمين العام للحزب وكانت هذه القرارات قد صدرت في بيان أذيع بتاريخ 14 / 10 / 1955 وهذا نصه :

أعلن الديوان السياسي للحزب الدستوري التونسي برئاسة بورقيبة فصل الأستاذ صالح بن يوسف الأمين العام للحزب نظرا للنشاط الذي قام به في معارضة الاتفاقيات الفرنسية الجائرة.

ولقد اجتمعت لجنة تحرير المغرب العربي المكونة من الوفود المراكشية والجزائرية والتونسية والتي يعتبر الحزب الدستوري التونسي الجديد أحد أعضائها، وبعد أن ثبت لديها أن الديوان السياسي للحزب الحر الدستوري التونسي قام بمشاركة الحكومة التونسية في عقد الاتفاقيات التونسية الفرنسية التي تختلف في مبناها ومعناها عن المبادئ التي قام عليها الحزب، والتي استحق بموجبها أن يكون عضوا مؤسسا للجنة تحرير المغرب العربي وبعد أن تبين أنه لم يعد هناك أمل من تراجع الديوان السياسي الحالي عن موقفه نظرا لما يقوم به من ضغط وكبت لمعارضة الاتفاقيات التي تتسع يوما بعد يوم داخل الحزب والتي تأيدت بعودة السيد صالح بن يوسف إلى تونس، وبعد أن رأت اللجنة ان في الخطوة التي خطاها الديوان السياسي بفصل الأمين العام للحزب هي محاولة للقضاء على روح المقاومة الشعبية التي كان من المتوقع بروزها في مؤتمر الحزب المزمع عقده وذلك بقصد تمكين أعضاء الديوان السياسي الحاليين من الاستئثار باتخاذ القرارات المطابقة لسياستهم من جمع مختار منهم ممثل لجميع النزعات الظاهرة في الحزب.

لهذا كله قررت وفود المغرب العربية المنضوية تحت لواء لجنة تحرير المغرب العربي.

أوّلا : فصل الديوان السياسي للحزب الحر الدستوري التونسي ورئيسه بورقيبة من عضوية اللجنة.

ثانيا : اعتبار ان السلطات التي للديوان السياسي قد انتقلت إلى يد الأمين العام السيد صالح بن يوسف وهو الذي بقي محافظا على المبادئ الاستقلالية التي انضم الحزب على أساسها إلى اللجنة.

ثالثا : يبقى ممثل السيد صالح بن يوسف هو الممثل الرسمي للحزب الحر الدستوري التونسي الجديد في لجنة تحرير المغرب العربي إلى أن يتمكن جمهور الحزب

من البت في مصير الديوان السياسي الحالي وتدبير المسؤولين الجدد عن سياسة الحزب وذلك في جو بعيد عن الارهاب الفرنسي وضغط الديوان السياسي الحالي.

وان لجنة تحرير المغرب العربي لتجد نفسها مضطرة لاتخاذ هذه القرارات وذلك للمحافظة على المبادئ التي قامت عليها، والحيلولة الحركات الاستقلالية بالمغرب العربي من التوجيه الاستعماري الذي بدأ يتسرب إلى بعض القادة وهو مؤمن بأن لا خلاص لتونس إلا بالعودة إلى كفاحها المستمر في سبيل تحقيق الاستقلال الصحيح متضامنة في ذلك مع شقيقتيها مراكش والجزائر.

الوفد المراكشي ((علال الفاسي)) رئيس حزب الاستقلال المغربي.
الوفد الجزائري ((محمد خيضر)) ((جبهة التحرير الجزائرية))
والوفد التونسي ((ابراهيم طوبال)) ((الحزب الدستوري الجديد))

والى جانب موقف لجنة تحرير المغرب العربي بالقاهرة أصدر الزعيم الأستاذ يوسف الرويسي أحد قادة حزب الدستوري الجديد ورئيس لجنة تحرير المغرب العربي بدمشق بيانين الأول استنكر فيه الاتفاقيات التونسية ـ الفرنسية التي تم توقيعها في حزيران ـ 1955 والثاني يحدد فيه موقفه السياسي مع تحليله للاتفاقيات ونورد نص البيان الأول :

لقد تلقى الشعب العربي في تونس وجميع أقطاره نبأ توقيع الاتفاقية التونسية الفرنسية الأخيرة في خيبة مريرة واستنكار شديد.

واعتبر هذه الاتفاقية مؤامرة ضد تونس والمغرب العربي ينسج خيوطها المستعمرون الفرنسيون ورجال الوفد المفاوض الذين أخذوا بخدعة الحكم الذاتي وعادوا بالشعب المناضل الثائر إلى سياسة المفاوضات العقيمة واستسلموا لما تمليه عليهم إرادة المستعمر الغاشم الذي لم يترك في بلادهم غير البؤس والعبودية والدمار.

لقد مرت سبعة أشهر على المفاوضات في باريس والشعب الذي ثار وعزم على انتزاع حريته بأي ثمن يترقب وينتظر وقد غمرته الوعود المعسولة التي قطعها له رجال الحكومة ومن يدعمهم من الزعماء وها هو يفاجأ بكارثة أليمة هي أشد هولا وخطرا من كارثة الحيلولة التي حلت به منذ ما ينيف على السبعين عاما أظهر خلالها من البطولات في المكافحة من أجل حريته واستقلاله وقدم التضحيات الجسام، ما أثبت للعالم أجمع أنه جدير بالحرية والاستقلال شأنه في ذلك شأن جميع شعوب الأرض، قادر على امتلاك

مصيره والتصرف بمقدراته والمقدرات الاستقلال فرنسا ضعف الوفد المفاوض والتطلع الشعب. وقد أقنعته الحكومة وبعض زعمائه باللجوء إلى الهدوء، ففرضت اتفاقيتها الجديدة تثبيتا لنفوذها الاستعماري وعملوا على النظام.. ففرضت في بنود الاتفاقية ما يجعل الحكم الذاتي المزعوم استعمارا جديدا في فترة تتحطم فيها قيود الاستعمار في كل مكان..

لقد نصت هذه البنود على أن تبقى السياسة الخارجية للحكومة التونسية بيد فرنسا تتصرف بمصير الشعب دوليا كما تريد، وتتصرف في شؤون الجيش والدفاع، وتحتفظ فرنسا حسب الاتفاقية بسيطرتها التامة على شؤون الاقتصاد التونسي وربط تونس بكتلة الفرنك النقدية وتنص الاتفاقية أيضا على أن يظل رؤساء الشرطة والأمن العام خلال عشر سنوات، من الفرنسيين وعلى أن يكون ثلث قوات الشرطة من الفرنسيين أيضا.. كما تنص كذلك على أن تنقل السلطات القضائية إلى التونسيين خلال عشرين عاما، ويحتفظ الفرنسيون بموجب الاتفاقية بتمثيلهم في المجالس البلدية والاقتصادية والاجتماعية ،، كما تحتفظ اللغة الفرنسية بمركزها الرئيسي في جميع المدارس وتنص الاتفاقية الجديدة على اقتطاع أجزاء من تونس في الجنوب ((على حدود ليبيا)) والشمال (في منطقة بنزرت)) وجعلها تحت الحكم الفرنسي المباشر.. تلك هي أهم النقاط في الاتفاقية الجديدة التي هي أشد خطرا وعدوانا من معاهدة الحماية ((باردو)) سنة 1881 التي لم تتمكن فرنسا من فرضها على الباي محمد الصادق إلا بعد أن حاصروه في قصره وملؤوا أرجاء تونس بقواتهم المحتلة.. ومع ذلك فهي لم تقيد البلاد بمثل القيود الثقيلة التي قيدت بها هذه الاتفاقية الجديدة..

ولقد قاوم الشعب معاهدة ((باردو)) طوال (((أربع وسبعين عاما))) واعتبر رئيس الوزارة آنذاك مصطفى بن اسماعيل مجرما وخائنا لأنه كان من مؤيديها، فكيف توقع حكومة ابن عمار اليوم وهي مختارة، اتفاقية تفوقها خطرا وعدوانا بعد أعوام طوال من الكفاح الدامي والكفاح المرير في وقت تفرض فيه الشعوب إرادتها في كل مكان..

ويبرز الشعب العربي في تونس وفي جميع أنحاء المغرب قوة نضالية رائعة متمسكة بحقوقها الكاملة مضحية بكل شيء في سبيل الحرية والكرامة.. وفي الوقت نفسه ينادي المؤتمرون في باندونغ وهم يمثلون أكثر من نصف سكان العالم للعمل على تحرير المغرب نهائيا من الاستعمار وأعلنوا غضبتهم على عدوان الحكومة الفرنسية واعترافهم بحق شعوب شمال إفريقيا بالحرية والاستقلال ودعمهم النبيل لنضال الشعب في المغرب العربي من أجل طرد المستعمرين من وطنهم..

ان الاتفاقية الجديدة، هي مؤامرة استعمارية انجرفت بها الحكومة التونسية والوفد المفاوض والذين يدعون إلى القاء السلاح من الزعماء واللجوء إلى المفاوضات. انهم بذلك يتنكرون لأهداف شعبهم ووطنهم ولأرواح الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم وهم يبتسمون لأن فجر الخلاص لبلادهم من ربقة الاستعمار قد أشرق نوره.

ان الشعب العربي في تونس وفي جميع أقطار العرب مدعو لمقاومة الاتفاقية الباغية ولاستئناف نضاله المشرف وبذل دمائه من جديد في سبيل حقوقه المقدسة وكرامة أمته.

وهو مدعو في الوقت نفسه إلى نبذ كل فكرة جديدة تدعو إلى تفاهم من ذلك النوع مع فرنسا وإلى مقاومة كل دعوة للتوقف عن النضال قد يوهمه بها رجال الحكم الذاتي فلا شأن لاشخاص، مهما كانوا، أمام مصلحة الوطن وكرامة الشعب.

ان الشهداء ينادون في كل حين ضمير الشعب للاستمرار في نضاله وتمسكه بحقه المقدس. ويهيبون بأحرار العرب في تونس وجميع أرجاء الوطن العربي أن يرفعوا أصواتهم ضد المؤامرة الاستعمارية التي تحاك ضد الشعب التونسي العربي وأن يحطوا قيود الاتفاقية الجديدة.. فالحق والتاريخ والعالم بأسره يقف إلى جانبنا في معركة الحرية وإننا لمنتصرون.

يوسف الرويسي

«مدير مكتب المغرب العربي بدمشق»

وقد وجه الاستاذ يوسف الرويسي بيانا آخر وزعه على الصحف في الوطن العربي حلل فيه الاتفاقيات ودعا إلى رفضها وطالب الشعب العربي في تونس أن ينضم إلى الكفاح البطولي الذي يخوضه عرب الجزائر والذي كان مثال البطولة الرائعة وقد قال في هذا البيان: «تجتاز تونس اليوم مرحلة سياسية خطيرة تتعلق بكيانها القومي ومصير استقلالها السياسي»، وقال: «لقد فوجئ الشعب بالاتفاقيات مفاجأة غريبة وهي تشبه إلى حد مفاجأة المحارب المؤمن الذي يلقي بسلاحه وهو من الظفر قاب قوسين أو أدنى ويخلى عن المعركة وهو في عنفوان القوة والايمان. وقد كانت جميع شعوب الأرض تترقب نتائج هذا الكفاح الذي توفرت شروطه على ان يكون شعاره: «لا مفاوضة قبل الجلاء» وإذا بالاتفاقيات تنتهي إلى أسوأ النتائج يعلن على قبولها في شكل صك استعماري جديد غلف بثوب الحكم الذاتي الخادع، على ان يشتمل هذا الاعتراف الكاذب بعبوديتنا واستعمارنا من جديد. وضم صوته إلى صوت المعارضة ضد الاتفاقيات وإلى الذين ينادون بوحدة الكفاح في المغرب العربي لتحقيق الوحدة

والاستقلال التام الناجز. وبعد ان توضحت الصورة وتبين ان هنالك خطين في حزب الدستور. خط ينادي باستمرار الكفاح والاستقلال التام وخط يريد القبول بما منحه له الفرنسيون ونتيجة لهذا دخلت البلاد في موجة من الاغتيالات والتصفيات وفتحت السجون أبوابها والمحتشدات لتعج بها الجماهير الشعبية الرافضة للاستقلال الداخلي المزيف.

وبعد اغتيال سائق صالح بن يوسف ثم اغتيال أحد المصورين الصحفيين المسمى (محمد بن عمار) الذي كان يسجل نشاطات صالح بن يوسف والمختار عطية أحد قادة حزب الدستور الذي التزم جانب الحياد في الخلاف بين رئيس الحزب والأمين العام للحزب . . وقد انضمت أغلب الشعب والفروع إلى الأمانة معلنة انسلاخها عن الديوان السياسي وأصبح صالح بن يوسف يقود المعارضة الوطنية ليس ضد حزب الدستور وإنما في الواقع ضد الجناح المتفرنس من الحزب والتف حوله التيار العربي الوحدوي وكذلك انضمت أغلب الصحف الوطنية إلى التيار العربي الوحدوي الذي يقوده صالح بن يوسف ودارت معارك سياسية بين المعارضة والحزب الدستوري وبدأ كل من رئيس الحزب الحبيب بورقيبة والأمين العام للحزب صالح بن يوسف يكتلان الأنصار من حولهما، وكان محور المعركة السّياسيّة بينهما يحوم حول، هل الاستقلال الداخلي خطوة إلى الأمام أم خطوة إلى الخلف، فكان صالح بن يوسف يرى أن الاتفاقيات خطوة إلى الوراء لا تتناسب والتضحيات التي قدمها الشعب التونسي وبقي الصراع بينهما إلى 15 / 11 / 1955 حين دعا الحزب الدستوري إلى عقد مؤتمر وقد أرسلت القاهرة وفدا برئاسة أحمد حسن الباقوري وزير الأوقاف في الحكومة المصرية، للتوسط بينهما وكذلك ارسلت الحكومة الليبية وفدا لاصلاح ذات البين، إلا أن الخلاف كان قد استفحل بين الطرفين المتنازعين وبقي كل من الحبيب بورقيبة وصالح بن يوسف في موقعه.

وأثناء هذه المؤامرة والمناورة الحزبية والمعارك الطاحنة بين قطبي الحزب انعقد مؤتمر الحزب بمدينة صفاقس وطلب من الأمين العام للحزب صالح بن يوسف أن يحضر هذا المؤتمر ويبدي رأيه أمامه إلا أن صالح بن يوسف أرسل إلى الدكتور أحمد علولو رئيس المؤتمر برقية طلب فيها تأجيل المؤتمر ودعوة الشعب والفروع التابعة للأمانة العامة للمشاركة في المؤتمر فرفض طلبه خوفا من الشعب وحتى تظهر القضية كما لو كانت نزاعا بين مجموعة وليست قضية شعبية وطنية.

وانعقد هذا المؤتمر في ظروف خطيرة وصعبة وانتهى المؤتمر في غياب الشعب بالمصادقة على الاتفاقيات واعتبرها خطوة نحو الاستقلال التام وبموافقة المؤتمر على مشروع الاتفاقيات تم انتخاب الرئيس الحبيب بورقيبة رئيسا للحزب والباهي الأدغم أمينا عاما له وقد كان موقف الاتحاد العام التونسي للشغل إلى جانب بورقيبة وخاصة موقف أمينه العام (أحمد بن صالح) دعما قويا للبورقيبة ولولا مؤازرة ((أحمد بن صالح) الأمين العام للاتحاد العام التونسي للشغل للرئيس بورقيبة لكانت الغلبة لصالح بن يوسف،، ذلك ان الحزب بالقسمة قد ضعف نهائيا،، وكل الوطنيين ايدوا صالح بن يوسف كما أجبر رئيس الحزب الحبيب بورقيبة أن يصرح في احدى خطبه في مدينة «« قومبالية »» قائلا بالحرف الواحد ::

«« ان أبواب الحزب مفتوحة حتى أمام الذين تعاونوا مع الاستعمار الفرنسي » وبهذا أصبح الباب مفتوحا أمام القوى الانتهازية للانضمام إلى صفوف الحزب . أما المناضلون الحقيقيون فقد استقالوا من الحزب أو اقصوا عنه.. وفي الحقيقة وجد حزب جديد هو حزب المتفرنسين ولم يبق من القوى الوطنية فيه إلا الاسم ، واحتفظ بورقيبة بالاسم بلا تاريخ ولا مسمى،، فقد كان هذا الجناح الذي تزعمه بعيدا عن الكتلة الوطنية التي تؤلف الحزب وكان موقفه مناصرا البورقيبة..

وأما موقف الاتحاد العام للفلاحين التونسيين فكان إلى جانب المعارضة التي يقودها صالح بن يوسف،، وخاصة موقف رئيسه «« الحبيب المولهي »» وأمينه العام « ابراهيم عبد الله »» ..

أما موقف الاتحاد العام للصناعة والتجارة فقد كان بين بين بعد هذا أصبح الحزب الدستوري الجديد حزبين :: حزب الأمانة العامة للحزب الدستوري الجديد والحزب الدستوري الجديد «« المكتب السياسي »»

اعلان الكفاح المسلح ضد الاستعمار وأذنابه ::

وقد شكلت حركة صالح بن يوسف ضغطا هائلا على الاستعمار والحكومة التونسية التي قبلت الاتفاقيات وانضم قسم من جيش التحرير بقيادة الطاهر الأسود إلى الأمانة العامة وعادوا للكفاح المسلح في الجبال من جديد وقررت السلطة التونسية إلقاء القبض على صالح بن يوسف ولما علم صالح بن يوسف بهذا القرار عن طريق أحد أعوانه إلتحق بطرابلس..

ووجه الطاهر الأسود قائد جيش التحرير نداءه للشعب العربي في تونس قال فيه :

« تعلم القيادة العامة للجيش الوطني التونسي انها كونت على بركة اللّه جيش التحرير الوطني التونسي ومهمته تطهير البلاد من الاستعمار وأذنابه، وتوحيد النضال مع جيش التحرير الجزائري والمراكشي، وتحث الشعب على القيام بواجبه في هذا الصراع الفاصل ضد الاستعمار، وتحذر كل من تحدثه نفسه بالوقوف ضد هذه الحركة النضالية المسلحة، وتنذر من يتبع أولئك الذين تنكروا للمبادئ الوطنية والقيم الكفاحية ».

وقد انضم إلى جيش التحرير مناضلون من الحزب القديم والمتعاطفون مع الثورة الجزائرية.

وجعلوا الوقوف ضد الثورة العربية محورا لنشاطهم :

وبدأ الصراع السياسي بين الأمانة العامة بقيادة صالح بن يوسف والمكتب السياسي بقيادة الحبيب بورقيبة، وكان يتمثل الصراع على الصعيد السياسي في اتجاهين مختلفين كلية :

اتجاه صالح بن يوسف الذي ينادي بالاستقلال التام وتوحيد الكفاح المسلح مع الثورة الجزائرية وجيش التحرير المغربي. وقد كان لحضور صالح ابن يوسف مؤتمر باندونج على رأس وفد وطني نقطة تحول كبير في اتجاهه السياسي.

وقد كان لثورة 23 يوليو في مصر وتبنيها لقضية تحرير المغرب العربي ووحدته اثر كبير في نفوس الوطنيين. وقد أصبحت مصر والرئيس « عبد الناصر » نقطة استقطاب كبيرة للثوريين العرب من الصحراء المغربية إلى طبرق بليبيا. وكان لتبني صالح بن يوسف استراتيجية مؤتمر باندونج وربطه كفاح تونس بكفاح الجزائر والمغرب الأقصى تأثير فعال على نفوس الجماهير العربية في تونس. وقد ساند تيار صالح بن يوسف أغلب مناضلي المغرب العربي في صراعه ضد الحزب الدستوري وكان كل الناس يطالبون ويلحون بأن يستمر هذا الكفاح الذي توفرت شروطه وان يكون شعاره لا مفاوضة مع الاستعمار الا بعد جلاء آخر جندي عن تراب المغرب العربي.

وقد برز احساس قوي لدى التونسيين بأن الواجب كل الواجب يدعونا للمقاومة والكفاح إلى جانب إخواننا عرب الجزائر الذين أراد الاستعمار الانفراد بهم وحدهم في ساحة القتال، وكان التيار المطالب بهذه الضرورة النضالية تيارا قويا وهو يمثل طموح المستقبل في الوحدة المغربية كخطوة نحو الوحدة العربية الشاملة. وقد شعر الاستعمار

بخطورة هذا الاتجاه الزاحف فسخر من جانبه كل الامكانيات من مال وأجهزة اعلام وشرطة وأجهزة القمع كلها للقضاء على هذا التيار ومناصرة تيار الحبيب بورقيبة الذي كان يصرح متحديا شعور الشعب العربي ويقول :

« ان ما يربطنا بالعرب ليس الا من قبيل الذكريات التاريخية وان من مصلحة تونس ان ترتبط بالغرب وبفرنسا بصورة أخص وان مرسيليا أقرب لنا من بغداد أو دمشق أو القاهرة ».

وقال أيضا :

« ان اجتياز البحر الأبيض لأسهل من اجتياز الصحراء الليبية ». وقد نسي ان ما يربط بين شعوب الأمة العربية من أقصاها إلى أدناها لا يدخل في تقدير المسافات.

وبتعاظم المعارضة واشتداد خطرها قررت الحكومة التونسية القاء القبض على صالح بن يوسف ووضع حد لمعارضته والقضاء على التيار القومي المتعلق بالوحدة العربية الذي بدأ ينمو في تونس، ولكن تمكن صالح بن يوسف يوم 28 يناير من الالتحاق بليبيا حيث استقر لمواصلة كفاحه وبدأت الاعتقالات والاغتيالات في صفوف أنصاره، فاعتقلت السلطات التونسية المجاهد العربي علي الزليطني ورؤساء الفروع التابعة للأمانة العامة. وبعد انعقاد مؤتمر الحزب الدستوري الجديد بصفاقس في نوفمبر سنة 1955، ذلك المؤتمر الذي رفضت المعارضة بقيادة صالح بن يوسف حضوره والذي كانت الغلبة فيه للعناصر النقابية، أي قيادة الاتحاد العام التونسي للشغل برئاسة احمد بن صالح الأمين العام وعضوية مصطفى الفيلالي والشاذلي القليبي الذين كانوا مسؤولين على أغلب اللجان الاقتصادية والاجتماعية داخل المؤتمر وأحمد بن صالح هو الذي عمل على ترشيح الباهي الأدغم للأمانة العامة للحزب الدستوري الجديد وكان الأدغم مترددا في قبول هذا المنصب الا ان الحاح أحمد بن صالح عليه جعله يقبل الترشح لهذا المنصب لأن الباهي الأدغم أيد صالح بن يوسف في البداية ضد الاتفاقات وكان يقول :

« ان الاتفاقيات التي حصلنا عليها لا تتناسب مع تضحيات شعبنا، الا انه انسحب من المعارضة لما حدث التصادم الدموي بين عناصر المعارضة وعناصر من الحكومة لا يوافق على اراقة دماء الوطنيين بعضهم لبعض ».

تكوين جيش التحرير الموحد :

تم تكوين جيش التحرير بعد اشتداد الخلاف بين صالح بن يوسف والحبيب بورقيبة على شكل فرق وهي :

1 ـ فرقة أولاد عون بقيادة « عبد القادر زروق » و « الأخضر الفرماس » .

2 ـ فرقة منطقة سوق الاربعاء وغار الدماء بقيادة « الطيب الزلاق » .

3 ـ فرقة منطقة زرمدين بالساحل بقيادة عبد اللطيف زهير.

4 ـ فرقة منطقة قفصة بقيادة كل من « الحسين الحاجي » و « عبد الله البوعمراني » و « الهادي الأسود » و « علي درغال » .

5 ـ فرقة تطاوين والحوايا ومطماطة بقيادة « الطاهر الأسود » و « ومحمد قرفة » و « سعد بعر » وأحمد الازرق.

6 ـ فرقة « نفزاوه » بقبلي والمرازيق بقيادة الشهيد « علي بالشعر المرزوقي » و « محمد الغلوفي » .

7 ـ فرقة أم العرائس ونفطة وتوزر بقيادة « الطاهر الاخضر الغريب » .

8 ـ فرقة جبال أم علي بقيادة « بلقاسم بن فرح العقوبي » .

9 ـ فرقة رضا بن عمار بالعاصمة التونسية .

وقبل أن يغادر صالح بن يوسف تونس متوجها إلى طرابلس عقد اجتماعا في بيته لقيادات جيش التحرير الذي أريد له أن يكون جيش تحرير المغرب العربي كله .

وقد حضر هذا الاجتماع من الجانب التونسي صالح بن يوسف وعلي الزليطني والطاهر الأسود والشهيد الطيب الزلاق. ومن الجزائر الشهيدان عبد الحي وعباس بلغرور، ومن المغرب مجموعة من قيادات جيش التحرير بقيادة المناضل القيادي العنيد محمد البصري قائد المقاومة وجيش التحرير المغربي والذي لا زال حتى الآن وفيا للمبادئ التحريرية والوحدوية ويقود النضال الشعبي المغربي من موقع المعارضة للحكم الرجعي القائم في المغرب.

وفكرة تكوين جيش تحرير مغربي كان يدعو إليها باستمرار عبد الكريم الخطابي وقد استشعر المناضلون العرب في المغرب انها باتت أكثر من ضرورة عندما عقدوا سنة 1955 مؤتمرا في مدريد للتنسيق بين جيش التحرير في كل من المغرب والجزائر وصدر بيان مدريد بين حركة المقاومة وجيش التحرير المغربي من ناحية وجيش التحرير الجزائري من ناحية أخرى الذي نص على عدم توقف النضال إلا باستقلال المغرب العربي كله . وقد كان هذا المؤتمر ردا على السياسة الجديدة التي بدأ يتخذها الاستعمار الفرنسي ، وهي سياسة شق الكفاح المسلح واجهاضه وتفتيته وتجزئته في كل قطر من أقطار المغرب الثلاثة وقد بدأ تطبيق هذه السياسة الاستعمارية الجديدة بالاتفاق على الاستقلال الداخلي في تونس مع الجناح الميال للتعاون مع فرنسا في الحركة الوطنية التونسية وبارجاع محمد الخامس من منفاه والاستعداد للتفاوض معه .

ومما ناقشه « مؤتمر مدريد » اقناع التونسيين بضرورة استمرار الثورة التونسية واتصلوا بذلك بصالح بن يوسف . ومن هنا فقد كان الاجتماع الذي عقد ببيت صالح بن يوسف لقيادات جيش التحرير في كل من تونس والجزائر والمغرب من أهم الاجتماعات التي كان يمكن أن يكون لها أكبر الأثر في نضال المغرب العربي . وقد ترتب على فشل هذه الاجتماعات في تحقيق أهدافها ان تونس والمغرب بالذات مازالت لم تحقق حتى هذه اللحظة استقلالها الوطني الحقيقي .

فبعد أن وجد تيار تهادني اعتقد ان الهدف الوطني في الاستقلال كان على وشك التحقيق وأنه يمكن الحصول على الاستقلال عن طريق المفاوضات وتمت اتفاقيات الاستقلال الداخلي في تونس ومفاوضات « اكس ليبان » في المغرب ، واستطاع الاستعمار الجديد أن يحول الصراع ضده إلى الصراع على السلطة وأن يخرب الوحدة الوطنية التي خلقها النضال السياسي والثوري وأن يسلم الحركة الوطنية هدية مسمومة سميت بالاستقلال على حد تعبير المناضل القيادي « محمد البصري » وبذلك حلت مشروعية التفاوض من أجل استقلال المغرب محل شرعية النضال من أجل تحرير المغرب العربي . . وهكذا استلمت القيادة الفئة التهادنية التفاوضية المتفرنسة في الحزب الحر الدستوري الجديد وبدأت بالتعاون مع السلطات الفرنسية في مطاردة قيادات الكفاح المسلح في تونس بل وشكل الحزب عصابات لاغتيال الذين يرفضون الاتفاقيات المسمومة مع فرنسا . واذا نظرنا إلى ما هو أبعد صورة الصراعات الدامية التي كانت تجري فوق الأرض التونسية لوجدنا انها كانت في حقيقة الأمر بؤرة للصراع بين قوى الثورة العربية وقوى الاستعمار الجديد . . وحتى اليوم فقد حسم الصراع لمصلحة الاستعمار الجديد وضربت قوى الثورة العربية وصفيت . . ولكن سوف تستفيد قوى الثورة من هذا الدرس والمستقبل بكل تأكيد لها وتلك هي حتمية التاريخ .

وفي الاجتماع الذي عقد في بيت صالح بن يوسف بتونس قبل أن ينتقل إلى طرابلس اتفق في هذا الاجتماع على توحيد جيش التحرير المغربي العربي ورسمت له خطط واتفق على ارسال عناصر للتدريب على أساليب القتال وفنون الحرب كاللاسلكي ، وبعد وصول صالح بن يوسف إلى ليبيا واستقراره بها بدأ جيش التحرير التونسي في التنسيق مع جيش التحرير الجزائري على العمل المشترك وقد وقعت معارك كبيرة بين جيش التحرير التونسي والجيش الفرنسي في « بني خداش » و « تطاوين » و « قفصة » و « نفزاوة » و « القصرين » وكان الجيشان يقاتلان جنبا إلى جنب وكان الشعب التونسي يمون الجميع .

وبهذا الاتفاق بدأت المعارك الكبيرة بين جيش التحرير التونسي وجيش الاستعمار الفرنسي والعصابات البورقيبية والتي كان الجنوب التونسي مسرحا لها، وخاصة منطقة بني خداش وتطاوين وقفصه وقبلي والقصرين. وكان الجيشان الجزائري والتونسي يقاتلان جنبا إلى جنب وخاصة في منطقة أم العرايس والرديف والمتلوي ونفطة، وكان شعبنا العربي في تونس يموّن الجميع ايمانا بوحدة الكفاح المشترك.

بعد فرار صالح بن يوسف من القبض عليه في تونس وانتقاله إلى ليبيا سنة 1955، ابتدأ ينظم حركة الكفاح المسلح من قرى الحدود التونسية الليبية مثل قرية الجميل أو قرية وادي التل أو تيجي أو بئر الضبع أو وادي العسة وغيرها.

ففي رسالة مؤرخة في 5 نوفمبر 1956 يقول صالح بن يوسف:

« حضرات الاخوان أعضاء اللجنة المسؤولة، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته: وبعد فاني تأخرت على توجيه رسول اليكم إلى الآن، وكان في ذلك مصلحة لتطور الحوادث بسرعة، إذ لا يمكن أن نتخذ موقفا اليوم فنغيره غدا حسب الحوادث التي تجد (1).

1 ـ موقفكم من الحكومة: يجب مطالبة الحكومة بأن تسلم لكم الاسلحة كغيركم، ثم تسيطرون انتم على الجماعة الذين بيدهم الأسلحة. وكلما تتصلون بالجيش الفرنسي يجب الاسراع في الاشتباك معه، دون مراعاة توصيات الحكومة لكم التي تأمركم دائما وأبدا بالهدوء واجتناب الاشتباكات مع الجيش، لأن الحكومة في الحقيقة ليست لها نية الدخول في الكفاح مع الجيش، وان ما يصرح به بورقيبة من الاحتجاج على اعتداءات الجيش الفرنسي انما هو لتخدير الشعب وذلك باتفاق مع الحكومة الفرنسية ليكسب بورقيبة سمعة في الشعب لمجرد تجمهر الناس في الطرقات منعا لتحركات الجيش الفرنسي فالتعليمات التي تبلغونها إلى كل من تتصلون بهم أمثال ساسي الهادف هي

---

1) هذه نصوص حرفية من الرسائل التي كان يوجهها صالح بن طرابلس الى الثوار في داخل تونس، ماخوذة من الرسائل التي عثرت عليها السلطات في تونس ونشرت بعضها فيما اسمته بكتاب ابيض، ويلاحظ في الصور الزنكوغرافية المنشورة ان بعض العبارات مطموسة، واننا اضفنا فقط علامات الترقيم من عندنا. راجع « كتاب ابيض في الخلاف بين الجمهورية التونسية والجمهورية العربية المتحدة » اصدرته كتابة الدولة للشؤون الخارجية للجمهورية التوسية في ديسمبر سنة 1958، ص 49 ـ 114.



الأستاذ الشيخ عبد العزيز الثعالبي مؤسس الحزب الحر الدستوري والزعيم الأكبر في الحركة الوطنية .



الدكتور محمد علي القابسي باعث الحركة النقابية في تونس سنة 1924 .



الدكتور حبيب ثامر، محمد الخطابي، والحبيب بورقيبة، وابراهيم طوبال ورشيد ادريس
مع المجاهدين التونسيين الذين التحقوا بقوات الثورة في فلسطين سنة 1948.



الـزعيم النقـابي الخالد فرحات حشاد الذي اغتيل سنة 1954 على يد عصابة « اليد الحمراء » الفرنسية في تونس .



الأستاذ يوسف الرويسي رئيس مكتب المغرب العربي بدمشق .



الحبيب بورقيبة مع المناضلين التونسيين الذين التحقوا بالثورة الفلسطينية في سنة 1948 عندما كان بورقيبة في صفوف المناضلين بالقاهرة.



الشيخ بشير الابراهيمي رئيس جمعية العلماء الجزائريين والزعيم محي الدين القليبي ويونس درمونه أثناء أحد المهرجانات لمناصرة عرب المغرب العربي في كفاحهم ضد الاستعمار.



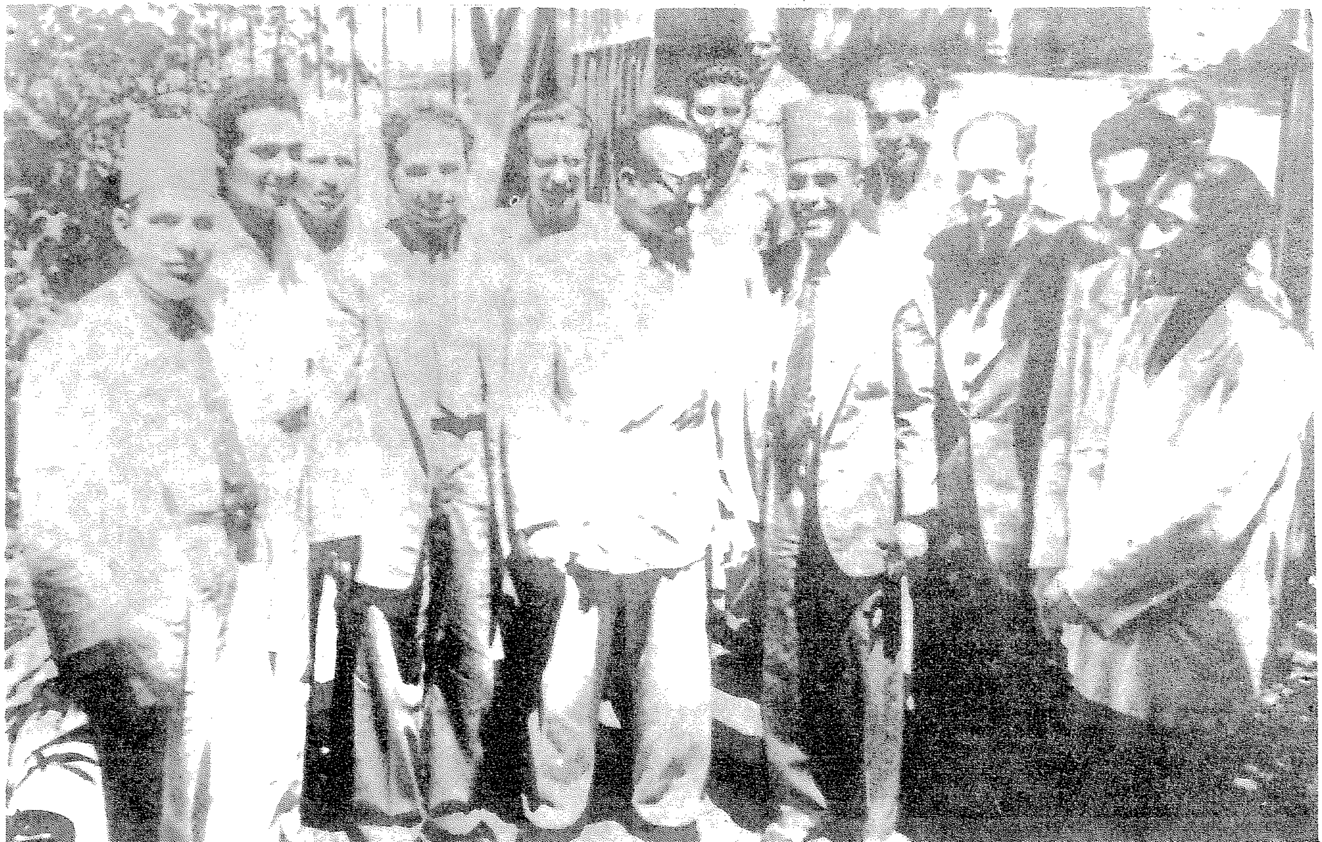
المجاهد سليمان الباروني والعضو بمجلس الاعيان العثماني كان واحد من رجال النهضة الافريقية الذي جمعت بطولته بين جهاد القلم والحسام.



مصالي الحاج بدأ مناضلا وانتهى ضد الثورة التي قام بها الشعب الجزائري البطل.



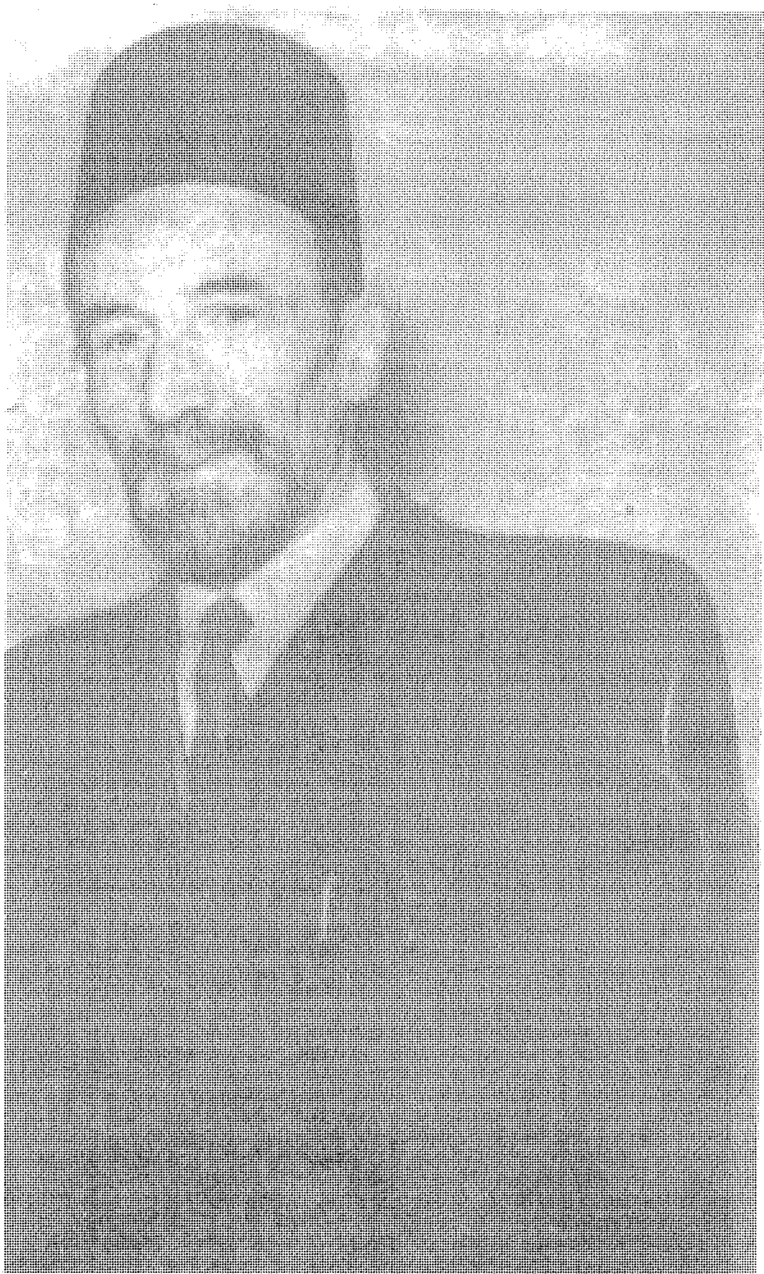
البطل عبد الكريم الخطابي من حوله قادة الحركة الوطنية للمغرب العربي بالقاهرة على اثر مؤتمر الحركات الوطنية سنة 1947 .



الشهيد صالح بن يوسف، جلولي فارس، سليمان بن سليمان، في القاهرة سنة 1947 بعد انقعاد مؤتمر الحركات التحريرية للمغرب العربي في القاهرة. وظهر معه إلى جانب صالح بن يوسف علال الفاسي رئيس حزب الاستقلال وابراهيم طوبال ويونس درمونة ومجموعة من المجاهدين.



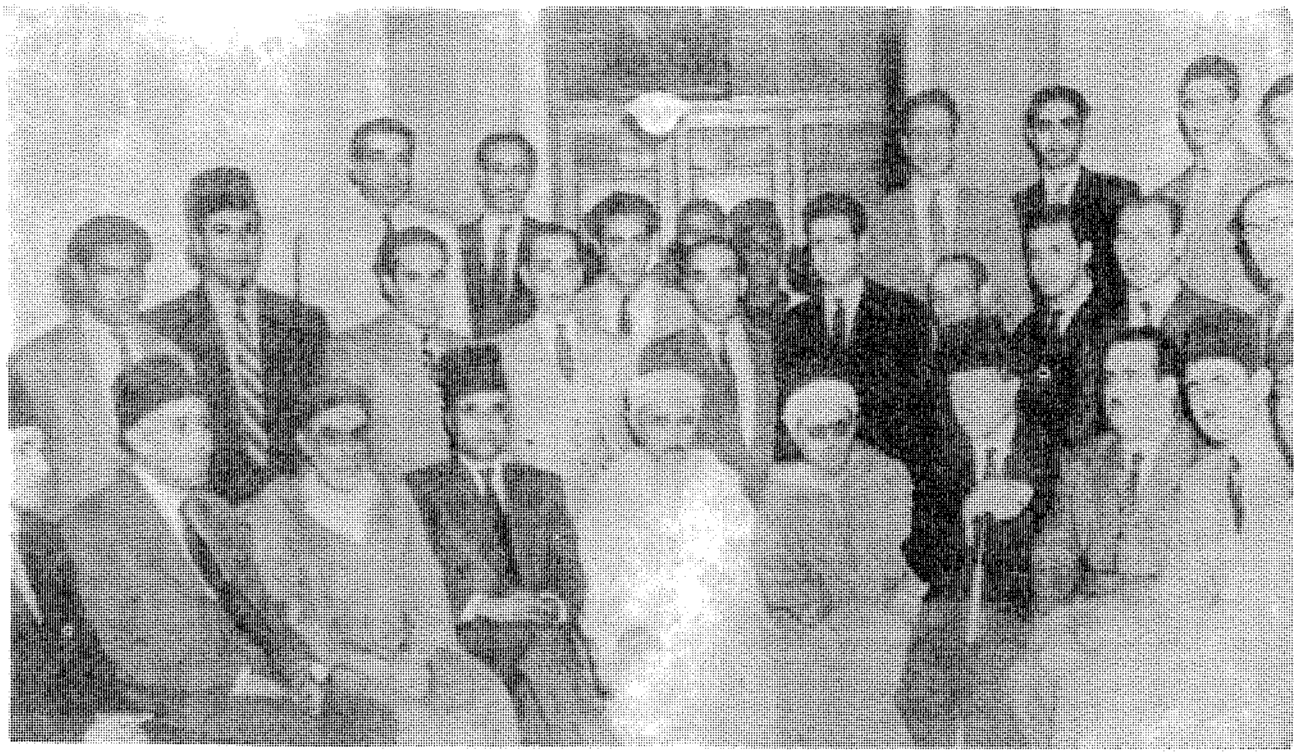
في مكتب المغرب العربي بالقاهرة الشهيد صالح بن يوسف والدكتور الحبيب ثامر والأستاذ علال الفاسي والحبيب بورقيبة وجلولي فارس وبعض المناضلين في القاهرة.



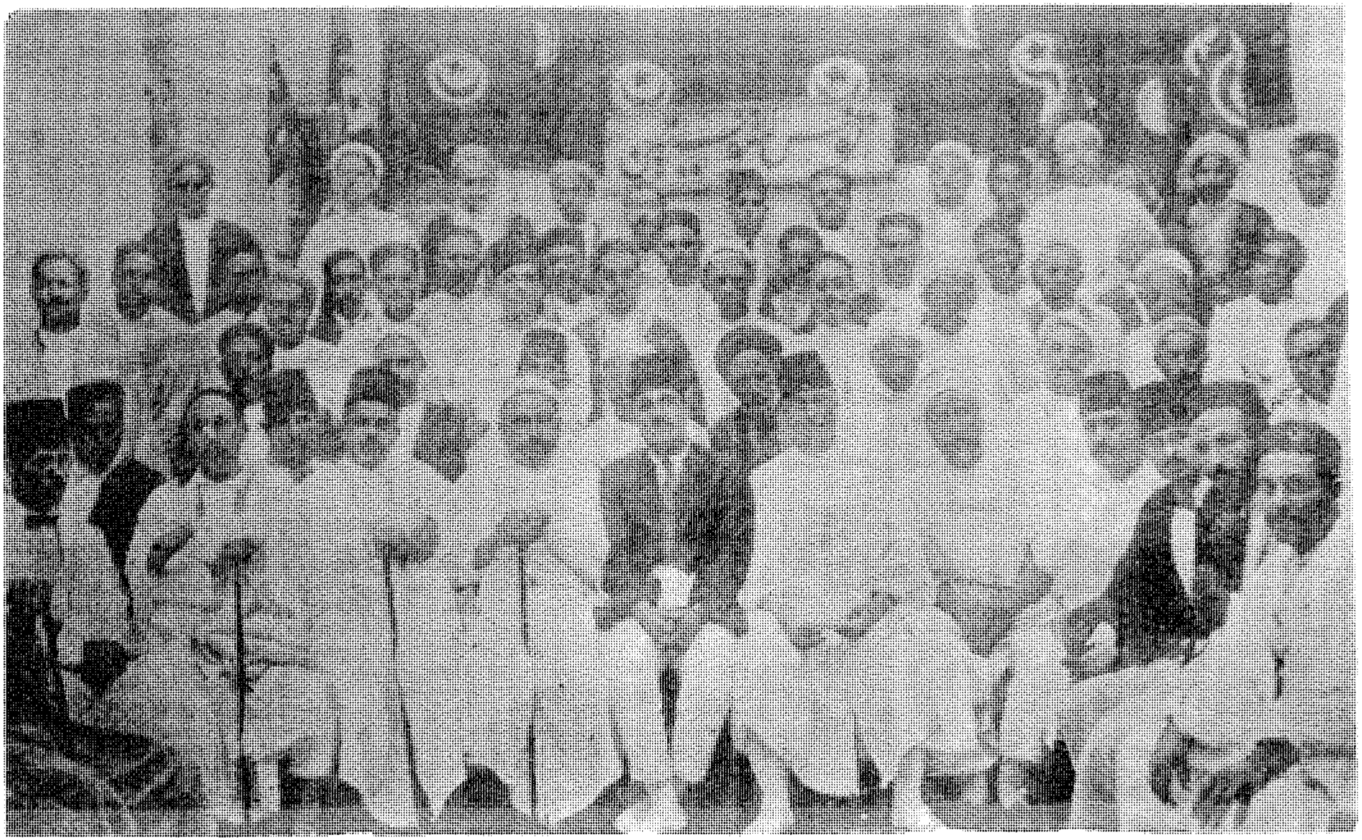
الزعيم المجاهد محي الدين القليبي خليفة الثعالبي في قيادة حزب الدستور القديم .



بطل الكفاح المسلح عبد الكريم الخطابي



البطل عبد الكريم الخطابي والمجاهد الليبي بشير السعداوي وغيره من المناضلين المغاربة في القاهرة، سنة 1947.



مؤتمر عقده الحزب الحر الدستوري في 16 سبتمبر 1934 لتهيئة ارسال وفد ثالث إلى باريس وذلك بمناسبة فوز حزب الشمال وتوليه سلطة الحكومة الجمهورية.

التكثير من الحوادث مع الجيش بعد إستلام الاسلحة من الحكومة، وتسيطر جماعاتنا على الموقف. وإذا أمرت السلطة التونسية بملازمة الهدوء واجتناب الاشتباكات مع الجيش، عليكم أن تعصوا أمرها. ولو أدى الأمر إلى مصادمة أعوانها بالقوة. ان الفرصة سانحة الآن لاستئناف الكفاح بتأييد كامل من الشعب، ذلك التأييد الذي كان ضعيفا أثناء الثورة الأخيرة، لأن الشعب التونسي بعد اعلان الاستقلال في 20 مارس الأخير لم يكن مقتنعا بأن استقلال 20 مارس سيبقى استقلالا صوريا مادامت الجيوش الفرنسية باقية في بلادنا حرة، ومادامت هذه الجيوش تتصرف تصرفا مطلقا في أراضينا، فتعتدي على شعبنا، وتستفز أبناءنا وتستعمل أرضنا نقطة انطلاق للهجوم على الشعب الجزائري المكافح. قلنا كل ذلك بعد اعلان الاستقلال في 20 مارس.

ولكن بورقيبة وأعوانه في حكومته وفي حزبه ضللوا الشعب فأقنعوه بأن الاستقلال قد تحقق، ولم تعد فائدة من مواصلة الكفاح ضد المستعمرين وجيوشهم. أثبتت الحوادث أننا كنا على حق مما اضطر بورقيبة إلى الاعتراف بأن استقلال تونس سيبقى صوريا مادام الجيش الفرنسي محتلا أراضي الوطن. وصرح بورقيبة بأن الكفاح ضروري. ولذلك سجلت عليه هذه التصريحات في برقيتين ارسلتهما له، وبينت في البرقيتين أن الشعب كله يجب عليه الاتحاد مع الحكومة لخوض معركة جلاء الجيوش الفرنسية عن أراضي تونس. كما طلبت من بورقيبة ان يقدم شكوى بفرنسا إلى مجلس الأمن. ولما طلبت اتحاد الشعب مع الحكومة لغرض معين، وهو الدخول في الكفاح ضد فرنسا أمر بورقيبة الصحافة التونسية والاذاعة بعدم نشر البرقيتين، لان البرقيتين في الحقيقة لا تؤيدانه تأييدا مطلقا، وانما تؤيدانه على شرط أن يكون صادقا في تصريحاته وان يترك المجال للشعب ليكافح جيوش الاستعمار صفا واحدا دون فرق بين أنصار الديوان السياسي وأنصار الأمانة العامة. والشرط الثاني هو أن يقوم بصفته رئيس الحكومة بتقديم شكوى إلى مجلس الأمن. أذاع صوت العرب وإذاعات أخرى برقياتي إلى بورقيبة، وأرسل لي الأمين العام للجامعة العربية برقية شكر على موقفي. وتعميما للفائدة باطلاع الشعب التونسي على موقفي، حيث أخفاه بورقيبة على الشعب، حررت منشورا تضمن البرقيتين، وتفسير الأسباب التي حملتني على إرسالهما إلى الحبيب بورقيبة. يصلكم عدد « 5 » طرود من هذا المنشور. طرد لكم لتوزعوه في الجنوب . . . الخ ». ثم يتحدث بعد ذلك عن كيفية توزيع هذه المنشورات والجهات التي توزع بها والذين يكلفون بتوزيعها. وبعد ذلك يتحدث في مسألة الأسلحة والمال ويذكر تعليماته بخصوص توزيع البنادق والسلاح وعلى أي الجماعات ينبغي أن توزع ويشدد على ضرورة الالتزام بالتصرف في كميات السلاح حسب التعليمات دون تبديل

أو تغيير ويفصل كميات الأسلحة التي توزع على المجموعات التي يذكرها ويحدد أنواع الاسلحة التي تسلح هذه المجموعات. وينبههم الى ان « السلاح لو يعرضه الشيطان تأخذوه منه فارحين، ولو نلتزم صوريا باستعماله للغرض الذي يعينه الذي يسلمه لنا. ثم اذا كنا مؤمنين وأذكياء نتصرف في السلاح بعد استلامه حسب مصلحة الوطن التي نراها نحن، لا حسب ما يراه الحاكم اليوم، الذي ثبت وأنه غير جاد في دعوته الشعبية للكفاح ضد الجيوش الفرنسية حيث ما وجدوا وحيث ما صادفهم فوق الأرض التونسية حتى يضطرهم الى مبارحتها وسواء كانت هذه الجيوش تريد الاشتباك او تجتنبه حسب خطة مرسومة بين الحكومة الفرنسية والحكومة التونسية ».

وبعد ان يذكر تعليماته بخصوص الأسلحة واستعمالها وتوزيعها، يشير إلى ان الخطة القديمة التي كانت تقضي بانتظار استكمال تسليح عصابات الثوار في جميع أنحاء تونس حتى يمكن القيام بعمل جماعي مفاجئ قد اضطرته الحوادث الجديدة من خطف الزعماء الجزائريين والعدوان الثلاثي على مصر ومضاعفة فرنسا عدد عساكرها الذين جلبتهم من الجزائر إلى تغييرها.

وينهي رسالته بضرورة السعي « كل السعي في اثارة القلاقل ضد الفرنسيين، العسكريين والمدنيين، بكل الوسائل، الاعتداء على الأشخاص والممتلكات حتى ينزل الرعب في قلوب الفرنسيين فتنحط معنوياتهم بقدر ما تقوى معنويات الشعب المصري المجاهد والشعب الجزائري وبقية الشعوب العربية، عندما تنشر الاذاعات كل يوم عملا ازعاجيا ضد الفرنسيين مدنيين أو عسكريين. ولذلك أصبحت الخطة القديمة لا تتماشى مع الظروف. وان كل من يتصل بشيء من السلاح ولو قليلا من الحكومة او منا لا بد وان يستعمله ضد الفرنسيين مدنيين كانوا أو عسكريين، والسلام من القائد الأعلى لجيش التحرير التونسي. صالح بن يوسف ».

وفي هذه الرسالة المؤرخة في 5 نوفمبر 1956 يتضح ان صالح بن يوسف لم يكن يعي فقط بانه يقاتل الجيوش الفرنسية المحتلة في تونس وحدها وانما كان على ثقة من ان الرصاصات التي تطلق ضد المحتل الفرنسي على الأرض التونسية تصيب العدو الفرنسي أيضا فوق قناة السويس في المشرق العربي وفوق الجزائر في المغرب العربي في نفس الوقت، فما دام العدو واحدا فلا بد أن يكون النضال ضده نضالا واحدا.. وهذه الرسالة نموذج من الرسائل التي كان يبعث بها بن يوسف الى الثوار التونسيين ضد القوات الفرنسية في تونس.

استمرار الصراع بعد فرار صالح بن يوسف

واستمر الصّراع بين التيار الوطني الوحدوي وتيار حزب الدستور غير الوحدوي بل المعارض لوحدة الحركة التحريرية. فما كان من حزب الدستور الجديد إلا أن نظم عصابات للاغتيال والاختطاف والارهاب ضد التيار الوطني الرافض للاتفاقيات. وأصبحت هذه العصابات تختطف الوطنيين وترمي بهم في معتقلات تعذيب اشتهر من بينها (سباط الظلام) بقيادة المشرف عليه المجرم حسن العيادي وبني خلاد بقيادة (عمر شاشيه) وسباط مقر دار الحزب بالقصبة تحت اشراف (حسين بوزيان) وعصابته. ومنطقة سوق الأربعاء بقيادة المجرم (محجوب بن علي) وعصابات أخرى هذا إلى جانب الأمن والجيش الفرنسي وكان التعاون تاما بين هذه العصابات التي شكلها حزب الدستور الجديد والقوات الفرنسية واستمرت هذه الأحداث الرهيبة الرامية إلى تصفية التيار الوطني الرافض لصالح الامبريالية والاستعمار وكان جيش التحرير التونسي يناضل ضد الجيش الفرنسي مخفضا بذلك العبء على المجاهدين الجزائريين. ولكي يعطي هذا الحزب صورة شرعية مزيفة لعمليات القمع والتصفية للقوى الوطنية شكل حزب الدستور محكمة اطلق عليها اسم (المحكمة الشعبية) والواقع أنها محكمة ارهابية لتصفية القوى الوطنية لصالح الامبريالية والاستعمار بدأت هذه المحكمة في أواخر سنة 1955 بمباركة السلطات الفرنسية التي كانت موجودة حينذاك واستمرت حتى سنة 1958 وقد احالت في هذه الفترة 1200 مناضل إلى المحاكمة وقد بدأت سلسلة محاكماتها بمحاكمة المناضل العربي الكبير (علي الزليطني) الذي عرفته سجون الاستعمار مناضلا صلبا وعنصرا ملتزما بقضية امته العربية وقد وقف (علي الزليطني) في « محكمة التصفيات للقوى الوطنية » قائلا :

« انني آسف ان أقف في مثل هذا اليوم بعد نضال دام عشرين عاما » وعندما قال له وكيل النيابة : أنت تتآمر على المجاهدالأكبر.

أجاب عليه علي الزليطني لان وكيل النيابه كان من بين الانتهازيين « انني عرفت الحبيب بورقيبة في السجون والمعتقلات ولكنني لم أعرفه وبيده مقاليد الحكم بالبلاد . . ؟».

وإلى جانب علي الزليطني حوكم المناضلون (عبد القادر زروق) و (رضا بن عمار) و (حمادي غرسه) وكثير من المناضلين.

وقد حكمت عليهم هذه المحكمة باحكام تتراوح بين 10 سنوات والأشغال الشاقة المؤبدة.

ومن بين الشهداء الذين تمت تصفيتهم سواء كانوا قادة لفرق جيش التحرير التونسي أو مناضلين سياسيين.

1 ـ الشهيد (الطيب الزلاق) قائد منطقة سوق الأربعاء (اعدم شنقا) وقد توسّط أعضاء لجنة تحرير المغرب العربي والجامعة العربية وبعض الأصدقاء لبورقيبة وخاصة (محمد علي الطاهر) لعدم تنفيذ الحكم بالاعدام وقد حاول (محمد المصمودي) عضو المكتب السياسي عندما شرح له المحامي (محمد بن للونه) قضية الطيب الزلاق ولم يقبل بورقيبة بالعفو رغم كل الوساطات وحتى وساطة المصمودي (وبن للونه) لم يقبلها ولكنه اعدمه ظلما وعدوانا.

2 ـ الهادي قدورة

3 ـ الحبيب بالحاج

4 ـ عبد الله الشتوري

5 ـ الميزوني

6 ـ علي بن أحمد الهمامي

7 ـ سعد بن بدول بعر

8 ـ البشير قربسيعة

9 ـ الساسي بالهادف

10 ـ عبد الله بلحاج علي الغرايري

11 ـ صالح بن سالم الغرايري

12 ـ حسن شندول

13 ـ محمد قرفه

14 ـ محمد حسين برحومه

15 ـ الصادق بوعروه

16 ـ محمد الخضيري

17 ـ مبروك زغدود

18 ـ محمد بالناصر التطاويني

19 ـ أحمد الأزرق التطاويني

20 ـ الهادي الأسود الحامي شقيق الطاهر الاسود

21 ـ أحمد بن حسونة الحامي

22 ـ عبد اللّه بن عمارة البنقرداني

23 ـ علي بالشعر المرزوقي

24 ـ حسين الحاجي
25 ـ عبد الله البوعمراني
26 ـ علي بن أحمد الحويوي

ومن بين الذين حوكموا غيابيا أمثال (الحبيب اللمسي) والمناضل السياسي (حسن النوري) والملاحظ ان معظم هؤلاء الشهداء والمحكوم عليهم كانوا من بين الفلاحين الوطنيين الذين انضموا للكفاح بدافع الوطنية الأصيلة وقد انضم أغلب قادة فرق جيش التحرير التونسي إلى جيش التحرير الجزائري بعد أن وافقت فرنسا على منح تونس الاستقلال التام في نطاق التكافل مع فرنسا ومن هؤلاء.

الطاهر الغريبي
وعبد الله البوعمراني
ومحمد الغلوفي النفزاوي
وعبد السلام تامر وغيرهم كثيرون.

وأثناء هذه الغمرة من الكفاح الدامي والنضال المرير الذي ضرب فيه إخواننا عرب الجزائر أمثلة في البطولة الرائعة، التف التيار الوطني المؤمن بوحدة النضال ووحدة المصير في تونس حول إخوانهم عرب الجزائر، وشاركوهم مسؤولية النضال واندمجوا في كفاحهم اندماجا كليا إيمانا منهم بوحدة المصير المشترك. وعندما بدأت الحكومة التونسية تحاول عرقلة النضال الجزائري وتعترض سير القوافل المحملة بالأسلحة لجيش التحرير الجزائري التي كانت تدخل أرض تونس عن طريق الحدود الليبية باتجاه الجزائر حمى التيار الوطني في تونس النضال الجزائري وقد اتصل مناضلون من هذه المنطقة (الجنوب التونسي) بمندوب جيش التحرير الجزائري المناضل (علي محساس). آنذاك وقالوا له : « نحن نعلم بأن الحكومة التونسية تحاول عرقلة نضالكم ونحن على استعداد لنعلن انفصال منطقة الجنوب التونسي ونعتبرها امتدادا لأرض الجزائر »

وقد اغتيل (الحسين بوزيان) مسؤول حزب الدستور بمنطقة قفصة من طرف عناصر تنتمي لجيش التحرير التونسي بسبب تعرضه لقوافل تسليح جيش التحرير الجزائري.

وقد تحمل التيار الوطني الوحدوي في تونس كل ما ترتب عن تأييد كفاح عرب الجزائر من آلام وتضحيات وقد بلغ عدد الشهداء منهم سنة 1955 إلى سنة 1958

أكثر من خمسمائة شهيد إلى جانب ألف ومائتي سجين وقد قدمت محكمة تصفية التيار الـوطني لصالح الامبريالية والاستعمار خيرة المناضلين التونسيين من أمثال (الطاهر عميرة) رئيس نقابة المهندسين و (جابر قاسم) مهندس و (الصادق العبيدي) و (الصادق الشايب) الدكتور في القانون الدولي و (أحمد صوه) و (الشاذلي دحمان) و (أحمد الرحموني) و (فرح بالحبيب) و (فتحي الزليطني) و (عبد العزيز عمران) و (عبد الملك الورتاني) و (الهادي الورتاني) و (محمد بن أحمد الأبيض) و (عبد السـلام الـرويسي) و (موسى الـرويسي) و (عبـد العزيز العكرمي) و (حسن فرحات) و (عبدّ الرحمن بن خليفة) و (يونس درمونة) إلى جانب اعداد هائلة من منـاضلي القاعدة الشعبية من الجنود المجهولين. وكل هؤلاء كانوا من خيرة الكوادر الوطنية في تونس وقد تعرضوا للتعذيب والسجن والنفي والتجويع والاهانة.

وكانت هذه المحكمة تحاكم المتهمين فوجا وراء فوج ومازال إلى الآن كثير منهم رهن السجون إلى جانب الاغتيالات التي استهدفت المناضل الحاج (علي بن خضر) أحد الرواد الأوائل للحركة الوطنية والذي كان يمول جيش المجاهدين في منطقة الحامة ووالد المناضل التقدمي الدكتور (نور الدين بن خضر) وهو محكوم عليه حاليا بثلاثة وعشرين عاما من الأشغال الشاقة إلى جانب الكثير من المناضلين التقدميين.

هذا إلى جانب محاولات الاغتيال التي تعرض لها عدد من المناضلين وإلى جانب عدد كبير من المفقودين من مناضلي القاعدة.

« الاستقلال التام » في نطاق التكافل مع فرنسا

بعد اشتداد المقاومة المسلحة من صحراء المغرب حتى حدود ليبيا وبعد سقوط وزارة (منداس فرانس) وتولي (ادغار فور) رئاسة الوزارة صرح هذا الأخير بأنه لا يمكن للحكـومـة الفرنسية ان تفكر من قريب أو بعيد في عودة ملك المغرب محمد الخامس، وكان المرحوم محمد الخامس آنذاك يعيش في منفاه بجزيرة مدغشقر. ولكن باشتداد المقاومة المسلحة في المغرب العربي كله تراجعت حكومة (ادغار فور) وأعلنت استقلال المغرب التام في نطاق التكافل مع فرنسا.

وبعد مفاوضات مع الحكومة المغربية باشراف محمد الخامس والحكومة المغربية في (اكس ليبان) بفرنسا منحت الحكومة الفرنسية المغرب الاستقلال السياسي بموجب اعلان (اكس ليبان).

ومن المعلوم أن المرحوم الأستاذ (علال الفاسي) رئيس حزب الاستقلال قد عارض اتفاقية (اكس ليبان).

اعلان 20 مارس 1956

وبعد ان اعترفت الحكومة الفرنسية باستقلال المغرب التام بفضل ما اظهرته المقاومة وجيش التحرير المغربي من بطولة وتضحيات هائلة سافر رئيس الحزب الدسوري الجديد إلى فرنسا واقنع الحكومة الفرنسية بأن من صالح فرنسا وصالح تونس المتعاونة مع فرنسا عدم تقوية الجناح المتطرف في المغرب العربي وذلك بأن تمنح تونس الاستقلال التام في نطاق التكافل مع فرنسا أسوة بالمغرب الأقصى.

وأصبحت فرنسا مقتنعة فعلا بأنه إذا لم تمنح تونس الاستقلال التام فان التيار الثوري القومي، وتيار القاهرة وعبد الناصر سوف يتغلب على التيار التونسي الوطني المتفرنس وبذلك تخسر نفوذها الثقافي والاقتصادي في تونس وتنضم تونس إلى كتلة دول الحياد الايجابي وعدم الانحياز خاصة وان الأوروبيين بعد بروز عبد الناصر وتصديه لقيادة النضال العربي وتحطيمه لاغلال الاستعمار الأوروبي وشروعه في تعبيد طريق الوحدة العربية وإزالة العوائق التي تحول دون الالتقاء العربي على صعيد العمل السياسي المشترك مما جعل مصر تمثل الأمل العربي والمستقبل العربي المشرق وقوة الدعم والسند لجميع قوى التحرير العربي والوحدة العربية وقد بلغ التيار القومي الوحدوي أوجه المتمثل في القوى الثورية في سوريا وفي العراق والذي أثمر فيها بعد عن إعلان الوحدة العربية بين مصر وسوريا وقيام الجمهورية المتحدة سنة 1958 وقيام ثورة 14 تموز في العراق لضرب حلف بغداد الاستعماري.

وقد تعالت صيحات عديدة من الغرب منذرة من خطر القاهرة ودمشق وما تمثله من تحد للنفوذ الغربي بالمنطقة العربية كلها في الوقت الذي كانت تزداد فيه يوما بعد يوم استجابة الجماهير العربية لدعوة الوحدة العربية وانسجامها السليم معها وتحمسها لانتصاراتها المتوالية ضد قوى الاستعمار البغي والانفصال والضعف وارتفعت أصوات المعتدلين الأوروبيين محذرة من مغبة مواصلة انتهاج الأساليب الاستعمارية القديمة داعية إلى وجوب دعم انصار الغرب ودعاة الارتباط معه إلى الأبد.

وهكذا كان الفرنسيون مقتنعين بهذه الحقائق الماثلة، فمنحت حكومة (غي موليه) الفرنسية رئيس حزب الدستور الجديد بموجب بروتوكول 20 مارس سنة 1956 استقلال تونس التام في نطاق التكافل مع فرنسا.

ولم يتردد صالح بن يوسف في ارسال برقية إلى رئيس حزب الدستور الجديد يعتبر فيها وثيقة الاستقلال التام خطوة متقدمة على الاتفاقيات وثمرة من ثمرات كفاح الشعب التونسي وحذره من خطر بقاء الجيوش الفرنسية على التراب التونسي مطالبا بجلائها جلاء تاما عن كل شبر من أرض الوطن بما في ذلك قاعدة بنزرت.

وسنورد هنا نصا لتصريحات وتعليقات وبرقيات صالح بن يوسف المتعلقة ببروتوكول 20 مارس سنة 1956.

أولا : تعليق صالح بن يوسف على بروتوكول 20 مارس سنة 1956

اعترفت فرنسا رسميا يوم الثلاثاء 20 مارس 1956 بحق تونس في السيادة والاستقلال في نطاق التكافل الفرنسي التونسي بعد ان اسقطت المعارضة بقيادة الأمانة العامة للحزب الحر الدستوري التونسي اسقاطاتها نهائيا معاهدة (باردو) واتفاقية 3 يونيو سنة 1955 تلك الاتفاقيات الناتجة عن مفاوضات طبعت بطابع التهاون بمصلحة الوطن في جميع الميادين وبقدر ما نقدر هذا الحادث الجديد الهام بقدر ما نبدي التحفظات العميقة بشروط حدود هذا التكافل سيما وان اولئك الذين تسببوا في كارثة الاتفاقيات وخلق جو من التقتيل والارهاب والتعذيب في البلاد وفي فرض الأساليب الفاشية على نطاق مهول في النظام الحكمي وفي بعث الأوامر التعسفية الاستثنائية وفي خنق الحريات الأصلية للأفراد والجماعات والمؤسسات وفي تشريد القادة والمواطنين خارج الوطن وفتح أبواب السجون ليزج فيها بالمناضلين الأحرار وفي إقامة انتخابات على أساس اتفاقيات ملغاة واقعيا وقانونيا الآن، وعلى قاعدة تقصي الأغلبية الساحقة للشعب التونسي المكافح لتصبح تلك الانتخابات مجرد توزيع مناصب المجلس التأسيسي على الأنصار والتابعين، هم أنفسهم الذين سيعدون مع فرنسا رغم إرادة الشعب الحقيقية كارثة التكافل الجديد. وإني في هذا الظرف التاريخي الحاسم أدعو شعبنا العربي الأبي إلى الحذر واليقظة ومضاعفة الجهود ومواصلة الكفاح الشريف لتقويض صرح الاحتلال الأجنبي لأنه لا معنى للاستقلال مادامت جيوش العدوان الاستعماري ترابط بارض الوطن فتكون خطرا دائما يهدد في كل آن وحين مصير الشعب ومقومات السيادة ومقدرات البلاد. واني في هذه المناسبة لانحني في خشوع واجلال أمام أرواح الشهداء وضحايا تونس والجزائر ومراكش واحيي في فخر واعتزاز المجاهدين الأبرار في سائر أنحاء المغرب العربي الذين استطاعوا بتفانيهم وتضحياتهم الكاملة وتجردهم المطلق أن يعيدوا سبيل التحرير الحقيقي في وجه شعوب المغرب العربي وأن يقوموا إليها بعد بزوغ فجر النصر والعزة

والكرامة ضمن وحدة عربية سليمة وفي كنف صداقة الشعوب الديمقراطية المسالمة الحرة في عموم ارجاء العالم.

وقد أرسل صالح بين يوسف لبورقيبة برقيتين بعد أن وقع اختطاف الطائرة التي كانت تقل (بن بله) ورفاقه الأربعة لحضور الاجتماع الذي كان مقررا عقده في تونس بصحبة الزعماء الجزائريين الخمسة والمرحوم محمد الخامس ملك المغرب وهذا نص البرقيتين :

إلى السيد الحبيب بورقيبة رئيس الحكومة التونسية :

ان مصلحة الشعب العليا في هذا الظرف الحاسم تفرض قطع كل تفاوض وكل تعاون مع حكومة فرنسا مادامت لا تعترف باستقلال الجزائر ولن يعود التفاوض مع فرنسا إلا إذا شمل في وقت واحد تونس والجزائر ومراكش وكان يهدف إلى جلاء الجيوش الفرنسية وتحرير المغرب العربي تحريرا نهائيّا يضمن له حياة كريمة ويحقق له وحدته المنشودة فيكتمل كيان أمتنا العربية.

احتراماتي ؟ صالح بي يوسف

ثم تبعها صالح بن يوسف ببرقية أخرى هذا نصها

السيد الحبيب بورقيبة رئيس الحكومة التونسية

تبعا لبرقيتي التي أرسلتها لسيادتكم في الخامس والعشرين من الشهر الجاري ونظرا لتطور الحوادث ببلادنا وسائر بلاد المغرب العربي أعلن على الاشهاد إلى حكومتكم الموقرة وإلى الشعب التونسي المكافح ان الظرف التاريخي الحاسم الذي تجتازه تونسنا العزيزة ومغربنا العربي والبلاد العربية قاطبة يفرض على شعبنا ان يتكتل في وحدة جبارة لا تترك ثلمة بين جماعات المعارضة وجماعات الحكومة. لتكن تونس حكومة وشعبا قوة هائلة تستطيع بالتعاون الوثيق مع الشقيقتين الجزائر ومراكش المناضلتين التغلب على الاستعمار الفرنسي الغادر الغشوم وطرده من أراضينا، يقف شعبنا المجاهد وقفة البطولة والفداء من اعتداء فرنسا الفظيع على سيادتنا وأراضينا غير آبه بالقوانين والمواثيق الدولية التي جعلت من الاعتداء على أراضي الدول ذات السيادة جريمة تثير سخط الضمير العالمي وتفرض على مجموعة الدول الموقعة لميثاق الأمم المتحدة ان تقتص من الدولة المعتدية فتهب لمناصرة الدولة المعتدى عليها وتقضي على العدوان قضاء مبرما ويرسل شعبنا المجاهد دماءه كل يوم لصد عدوان الجيش الفرنسي وارغامه على الجلاء عن أراضينا واني لانحني في خشوع واجلال أمام ضحايانا الأبطال الذين يستشهدون ابتغاء مرضاة الله وفي سبيل عزة الوطن وكرامته.

لقد أصبحت تونس تتمتع بكيان قانوني في الميدان الدولي مما ساعد حكومتكم الموقرة بعد ان خطت خطوات موفقة للذود عن حياض الوطن على ان تخطو خطوات ايجابية في الميدان الدولي فتبادر باثارة اعتداء فرنسا على بلادنا أمام مجلس الأمن وذلك تعزيزا لكفاح الشعب في جهاده المستميت. والله نسأل أن يمدنا بروح من عنده وان ينصرنا في جهادنا المقدس لتخليص وطننا العربي الأكبر من جميع قوى البغي والشر.

صالح بن يوسف

وقد أصدر صالح بن يوسف زعيم المعارضة التونسية بيانا بتاريخ 28 / 4 / 1956 في القاهرة حلل فيه الوضع الراهن بتونس واعتراف فرنسا باستقلال تونس التام في نطاق التكافل وهذا هو نص البيان.

بيان

للاستاذ صالح بن يوسف الأمين العام للحزب الحر الدستوري التونسي عن الوضع الراهن بالبلاد التونسية.

الاعتراف باستقلال تونس نتيجة لحركة المعارضة

تحاول الحكومة التونسية الحالية اقناع المكافحين من الشعب التونسي أو المعارضين السلميين من أنصار الأمانة العامة لسياستها بأن لا مبرر اليوم لمواصلة الكفاح في الجبال، ولاظهار التردد والاحتراز إزاء حكومة الأستاذ الحبيب بورقيبة، خصوصا بعد ما تسلمت هذه الحكومة سلطات الأمن الداخلي وأصبحت تركز سيادتها الخارجيّة بإيفاد مندوب عنها للأقطار العربية حتى تكون مع هذه الأقطار صلات تعاونية في جميع الميادين، تلك هي الدعاية التي تقوم بها الحكومة التونسية الحالية صباحا مساءا لجلب حركة المعارضة بجانبها بصيغ لا تخلو من التهديد والوعيد.

ان الأمانة العامة للحزب الدستوري التونسي قد عارضت بشدة اتفاقيات 3 يونيو 1955 وانتصرت على الحكومة وعلى فرنسا حتى اضطرتها رغم دعاية واسعة النطاق أن تعترفا أمام العالم بسقوط معاهدة باردو وبوجوب تعديل أو إلغاء الاتفاقيات مع التصريح العلني بأن تونس دولة مستقلة ذات سيادة على أن يكون هذا الاستقلال داخل تكافل فرنسي تونسي تضبطه مفاوضات مقبلة بين فرنسا وتونس بالنسبة للدبلوماسية والدفاع والأمن وشؤون الاقتصاد.

فالأمانة العامة ـ وان سجلت هذا الانتصار على الخصوم فاضطرتهم إلى اقرار مبدأ الاستقلال ـ لتؤكد الاحترازات الواردة في تصريح لها نشرته الصحف العربية والأجنبية بتاريخ 23 مارس الماضي، وهذه الاحترازات لا تخلو من مشروعية، إذ قلنا فيها للشعب التونسي بأن التكافل المقصود في تصريح 20 مارس المنصرم قد يفرغ الاستقلال من معانيه اسوة بما آل إليه تصريح منديس فرانس في 31 يوليو 1954 من اتفاقيات جعلت الاستقلال الداخلي المعلن عنه عديم الأركان ولونا جديدا من ألوان الاستعمار أضفي على ما اغتصبته فرنسا طيلة خمس وسبعين سنة صفة المشروعية، حسبما صرحت بذلك حكومات فرنسا أمام البرلمان الفرنسي، أي حكومة منديس فرانس ثم حكومة ادغار فور.

طلبنا من الشعب التونسي أن يكون يقظا فيواصل كفاحه حتى يضغط على المفاوضين التونسيين الذين اعتادوا التنازل، خصوصا وان المفاوضين التونسيين هم أنفسهم الذين أبرموا اتفاقيات 3 يونيو 1955 بعد تجريد المقاومين من أسلحتهم حتى يتخلصوا من كل ضغط شعبي يجعلهم يتجنبون التنازلات المريعة، ولو أدى ذلك إلى قطع مفاوضاتهم. ففي هذه المرة أيضا حاول هؤلاء المفاوضين ـ باستعمال وسائل الترغيب والتهديد والتقتيل والاختطاف ـ التخلص أيضا من كل قوة ايجابية ومن كل معارضة سلبية ليخلو لهم الجو فيتنازلوا من جديد على شروط التكافل التي قد تكون نوعا من الالحاق اخطر من اتفاقيات 3 يونيو 1955 لأن الدولة التونسية المستقلة في نظر العالم يكون لها أهلية التعاقد كاملة، وما يتضمنه هذا التعاقد من امتيازات لفرنسا على حساب سيادة الشعب وثروته سوف تكون له الصبغة الشرعية الدائمة في نظر العالم كله وجمعية الأمم المتحدة، هذا بالاضافة إلى أن الذين هم اليوم يتصرفون في حظوظ الأمة قد احتاطوا لأنفسهم بأن كونوا مجلسا تأسيسيا في جو من الارهاب والضغط على الحريات، واقصاء كل معارض حاليا أو محتملا، جعله نسخة طبق الأصل من الحكومة نفسها، إذ جميع اعضائه من المناصرين ويظن القوم، بل يؤملون ـ ان هذا المجلس وان كانت مهمته سن دستور للبلاد دون أي صلاحية أخرى سوف يساعدهم في المفاوضات المقبلة ويصادق على اتفاقيات التكافل التي ستؤول إليها تلك المفاوضات، وهكذا تصبح الحكومة التونسية مستندة إلى تمثيل شعبي شرعي يعزز جانبها ويشاركها مسؤولية قبول أي اتفاق من نوع التكافل المقصود.

وإننا نستدل على سوء عاقبة التفاوض المقبل بما ردده المرة تلو الأخرى رئيس الحكومة الفرنسية ووزير خارجيتها بعد تصريح 20 مارس المنصرم من ان استقلال

تونس ليس معنـاه تنـازل فرنسا عن حقها في الاشراف أو المشاركة في الدبلوماسية التونسية أو في شؤون الدفاع أو في الأمن أو في الاقتصاد. كما أن فرنسا وان اعترفت باستقلال تونس لهي مصممة على التمسك بحقوق الجالية الفرنسية، حسبما ضبطتها اتفاقيات 3 يونيو 1955 هكذا يصرح باستمرار رجالات فرنسا المسؤولون في شأن الاستقـلال المعلن عنـه، فلنبحث الآن عن موقف رجـالات تونس المسؤولين إزاء تصريحـات الفـرنسيين المذكورة آنفا . . ان السيد الحبيب بورقيبة المسؤول التونسي الأول نجده في تصريحاته يتجاوب مع المسؤولين الفرنسيين إذ يقول بالحرف الواحد إلى جريدة (لاجـازيت دي لوزان) وإلى جريدة (لا بريس) التونسية المؤرخة في 11 افريل الحالي : « ان تونس ستظل مخلصة إلى فرنسا وإلى الكتلة الغربية على الدوام، وان حقوق الفرنسيين المستوطنين بتونس لن تمس بسوء إذ ان اتفاقيات يونيو 1955 ستبقى ضامنـة لتلك الحقوق ». ونحن نعلم ما هي تلك الحقوق : احتـرام كـل مـا اغتصبه الفرنسيون طيلة أكثر من سبعين سنة من أرض زراعية وحق في استغلال ثرواتنا المعدنية بشروط مجحفة، والاتفاقيات الفرنسية التونسية صرحت بل وأكدت ان هذه الحقوق لن يمسها تشريع تونسي وستبقى مستثناة منه ولو مست الحاجة إلى ذلك كوجوب تحقيق اصلاح زراعي يحدد الملكية الزراعية مثلا لمجابهة المشكلة الاجتماعية العظمى التي تتمثل اليوم بصفة مروعة في تزايد عدد السكان التونسيين من جهة وفي وجود مساحات كبرى من الأرضي الزراعية الجيدة بأيدي مزارعين فرنسيين وشركات استعمارية من جهة أخرى، هذه الأراضي لا يمكن بحال ـ حسب نصوص الاتفاقيات ـ أن ترضخ لقانون يحدد من ملكيتها توفيرا لما زاد عن ذلك لفائدة التونسيين الذين ـ وعددهم يتزايد كلّ سنة ـ لم يبق لهم إلا الانتشار في الأراضي القاحلة بالوسط وبالجنوب، ذلك مثال من أمثلة لما يعنيه الفـرنسيون والأستـاذ الحبيب بورقيبـة من تأكيد احـترام حقوق الفرنسيين وتجنيبهم كل تشريع يمس بحقوقهم، فإذا نحن انتقلنا إلى ركن هام من أركان الدولة، ألا وهو أمن البلاد الداخلي نلاحظ أنه قبيل تسلم الحكومة التونسية مصالح الأمن سبقت فرنسا باتخاذ قانون عن طريق رئيس جمهوريتها يؤكد أن مصالح الأمن المتعلقة بالحـدود الأرضية والجـوية والبحرية ستظل من مشمولات فرنسا، كما ان السياسي بالأراضي التـونسية سيبقى أيضا من مشمولات فرنسا. ولم نر من الحكومة التونسية سوى احتجاج سلبي على ذلك الاختصاص بل بتسلمها فعليا مصالح الأمن دون التعرض إلى ما كانت استثنته منها فرنسا لدليل على رضاء الحكومة التونسية بأن يكون دورها السهر على أمن البلاد محدودا كما ان الحكومة التونسية لم تنبس ببنت شفة عندما صدر من فرنسا أخيرا قانون آخر يقتضي اختصاص السلطات الفرنسية بتونس بمراقبة

الاجانب والتصرف في شؤونهم، ولا ننسى ما تعرضت إليه اتفاقيات 3 يونيو 1955 الاقتصادية والمالية من ان تجارتنا تصديرا وتوريدا وعملتنا النقدية وسياستنا الجمركية كل ذلك سيظل جزءا لا يتجزأ من الاقتصاد الفرنسي، فسنبقى دائما وابدا تحت رحمة فرنسا ولا نستطيع الاقتراض من غيرها إلا بمصادقتها، كل ذلك سجلته الاتفاقيات القديمة التي اكد الطرفان الفرنسي والتونسي الابقاء عليها فيما يتعلق بمصالح الفرنسيين. ومعلوم ان جوانب الاقتصاد المذكورة سابقا تتصل اتصالا متينا بأصحاب الأعمال والمتاجر والبنوك الفرنسية بالبلاد التونسية. وأما تأكيد الاستاذ الحبيب بورقيبة لاخلاص تونس للكتلة الغربية فاننا نعلم ما يراد منه اذا ربطناه بما كان قد أفضى به الى جريدة (التيمس) الانجليزية من ان تونس في نظره جزء لا يتجزأ من الغرب، وانها ستدخل في الحلف الاطلنطي، وانه لو خير بين هذا الحلف والانضمام الى الجامعة العربية يفضل الأولى على الثانية لايمانه بأن تونس بموجب موقعها الجغرافي لن تستطيع العيش والازدهار الا في فلك فرنسا والغرب.

لما اصبحنا موقنين بأن التكافل المقصود من المفاوضات المقبلة هو عبارة عن تركيز الاستعمار الفرنسي بصورة مقنعة بتونس، وربط بلادنا بعجلة الغرب، واقرار الجيوش الفرنسية باراضينا، نكون خائنين لرسالتنا اذا نحن اكتفينا بمجرد تصريح مبدئي باستقلال تونس، ودعونا شعبنا الى وقف القتال. ان مواصلة القتال لهي الضمان الوحيد للحيلولة دون تجديد كارثة الاتفاقيات التونسية الفرنسية في قالب جديد، قالب التكافل الفرنسي التونسي، خصوصا كما قلت سابقا هنالك تمثيل شعبي مزيف ولكنه شرعي في نظر العالم قد يؤدي - بمصادقته على التكافل الذي أصبحنا نعرف جيدا ما سيؤول إليه حسب تصريحات المسؤولين الفرنسيين والتونسيين - الى اقرار أوضاع استقلالية لا تمت بصلة الى أهداف الأمانة العامة التي تجاوبت بسرعة مع شعور الشعب التونسي ومطامحه الدائمة.

أهداف المعارضة

ان الأمانة العامة تهدف بحركتها حسب الخطاب المنهاجي الذي القيناه بجامع الزيتونة المعمور الى ان استقلال الشعب التونسي لن نرتضيه له الا اذا كان استقلالا حقيقيا ملموسا تكون الدولة التونسية فيه حرة من كل قيود تربطها بصورة من الصور أو تجعلها تابعة لفرنسا والغرب، وتحول دون دخولها في الاتجاه الغربي، بل اتجاه التحرر الكامل من سيطرة الغرب، وذلك بأن تصبح البلاد التونسية مع بقية الشمال الافريقي جزءا من الامة العربية التي تسير اليوم في طريق التحرر الحقيقي بابتعادها عن

الاحلاف الغربية تلك الاحلاف التي سوف تجرنا أو تجر علينا ويلات الحرب المهلكة. فالسياسة العربية اليوم تجعلنا مرتبطين بمجموعة الشعوب الافريقية الاسيوية، أي مجموعة « باندونج » التي أصبح لها اليوم شأن كبير في ترجيح كفة السياسة العالمية وابعاد شبح الحرب وويلاتها عن الشعوب الفتية التي تريد أن تتقدم وتزدهر في ظل السلم العالمي، إذ السلم وحده هو الذي يمكنها من التقدم في طريق الرقي الحقيقي، الا وهو الرقي الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، فاستقلال تونس لن يسمح لنا بالتمتع بمساندة هذا الجزء العظيم من العالم إذا نحن ارتبطنا من جديد بعجلة الغرب وقبلنا سيطرته كأن نسلم له بتسليمنا الى فرنسا قواعد حربيّة كقاعدة بنزرت أو نرضى بأن ترابط الجيوش الفرنسية بدعوى انها تابعة لجيوش الحلف الاطلنطي ببلادنا ومستقرة بها دون تحديد أجل قصير لجلائها عن الأراضي التونسية. ان من أهدافنا الكبرى التي تفرض مواصلة الكفاح وجوب التحصيل من فرنسا على الاعتراف بمبدأ الجلاء والالتزام بتنفيذ هذا الجلاء وتحقيقه في مدة قصيرة اذ لا استقلال وجيوش المستعمر مرابطة بالبلاد المستقلة، فالامانة العامة تدعو الشعب التونسي لمواصلة الكفاح حتى تتحقق تلك الاهداف كلها.

مساعدة الكفاح التونسي لجهاد الجزائريين وموقف حكومة بورقيبة منه

ان مواصلة كفاح الشعب التونسي ليعد مساندة ايجابية لكفاح أشقائنا الجزائريين، وهي مساندة ايجابية لا قولية. ان حكومة بورقيبة لكثيرا ما تتظاهر بمساندتها للشعب الجزائري المكافح وتسلك في الواقع سلوكا هو الى الخيانة والغدر أقرب. تجند هذه الحكومة عصابات بقيادة البعض من المقاومين التونسيين الذين شاركوا في ثورة تونس سنة 1954، .ففي الجنوب التونسي بمنطقة « الحامة » عصابة يقودها « ساسي الأسود » مهمتها مطاردة القوافل التي تحمل السلاح الى الجزائريين عبر الأراضي التونسية، وقد حجزت بالفعل هذه العصابة قافلتين اثنتين بعد معارك دامية سقط فيها عدد من المجاهدين الجزائريين الذين كانوا يرافقون تلك القوافل، وكان ذلك في شهر يناير وشهر مارس المنصرمين. وهناك عصابة أخرى يقودها المسمى « محجوب بن علي » مهمتها مطاردة اخواننا الجزائريين الذين قد يلجؤون في بعض الأحيان الى داخل الأراضي التونسية فيتصدى لهم المحجوب بن علي باذن من حكومة بورقيبة لمقاتلتهم بجانب الجيوش الفرنسية، وكذلك الأمر بجهة « قفصة » بالجنوب الغربي التونسي حيث كان المسمى « الحسين بو زيان » يدير عصابات تحرس الطرق المؤدية للجزائر وتقبض على القوافل الحاملة للسّلاح. وقد تمكن بالفعل « الحسين بو زيان » من حجز كمية هائلة من الأسلحة المعدة للجزائر بعد معركة خاضتها عصابته متعاونة مع الجيش

الفـرنسي، ولـذا كانت خاتمـة هذا الرجل الذي أصبح نائبا في المجلس التأسيسي التونسي ان قتله المقاومون.

لقد حل أخيرا بالبلاد التونسية مائتان من اخواننا الجزائريين وهم في طريقهم الى الجزائر للالتحاق باخوانهم المجاهدين فألقت عليهم السلطات الفرنسية القبض، ولم يصدر عن الحكومة التونسية الا احتجاج بينما وقفت السلطات المراكشية وقفة جد من السلطات الفرنسية لما أرادت هذه الأخيرة القاء القبض على عدد من الجزائريين قدموا من فرنسـا أيضـا للالتحاق باخوانهم في الجبال، فحمتهم حكومة جلالة السلطان وخلصتهم من قبضة الفرنسيين باعتبارهم مواطنين مسلمين ليس عليهم من السلطات الأجنبية من سبيل. وهكـذا تسلك الحكـومـة التونسية سلوكا اجراميا نحو اخواننا الجزائريين بينما السيد الحبيب بورقيبة رئيس هذه الحكومة يملأ الدنيا صراخا لنصرة الشعب الجزائري المكافح.

وأما المعارضة التي تتزعمها الامانة العامة للحزب الحر الدستوري التونسي فترى نصرة الجـزائـر في دوام الكفـاح التـونسي بجانب الكفاح الجزائري، تشتيتا للقوى الفـرنسية حتى لا تتجمـع كلها ضد المكافحين الجزائريين، وقد اضطرت الحكومة الفرنسية أمام الكفاح التونسي أن تبقي بالأراضي التونسية ما يزيد عن الخمسين ألف جندي من جيوشها لمحاربة مجاهديها بالجبال. هذا زيادة على التأثير السيكولوجي على دولة فرنسا، ذلك التأثير الذي يحط من مجهودها الحربي ما دامت تجابه جبهتين بالشمال الافريقي.

وهكـذا تقـوم الأمانة العامة بدعوتها لمواصلة الكفاح بتونس بما يؤمن به الشعب التونسي من ضرورة تحرير الجزائر لضمان استقلال تونس ومراكش، اذ التاريخ عرفنا وان احتلال تونس ثم مراكش كان نتيجة لاحتلال الجزائر، فنحن جماعة الأمانة العامة نؤمن باستقلال يكون تحررا حقيقيا من السيطرة الأجنبية في نطاق مغرب عربي محررة أجزاؤه الثلاثة تحررا كاملا يضمن دوامه.

أهداف المعارضة هي أهداف الشعب التونسي :

هذه أهدافنا وهي أهداف الشعب التونسي، ولو لم تكن كذلك لاقتنع الشعب التونسي بعد اعلان الاستقلال التام بأن لا مبرر لاستمرار الكفاح الايجابي، ولما وقف أنصـارنـا من الحكـومة الحالية موقف المحترز الأمر الذي نسمعه كل يوم يتردد على صفحات جرائد الحكومة وعن طريق اذاعتها، اذ تحاول اكتساب المؤيدين من انصارنا

بشتى الوسائل، أفظعها الاختطافات والاغتيالات المتوالية لانصار المعارضة، رغم مناداة الرئيس بورقيبة ـ في خطابه التوجيهي للمجلس التأسيسي يوم افتتاحه وفي تصريحه الأخير باسم الحكومة التونسية أمام المجلس التأسيسي أيضا ـ باحترام حرية الرأي وبالمساواة بين جميع المواطنين التونسيين بصرف النظر عن معتقداتهم وعن تباين نزعاتهم السياسية، فأين هذا مما يقترفه أنصار الحكومة وعصاباتها من جرائم يومية ضد الأرزاق والأرواح لمجرد كون أصحابها غير مؤيدين للحكومة بل أن جريدة « العمل » وهي لسان حال الحكومة التونسية الحاضرة تتوعد كل يوم الذين لم يعلنوا بعد تأييدهم للحكومة بأن مآلهم الابادة. وتضيف هذه الجريدة قائلة بأنه على الشعب أن يضم قواه لقوى الحكومة حتى يستأصل كل المعارضين بتونس، ومن ذلك المحكمة الشعبية التي أتحفت بها الحكومة الحالية الشعب التونسي كهدية له منها بعد أن تبين للحكومة نزاهة القضاة التونسيين، إذ كان موقفهم من كل المعارضين الذين يحالون عليهم من أجل فكرتهم الوطنية موقفا شريفا، فالقضاة التونسيون قد ضربوا للحكومة الجائرة أروع الأمثال في احترام حرية الرأي وتقديس الحرية الشخصية والكرامة الانسانية، ولذلك نرى الحكومة التونسية اليوم توجه تأنيبها للقضاة التونسيين من أجل نزاهة موقفهم، ثم تؤلف محكمة شعبية يعين أعضاءها المجلس التأسيسي من بين الشعب، وهذه المحكمة تصدر أحكامها على كل معارض لسياسة الحكومة دون استئناف أو تعقيب، وستكون هذه الأحكام قاسية اذ هي صادرة عن خصوم سياسيين وهم الذين سيعينهم المجلس التأسيسي الموالي للحكومة ضد خصومهم السياسيين، وهكذا لم تكتف الحكومة الحالية بتشجيع اغتيالات واختطافات المعارضين بل أرادت أن تضفي على سلوكها الاجرامي ثوب المشروعية بتنصيب حكام شعبيين وهم خصوم في آن واحد لمن يحاكمون.

لماذا تبطش حكومة بورقيبة بالمعارضة :

ان الأمانة العامة للحزب الحر الدستوري التونسي لن تسكت على هذا الأسلوب الجائر في الحكم والذي لم تشاهده حتى أظلم عصور الديكتاتورية الغاشمة.

وواجب الأمانة العامة التشهير بهذه المآسي كلها وفضح أمر هذه الحكومة التي تلجأ الى سفك الدماء . . دماء الأبرياء لتستقر في الحكم. وإذا ما فضحنا هذه الجرائم للرأي العام العربي والعالمي نكون في الحقيقة قد كشفنا القناع عن حقيقة هذه الحكومة وعن نواياها، ونكون قد أحطناها في جو من الطعن في أهليتها وفي شرعية ما سوف تتعاقد عليه مع فرنسا في شأن التكافل المقصود، اذ يكون هذا التعاقد غير مستند الى

رضاء الشعب وانما يستند الى القوة والقمع والبطش. فمقاومتنا عندئذ، بل مواصلة الكفاح ضد ذلك التعاقد المحتمل يكون مركزا على كون الشعب التونسي غلب على أمره، وحرم التعبير عن رأيه في ذلك التعاقد بالوسائل الارهابية التي ذكرناها آنفا، لأن فضح الحكومة ليس غاية في ذاته وانما هو للخدش في مشروعية الاتفاق الفرنسي التونسي المقبل اذا أسفر هذا الاتفاق عن استقلال مزيف واستعمار جديد مقنع.

وهكذا تنجلي مشروعية مواصلة الكفاح لتحطيم ذلك التعاقد وتحطيم من سوف يشرفون عليه من المسؤولين التونسيين.

وهكذا يؤول كفاحنا في نهاية الأمر الى تطهير الشعب التونسي من هذه العناصر المجرمة التي ابتلى بها، اذ في مثل هذه الظروف التي مرت بها شعوب أخرى تكون الثورة على الأوضاع الاستبدادية والاجرامية واجبا مقدسا على كل فرد من أفراد الشعب إذا كان هذا الشعب شعبا واعيا مؤمنا بالديمقراطية والشورى التي فرضها الاسلام قبل أن ينادي بها فلاسفة الغرب وأشياعهم.

القاهرة في 28/ 4/ 1956

وفي سنة 1956 قررت الحكومة المغربية والحكومة التونسية وقادة جبهة التحرير الوطني الجزائري عقد اجتماع في تونس لبحث القضايا المشتركة وخاصة القضية الجزائرية وبينما الوفد الجزائري في طريقه الى تونس من المغرب قامت السلطات الاستعمارية الفرنسية بعملية قرصنة جوية اختطفت الطائرة واعتقلت خمسة من قادة الثورة كان على رأسهم « أحمد بن بيلا » وقد كان لموقف الجماهير في تونس والمغرب الأقصى التي اعتبرت هذا العمل عدوانا جديدا من قبل الاستعماريين على سيادة الشعبين المغربي والتونسي فوقفت موقف الغاضب ونزلت المظاهرات تطالب بالجلاء وبمواصلة الكفاح الى جانب الشعب الجزائري، فما كان من صالح بن يوسف زعيم المعارضة التونسية الا انه اغتنم فرصة هذا الحدث وأرسل الى الحبيب بورقيبة برقية هذا نصها :

السيد الحبيب بورقيبة، رئيس مجلس الوزراء ـ تونس

اعتقال فرنسا لاخواننا زعماء الجزائر ليعد عملا اجراميا وغدرا يؤكد من جديد تمسكها بأساليبها الاستعمارية الغاشمة وخصوصا لأقدس المبادئ الاخلاقية وتنكّرها لأبسط حقوق الانسان وميثاق الأمم المتحدة. لقد كشفت فرنسا عن حقيقة نواياها

حتى إزاء ما اعترفت به من استقلال منقوص لتونس ومراكش، إذ أمر رئيس الحكومة الفرنسية الفعلة الشنيعة التي ارتكبتها السلطة الفرنسية العسكرية والمدنية ضد اخواننا الزعماء الجزائريين ضيوف الحكومتين المغربية والتونسية. ان تفاقم الاحتلال الأجنبي لأرض الوطن والسلوك الاجرامي المضطرد من قبل الجيش الفرنسي قد أظهروا بجلاء ضرورة انجاز الأهداف التي لم تزل تنادي بوجوب العمل لتحقيقها وهي ان استقلال تونس سيظل صوريا ما لم تستقل الجزائر وما دامت الجيوش الأجنبية لم تجل عن أراضي المغرب العربي، تلك الأهداف التي سجلتموها في ندوتكم في يوم 23 اكتوبر سنة 1956 سخرت فرنسا من احتجاج الحكومتين التونسية والمراكشية ومن سخط الضمير العالمي الحر حكومات وشعوبا على اعتقال الجزائريين غدرا، يتحتم إذن على الحكومتين التونسية والمراكشية اتخاذ اجراءات ايجابية تنقذ حياة ضحايا المكر الفرنسي وتضطر حكومة فرنسا الى اطلاق سبيلهم أما المواقف السلبية فلن تفيد شيئا. ان مصلحة المغرب العربي العليا تفرض في هذا الظرف الحاسم قطع كل تفاوض وكل تفاهم مع حكومة فرنسا ما دامت لا تعترف باستقلال الجزائر ولن يعود التفاوض مع فرنسا الا إذا شمل في وقت واحد تونس والجزائر ومراكش وكان يهدف الى جلاء الجيوش الفرنسية وتحرير المغرب العربي تحريرا نهائيا كاملا يضمن له حياة كريمة ويحقق له وحدته المنشودة ليكتمل كيان أمتنا العربية.

احتراماتي، صالح بن يوسف

تخريب وتصفية حركة الكفاح المسلح :

لقد كان لفرار صالح بن يوسف من تونس وعدم تمكينه السلطات التونسية التفاوضية من القبض عليه واستقراره بطرابلس عامل تقوية ودعم للمناضلين التونسيين وظلت المقاومة الوطنية رغم الملاحقات والمحاكمات متأججة منذ مؤتمر الحزب في صفاقس 15 نوفمبر سنة 1955 والذي قرر فصل صالح بن يوسف ولم يتمكن جناح الحزب الدستوري التفاوضي الحاكم من القضاء على حركة النضال المسلح ضد المستعمرين وأذنابهم التفاوضيين. وقد كان لاستمرار اشتعال نيران الثورة المسلحة أثره الرئيسي في مبادرة فرنسا الى التعجيل بتوقيع اتفاق 20 مارس سنة 1956. ودعا بن يوسف الى تشديد النضال المسلح ضد الجيوش الفرنسية على التراب التونسي واجلاء القواعد الفرنسية من تونس حتى تحظى تونس باستقلال حقيقي غير مقيد بما يسمى بتدابير التكافل الفرنسي التونسي وخاصة في مادتي الدفاع والعلاقات الخارجية لان ذلك يتنافى مع السيادة التونسية ويجعل مما يسمى الاستقلال التام استقلالا مزيفا في واقع الأمر.

وهكذا ألح « صالح بن يوسف » على المطالبة بجلاء الجيوش الفرنسية عن أرض الوطن بما في ذلك قاعدة بنزرت ودعا قوات الداخل الى مواصلة الكفاح المسلح الى جانب الثورة الجزائرية وفي هذه الظروف وصل الطاهر الأسود قائد جيش التحرير التونسي الى ليبيا للتشاور مع صالح بن يوسف في خطة الكفاح المستقبلية بعد اعلان 20 مارس، وعندما وصل قائد جيش التحرير كان مصابا بجرح شديد في رجله وعقد مؤتمرا في جنزور قرب مدينة طرابلس حضره قواد الداخل بتونس وعلى رأسهم قائد جيش التحرير.

وكان صالح بن يوسف وهو في طرابلس يعتمد على بعض العناصر السيئة المدسوسة عليه والمرتبطة بالنظام التونسي وقد اعلنت هذه العناصر ولاءها للمعارضة بهدف تخريبها من الداخل، بالاضافة الى عدم يقظة صالح بن يوسف وعدم فطنته لما كان يدور حوله من دسائس ومؤامرات مما كان له أثره الكبير في التعجيل بفشل حركة بن يوسف وقد كان على رأس هذه العناصر الانتهازية المدسوسة والملتصقة بصالح بن يوسف المدعو « عبد العزيز شوشان » الذي استطاع بدهائه أن يجعل صالح بن يوسف يتخذه مساعدا له. وفي مؤتمر جنزور شرح قائد جيش التحرير الطاهر الأسود صعوبة وصول الامدادات والاسلحة وان كان ما يرسل من تموين وسلاح لا يصل الى المقاتلين حتى بات المقاتلون في وضع سيء حتى انهم صاروا يقتاتون الحشائش وتركزت الاتهامات في هذا المؤتمر على شوشان وقرر صالح بن يوسف أمام هذا المؤتمر ابعاد شوشان الى الكويت حتى يكون بعيدا عن الاحداث تماما ولكنه لم يفعل ورفضت قيادة جيش التحرير رفضا باتا التعاون مع شوشان لما أثبتوه عليه من خيانات وتلاعب ولم يكن موضوع شوشان هذا هو الموضوع الرئيسي المطروح أمام المؤتمر ولكنه أتى في سياق استعراض الصعوبات التي تواجه الحركة في الداخل والقضايا التي تواجه جيش التحرير وفي النهاية بدلا من أن يتفق صالح بن يوسف والطاهر الأسود على ضوء الأحداث الجديدة وفي مقدمتها بيان 20 مارس على خطة محكمة في مواصلة النضال فانها فشلت فشلا ذريعا في الوصول الى أي اتفاق واختصم الرجلان خصاما مكتوما لكنه كان خصاما حادا وعنيفا وقد لعب « عبد العزيز شوشان » دورا هاما في افشال اللقاء بين الرجلين وذلك ان شوشان استطاع أن يقنع صالح بن يوسف بأنه لا يجوز أن يكون الطاهر الأسود قائدا عاما لجيش التحرير التونسي وطلب منه أن يعينه هو بالذات قائدا عاما ولما استفحل الخلاف بين الرجلين استطاع عبد العزيز شوشان استغلال الخلاف لعزل الطاهر الأسود عن « صالح بن يوسف » وعندئذ لجأ الطاهر الأسود بعد اضطهاده من جانب شوشان الى البحث عن وسيلة تمكنه من الاتصال بالرئيس جمال عبد الناصر.

وقد سافر الى القاهرة والتقى مع الرئيس جمال عبد الناصر وشرح له كل ظروف الخلاف وملابساته وبعد ذلك ذهب صالح بن يوسف الى القاهرة وقابل أيضا الرئيس جمال عبد الناصر ثم عاد الطاهر الأسود الى ليبيا ينتظر عودة صالح بن يوسف وتصفية الخلاف وتنفيذ وعده باقصاء شوشان ولكن ابن يوسف تأخر في القاهرة أكثر من اللازم. وبادر عبد العزيز شوشان الى نسج خيوط مؤامرة ضد الطاهر الأسود وعمل على تسليمه الى سلطات الحدود التونسية. ولما عاد صالح بن يوسف وجد ان الطاهر الأسود قد سلم نفسه للسلطات التونسية وقد استثمرت الحكومة التونسية تسليم الطاهر الأسود لنفسه فوجهت نداء الى كافة ثوار جيش التحرير في الجبال فحواه ان البلاد قد أحرزت على الاستقلال التام ولا موجب للبقاء في الجبال كما أرسلت وفودا للجبال للتفاوض معهم وأغرتهم بالعودة للحياة المدنية بمنحهم ضمانات كاملة بالعفو التام، وان الطاهر الأسود قائد جيش التحرير قد عاد للحياة العادية وأعلن نهاية الكفاح المسلح وركزت على اعلان ذلك في الصحف، وكانت الحكومة التونسية قد بيتت على الغدر فلم يمض وقت قصير على نزولهم من الجبال حتى قادت حملة من الاعتقالات في صفوفهم وزجت بهم في السجن وأحالتهم على المحكمة وأعدمت عددا منهم ومن هؤلاء القائدان « الهادي الأسود » و « حسين الحاجي ».

وكان عبد العزيز شوشان طيلة إقامته في طرابلس عامل تخريب ووشاية وتسليم المناضلين للحدود وقد تسبب في مآس لعائلات كثيرة من المواطنين وخاصة من أهل الجنوب.

وقد ارتبط بأجهزة الاستخبارات الامريكية وبقي كأحد عيون السلطة التونسية بالخارج تحت عنوان المعارضة يكشف أي تحرك من الخارج ضد السلطة التونسية وارتبط هو واخوته بأجهزة الاستخبارات الأجنبية وكانت تربطه علاقات حميمة وصفقات تجارية مع الخائن « مصطفى بن حليم » الذي أمر حين كان رئيس وزراء ليبيا سنة 1956 بطرد صالح بن يوسف من أرض ليبيا وقد تعاون عبد العزيز شوشان مع « الشلحي » و « عبد الله عابد السنوسي » واشترك معهم في الصفقات التجارية وكان محظيا لدى الأجهزة الأمريكية بطرابلس وكوّن ثروة طائلة وقد أخبرني المرحوم « احمد التليلي » الأمين العام لاتحاد العمال التونسيين بعد أن قاد معارضة ضد النظام التونسي سنة 1964 بأن عبد العزيز شوشان اتصل به وعرض ان يعمل معه ولكنه رفض وأضاف أحمد التليلي : « الا أني كلما أردت أن يصل الى علم النظام شيء قلته لعبد العزيز شوشان ».

وقد لعب هذا العميل الأمريكي أدوارا خطيرة لتصفية المعارضة الوطنية وخاصة الجنود الذين كانوا يأتون الى ليبيا مشيا على الأقدام فيردهم الى النظام.

واستمر في تخريبه باسم المعارضة الى أن جاءت ثورة الفاتح من سبتمبر في ليبيا لتدك الاستعمار دكا واعتقلته السلطات الثورية في ليبيا ورمته في السجن وقد توسط محمد المصمودي لاخراجه من السجن وعاد الى تونس ووسمه بورقيبة وسام الاستقلال وبدأ يتآمر على المصمودي نفسه الذي توسط لاخراجه من السجن وهذه العينات والنماذج التي ارتبطت بالمرحوم صالح بن يوسف هي التي أدت الى تخريب حركته.

وأمام بداية فشل الثورة المسلحة في الجبال أعلن صالح بن يوسف عن نفسه قائدا أعلى لجيش التحرير التونسي وبدأ بمحاولة الاتصال بأنصاره من جديد الا أن قسما كبيرا منهم كان قد تخلى عن النضال بالجبال.

وبتولي صالح بن يوسف قيادة جيش التحرير التونسي، تولى الخائن مصطفى بن حليم الربيب الاستعماري المعروف رئاسة الحكومة في ليبيا فكان أول عمل قام به على صعيد علاقـاته مع تونس ان أمر بطرد صالح بن يوسف من ليبيا فغادر صالح بن يوسف ليبيا واستقر بالقاهرة.

وفي « جانفي » سنة 1957 دعت الحكومة التونسية مصطفى بن حليم لتوقيع معاهدة التعاون والاخاء وحسن الجوار. ورغم ابعاد صالح بن يوسف إلى القاهرة فانه بقي على اتصال بالمعارضة داخل تونس.

محاولة التخريب داخل الثورة الجزائرية.

وبما ان قسما كبيرا من جيش التحرير التونسي والمناضلين السياسيين في المعارضة من منطقة الجنوب بقوا يتعاونون مع الثورة الجزائرية وجيش التحرير الجزائري فان الحكومة التونسية بدأت تضغط على الجانب الجزائري لكي يتخلى عن عناصر جيش التحرير التونسي أو يسلمهم للحكومة التونسية فرفض الجانب الجزائري هذا المطلب وبدأت الحكومة التونسية عندئذ تخلق للجانب الجزائري المتاعب والمشاكل.

وأتت حكـومـة تونس بعنـاصر من داخل الجزائر وأوغرت صدورهم حقدا على اخوانهم الاخرين وبدأ الاتجاه المساير للحكومة التونسية داخل الثورة الجزائرية يتهم الجانب الاخر بأنه يسير في فلك القاهرة. وبعد اختطاف طائرة بن بلا ورفاقه الأربعة سنـة 1956 استغلت الحكـومـة التونسية هذا الحادث في تصفية العناصر الرافضة

للاتجاه البورقيبي في الثورة الجزائرية معتبرة إياهم عملاء القاهرة وأداة تخريب وهدم وحدثت تصفيات رهيبة في التيار الوحدوي العربي اغتيل الشهيد « عبد الحي » و « عباس بلغرور » و « علي الشكيري » وجندت الحكومة التونسية كل امكانياتها للقضاء على التيار الوحدوي وذلك بالتعاون مع عناصر جزائرية تسير في فلك سياستها.

وبدأت عملية مطاردة الثوار الجزائريين واختطافهم بمناطق الرديف وتوزر ونفطة بمساعدة الجيش الفرنسي وعندما شعر « الطالب العربي » قائد المنطقة الصحراوية بالخطر الذي يهدده هو وجنوده قرر الالتجاء إلى ليبيا فما كان من الحكومة التونسية الا ان جندت مجموعات من المسلحين ولاحقتهم إلى منطقة رمادة قرب الحدود الليبية حيث حاصرتهم والقت القبض على « الطالب العربي » وأعدمته كما أعدمت الكثير من مساعديه وساقت جنوده وكل التونسيين المتعاونين معهم إلى السجن، واعتقد ان الكثير من اخواننا الجزائريين لازالوا يتذكرون هذه الأحداث والتصفيات. وبالرغم مما أصاب الجزائريين والتونسيين معا فان الشعب العربي في تونس وخاصة التيار الوطني الثوري استمر على ولائه للثورة الجزائرية ودعمه لها.

ولا يتسع المجال هنا للدخول في تفاصيل هذه الأحداث التي تعرضت لها الثورة الجزائرية لان هذه المهمة موكلة للمناضلين الجزائريين الذين عاشوا هذه الأحداث معنا وأصابهم ما أصابنا لا لشيء إلا للايمان بوحدة الكفاح التحريري في المغرب العربي آنذاك والذي هو ولا شك خطوة هامة جدا في سبيل الوحدة العربية الشاملة من المحيط إلى الخليج.

ويكفي ان نقول ان المعارضة اليوسفية قد تعرضت للتصفية بشكل رهيب لكن التيار الثوري الوحدوي في تونس لم ينته وبدأت تتكون تيارات مختلفة وأحزاب سرية مثل حزب البعث العربي الاشتراكي والتيار القومي العربي والتجمعات اليسارية وبقية المجموعات الديمقراطية الأخرى ومنذ سنة 1956 وكل هذه القوى الديمقراطية تقارع النظام العميل في صلابة وعناد وشجاعة ومازالت مستمرة في نضالها وقد ربطت التيارات الوطنية القومية في تونس نضالها بنضال عرب الجزائر ايمانا بوحدة النضال في المغرب العربي ضد الامبريالية والاستعمار. وقد استهدف الحزب الدستوري تصفية التيار العروبي في الثورة الجزائرية وتغليب التيار السياسي الانتهازي في الثورة نفسها واستمرت محاولات التدخل في شؤون الثورة الجزائرية قبل حزب الدستور إلى ما بعد توقيع اتفاقية « افيان » ومؤتمر طرابلس سنة 1963 اذ بعد هذا المؤتمر اجتمع رئيس

الحزب الدستوري بأعضاء الحكومة المؤقتة الجزائرية بالملعب البلدي بتونس وخطب فيهم خطابا قال فيه : « عليكم أن تقضوا على (احمد بن بيلا) و (بومدين) و (علي منجلي) و (قيادة جيش التحرير) مثل ما قضينا نحن على (صالح بن يوسف) وأنصاره » . . ولكن بالنسبة للثورة الجزائرية وجيش التحرير الجزائري ظهر ان حسابات رئيس الحزب الدستوري الجديد في تونس كانت خاطئة تماما .

الفصل السادس

الكفاح الشعبي المسلح في الجبال

النضال المسلح في الجبال

كان الجنوب التونسي معقلا للنضال المسلح ضد المستعمرين وعملائهم فجبل « عرباطة » وجبل « الشغبي » وجبل السطح وجبل السقي وخنقة أم علي وجبال بني خداش وتمـزرت. وجبل الزراوه ومطماطة وغيرها كانت كلها ملاجئ حصينة للثوار ومنطلقا لعملياتهم الفدائية ضد الجيش الفرنسي، كما كانت مسرحا لمعارك طاحنة مع اللفيف الاجنبي بكل ما يملك من وسائل الدمار من مدفعية ومصفحات وطائرات .. وليس الـوضـع الجغـرافي للجنوب التونسي وما يحتوي عليه من سلسلة الجبال الشـاهقـة الحصينـة، وتوفر وسائل الاتصال المباشر بالسكان في الريف وحده كافيا لتفسير ظاهرة اختيار الجنوب ليكون معقلا للثورة المسلحة، ذلك ان الجنوب التونسي كان ولا يزال يمثل الريف العربي خير تمثيل. ففيه تتجلى القيم العربية الخالصة من تمجيد للفروسية وحمل السلاح والشجاعة ومحاربة الضيم والطغيان. فكانت تنطلق منه شرارات العصيان والثورة ضد جور الحكومة الاستعمارية وطغيانها. ولهذا يعتبر الريف الخميرة الأولى للحركة المسلحة بالبلاد كما يعتبر زادا لا ينضب للنضال منه استمدّت الثورة المسلحة عناصرها المدربة على حمل السلاح. كما استمدت منه العون المادي والأدبي على مواصلة الكفاح وعلى عكس الشمال. حيث يسيطر المعمرون الأجانب على خير الأراضي بالريف وان الريف بالجنوب بقي عربيا خالصا. فكان الثوار ينزلون من معـاقلهم الحصينـة في الليل ويتصلون بالسكـان حيث يجدون عنـدهم الغذاء والكساء وما يحتاجون إليه من مؤن وذخيرة وادوية. ووسط هذا الجو الملائم ترعرعت حركة الكفاح المسلح ثم اخذت تقوى وتشتد عن طريق تزايد عدد المشتركين فيها حتى بلغ عدد أفرادها في سنة 1954 حوالي ستة آلاف مقاتل.

ولا شك ان الظلم والقهر وابتزاز أموال الشعب عن طريق الضرائب الثقيلة والتجنيد الاجباري لمحاربة اخواننا في المغرب وسوريا ولبنان قد كان سببا في تعاقب الانتفاضات المسلحة منذ فجر الحماية حتى الاستقلال. بل ان انتفاضات مسلحة قامت في البلاد قبل الاحتلال ضد طغيان العائلة المالكة مثل ثورة علي بن غذاهم. لكن كان لتبلور الشعور القومي نتيجة لاندماج الشعب التونسي خاصة في الريف في صلب الأحداث في الشرق العربي دور عظيم في اندلاع الكفاح المسلح في الجنوب فقد بلغت اصداء الثورة العربية اذان المواطنين فاثارت في نفوسهم عواطف وأفكارا دفينة اذ اعتبروا هذه الثورة ثورة ضد الظلم والقهر الاستعماري وتطلعا من طرف العرب إلى الغد الأفضل حيث يمسكون مصائرهم بأيديهم. وكان لحرب طرابلس التي خاضها الشعب العربي في ليبيا ضد الاستعمار الايطالي دور كبير في اذكاء روح الشعور القومي العربي بتونس حيث انعكست آثاره في معركة الجلاز ومشاركة الجنوب بالمتطوّعين مثل محمد علي الحامي وأبو بكر بن قتنش المرزوقي وعبد الله الحمروني وارسال السلاح والذخيرة والمؤن للمجاهدين. كما رفض كثير من التونسيين التجنيد في الجيش الفرنسي لمحاربة ثوار المغرب واعلنوا العصيان والثورة شعورا منهم برابطة العروبة والاسلام التي تربطهم باخوانهم ولا شك ان احداث سوريا ولبنان التي ابدى فيها الشعب العربي هناك مقاومة صعلبة للمستعمرين الفرنسيين وعلى الاخص رمي دمشق بالقنابل من قبل السلاح الجوي الفرنسي في الحرب العالمية الثانية قد كان لها صدى مدو في كامل البلاد التونسية مما عمل على تقوية روح الشعور القومي والتضامن والتحمس لمقاومة المستعمر.

وكان ايضا لاحداث العراق ومصر في عهد الاحتلال الانجليزي أثر كبير في تقوية الشعور بالتضامن العربي بالرغم من عدم اتصال أبناء تونس اتصالا مباشرا بالمستعمرين الانجليز وعدم تعرضهم لغدرهم وتآمرهم.

وقد بلغ الشعور القومي ابان الحكم الاستعماري ذروته في أحداث فلسطين التي تمخضت ويالـلاسف الشديد على استيلاء الصهاينة على خيرة الأراضي العربية في فلسطين وتكوينهم لدولة بها اطلقوا عليها اسم دولة اسرائيل.

ولم يلبث الشعب التونسي طويلا حتى ترجم عن احساسه القومي بالفعل فاندفع مئات المتطوعين عبر الحدود التونسية الليبية قاصدين أرض المعركة بفلسطين. وقليل هم الذين وصلوا في الوقت المناسب واشتركوا في القتال فعلا اذ ان الحرب لم تدم طويلا. وعند عودة هذه العناصر ساهموا مساهمة فعالة في تكوين جيش التحرير التونسي بجبال الجنوب التونسي.

الثورات الأولى بالجنوب :

قاوم الشعب التونسي المستعمرين بضراوة منذ اليوم الأول للاحتلال. وقد اصطدم رجال الريف المسلحون في منطقة جبال خمير الشمالية على الحدود التونسية الجزائرية بالجيوش الفرنسية الغازية من الجزائر وخاضوا معهم معارك دامية. وعندما زحفت القوات الفرنسية نحو مدن الكاف والقيروان وقفصة اصطدمت في طريقها بمناضلي الريف من الفلاحين الذين دفعهم ايمانهم بعروبتهم وكرههم للأجنبي عدو العروبة والوطن إلى الاستبسال في ساحة الشرف. وقد اذاقوا الفرنسيين ألوان الخوف والعذاب في هجماتهم الفجائية التي كانوا يقومون بها أثناء الليل على وحدات الجيش المتمركزة في مواقعها فيوجهون ضرباتهم بقوة وسرعة ثم ينسحبون تاركين العدو يعاني من هول المفاجأة.

وبالرغم من تخاذل الباي ووزارته وتوقيعهم لمعاهدة باردو ورفضهم لاعلان حالة الحرب على الجيوش الفرنسية الغازية متجاهلين بذلك الرأي العام التونسي وأصوات الوطنيين الأحرار. فان الشعب في الأرياف والمدن والقرى قاوم الجيوش الفرنسية بكل الوسائل التي كان يملكها.

وعند استيلاء الجيش الفرنسي على المدن بالشمال والجنوب بعد صدامات عنيفة وجد صعوبات عديدة في تركيز نفوذه وسلطته. واستمرت الصدامات بين الجيش والفلاحين من ذوي الفروسية والبأس الشديد سنوات طوالا. وقد دارت المعارك بين الطرفين في منطقة الهمامة ومنطقة بني زيد، ومنطقة الفراشيش ومنطقة المرازيق ومنطقة ورغمة ومنطقة نفزاوة.

ثورة الجنوب سنة 1915 :

منذ الاحتلال الاستعماري لتونس وبداية نفوذه جعل منطقة الجنوب خاضعة للحكم العسكري المباشر وكانت الادارة تدار في منطقة الجنوب من طرف ضباط عسكريين نظرا لأن هذه المنطقة تشكل الخطر الداهم على الاستعمار لما عرف به أبناء هذه المنطقة من روح الحمية والتعلق بالوطن ورفض الوجود الاستعماري ايديولوجيّا رفضا باتا. وقد قامت ثورات مسلحة في منطقة الجنوب وخاصّة ثورة سنة 1915 (بداية سنة 1916) والتي استمرت من سنة 1916 إلى سنة 1919 وقامت بها قبائل بني زيد بقيادة البطل الحاج سعيد بن عبد اللطيف. وقد استطاع الفلاحون في هذه الثورة أن يبيدوا فيالق كاملة من الجند الفرنسي، مما اجبر السلطات الاستعماريّة أن تقدم النّجدات واحدة اثر الأخرى. ولم تستطع اخماد هذه الثورات تماما بالرغم من لجوئها اخر الامر

إلى الاتيان بوحدات كانت مرابطة في الواجهة الكبرى بأوروبا وتشتت الثوار ولكنهم لم يتخلوا عن قضية وطنهم ولم يلبث من تبقى من هؤلاء قادرا على حمل السلاح ان انضم إلى ثورة الدغباجي .

ثورة الدغباجي :

كان الدغباجي واحدا من الأبطال القوميين الشعبيين الذين لعبوا دورا بارزا في مقاومة الاحتلال بواسطة الكفاح المسلح . كان هذا الرجل من الريف وقد شب وترعرع في منطقة الحامة ببني زيد . وعند اندلاع حرب طرابلس سافر إلى ليبيا واشترك في الحرب وقد بقي هناك حتى خمود نار الحرب . وبعد رجوعه إلى تونس نظم الكفاح المسلح مستعينا ببعض العناصر من ذوي الخبرة في الحرب سنوات عديدة بالرغم من تمكن السلطات الفرنسية من القاء القبض على الدغباجي في كمين نصبته له . وقد استطاع قسم من جيشه من الافلات ومواصلة الحرب . أما الدغباجي فقد حوكم واعدم وأصبح بطلا شعبيا يردد اسمه في الشعر الشعبي في كل أنحاء القطر .

خمســـة لاحقيـــن الجــــرة   وملـــك المـــوت يراجــــي

لحقـــوا مولـى العركـــة المـــرة   المشهـــــور « الدغباجـــــي »

ثورة بن سديره :

وحوالي سنة 1924 قامت ثورة « الهمامة » في منطقة قفصة بالجنوب بقيادة البشير بن سديره أحد الأبطال الشعبيين ضد الظلم والقهر الاستعماري المسلط على الشعب . وقد اتخذ البشير بن سديره من الجبال المحيطة بقفصة معقلا لحركته . واستطاع أن يضرب حصارا حول المدينة وان يهدد طرق المواصلات ويبث الرّعب في صفوف المستعمرين وقد لجأ الاستعمار الفرنسي إلى اسلوب الكيد للتخلص منه . فدسوا في جماعته المقاتلة خائنا عرف باسم بلقاسم الفرطاس" وسافر معه في احدى الليالي للالتقاء بفيلق من جماعته كان قد تواعد معه في مكان محدد للقيام بإحدى المهام . وفي الطريق ادعى الفرطاس التعب ورجا من رئيسه النوم ساعة أو بعض ساعة فاستجاب له قائده وعندما أحس الفرطاس بأن قائده يغط في نوم عميق استل مسدسه واقترب منه واطلق عليه الرصاص فهشم رأسه ثم اكمل مسيرته في اتجاه مدينة قفصة حيث بشر السلطات الاستعمارية بفعلته الشنيعة ـ وذات يوم كان الفرطاس جالسا باحدى المقاهي بقفصة يلعب الورق اذ قدم ابن اخت « البشير بن سديره » وكان مارا بقفصة ضمن قافلة آتية من البادية ورأى بلقاسم جالسا فأقبل عليه وقال له بغضب : تبا لك

من مستهتر. اتظن ان من يقتل الرجال غيلة يستطيع أن يمرح في السوق في ربيعة النهار مثلما تفعل ؟ ولم يرد عليه بلقاسم بكلمة بل ابتسم في سخرية. وعندئذ اخرج الرجل مسدسه من تحت عباءته واطلق عليه بضع رصاصات الواحدة تلو الأخرى بعد أن تفرق الجلوس من حوله. فسقط صريعا على الأرض وقد نال جزاء غدره وخيانته. وفي تلك اللحظة ارتفعت زغاريد النّساء بعد ان سمعن طلقات الرصاص القاتلة. فرددتها كل صخور وادي « بياش » ولم تلبث القافلة ان واصلت طريقها كأن لم يكن شيء، غير متسائلة عن مصير ذلك الرجل الذي سلم نفسه لسادة « الفرطاس » بعد ان قام بدوره الذي تمليه عليه الحمية والرجولة كما يمليه عليه الواجب الوطني ولم تنته ثورة « البشير بن سديرة » بموته بل استمرت زمنا طويلا بعده.

حركة محمد كحواش :

بعد احتلال سوريا من طرف القوات الفرنسية الاستعمارية قامت في تونس بمحاولة تجنيد العرب التونسيين لمحاربة اخوانهم عرب سوريا فرفض بعض الناس التجنيد والتحقوا بالجبال واعلنوا الثورة على المستعمر تضامنا مع اخوانهم في سوريا. ومن بين هؤلاء محمد كحواش الذي قاد هذه الحركة والاخوان عمر الحصيني والصادق الحصيني، وبمساعدة محمد الطيب العكرمي واستمر هؤلاء الرجال يقاتلون المستعمر زمنا طويلا.

وقد اتضح من المعارك الدامية التي خاضوها مدى صدق الشعور القومي عند المواطنين واستعدادهم للتضحية في سبيل امتهم. كما اتضح منه أيضا وحدة النضال ضد الاستعمار وتقدم الوعي القومي العربي بالجنوب التونسي.

ثورة المرازيق :

قام المرازيق بثورة مسلحة في سنة 1943 بقيادة القائد حامد المرزوقي وعبد الله الغول والشيخ علي بلطيف. وكان المرازيق بما عرف عنهم من أصالة عربية ووطنية وفروسية مصدر قلق دائم للسلطات الاستعمارية وفي سنة1943أي اثناء الحرب العالمية الثانية وتراجع السلطات الاستعمارية تحت زحف الألمان. غنم المرازيق كميات كبيرة من السلاح وأعلنوا الثورة على الاستعمار. ولم يلبث هؤلاء الا قليلا حتى اشتبكوا مع القوات الفرنسية بعد انسحاب الالمان وعودة القوات الفرنسية . . وأظهروا بطولات نادرة ومقاومة صلبة شديدة. وقد انتقمت القوات الفرنسية من النساء والأطفال فوضعوهم في المحتشدات. واستمرت مطاردة الثوار زمنا طويلا استشهد فيها القائد حامد المرزوقي وحوكم الشيخ علي بلطيف واعدم رميا

بالرصاص في ساحة البلدة. وحوكم الحبيب صمامة دراويل وأعدم. كما أعدم أيضا عبد الله الغول. ونجا آخرون في الجبال متسترين حتى اندلعت ثورة سنة 1952 فشاركوا فيها. وشرعت السلطات الاستعمارية في حملة اعتقالات واسعة في الجنوب شملت العديد من الوطنيين وأخص بالذكر منهم القاضي عبد الله بن حمادي ومحمد بن الأسود. والصادق بالعربي وبلقاسم محمد بن حمادي. وصالح بن الحاج سالم وأحمد زروق وعيادي بن صالح مبروك والبشير بن سالم بن روين ومن الشباب الوطني اعتقل البشير العكرمي وعبد القادر بن حفيظ بن حمادي وعبد الوهاب بن الصغير وأحمد بن محمد بن حمادي. والمكي بن حمادي. وصالح الحامدي والعيادي بن صالح مبروك وابراهيم بن روين ومحمد مرابط (دوعة) وبلقاسم بن روين وفتى بن روين والسويعي بن صفوف وعز الدين الناصفي.

وقد أحيلوا الى المحاكم العسكرية التي أصدرت ضدهم أحكاما قاسية بتهمة الانتماء لحركة الزعيم ثامر قائد الحركة الوطنية ابان الحرب العالمية الثانية. وتم نفي البعض الى منطقة الغنامي بالصحراء الجزائرية.

ثورة زرمدين الفلاحية :

والى جانب ثورة المرازيق في الجنوب قامت ثورة في زرمدين بالساحل التونسي بقيادة البطل الشعبي صالح الوحيش الزرمديني وشقيقه فرج الوحيش وبو صويقة عبد الله وغيرهم وقد قام بهذه الثورة الفلاحون أساسا في منطقة زرمدين.

وقد كان صالح الوحيش قد هرب من الجندية الفرنسية. وقام بالثورة وقد استمرت الثورة « ثورة زرمدين » أربع سنوات. لكن قد وقعت خيانة في هذه الثورة من طرف قيادة حزب الدستور الجديد الذين كان يضايقهم تماما هذه الثورة المشتعلة ضد الفرنسيين من جانب أفراد الشعب، وقد طلبت منهم قيادة الحزب في صورة نصيحة مخلصة التوجه الى فلسطين عبر ليبيا وفي نفس الوقت أوعزت للسلطة الفرنسية بذلك للقضاء عليهم. وكان أحد المحرضين النشطين ضدهم وللقضاء عليهم الهادي نويرة الأمين العام المساعد للحزب الدستوري الجديد في ذلك الوقت. وكذلك بعض القيادات المحلية للحزب الدستوري الجديد في منطقة الساحل التونسي.

واستمر الكفاح المسلح بالرغم من القضاء على ثورة المرازيق وثورة زرمدين في شكل جماعات صغيرة وبرز في شكل قوة نضالية هادفة الى تحرير البلاد في سنة 1952 بعد اغتيال الزعيم النقابي المرحوم فرحات حشاد. وقد بدأت العمليات الحربية في

جبهة قفصه بقيادة السّاسي البويجي وعمار بني وعمار القطاري والأزهر الشرايطي ، وفي منطقة بني يزيد (الحامة) بقيادة الطاهر الاسود والساسي الاسود ويانس اليزيدي ومنطقة قبلي بقيادة الشهيد بلقاسم بلزمي ومنطقة مدنين بقيادة أحمد الازرق ومصباح الجربوع . وفي منطقة صفاقس بقيادة محمد بالنيفر . وفي منطقة سليانة والكاف بقيادة هلال الفرشيشي . واستمرت هذه المقاومة في توسيع رقعة عملياتها العسكرية حتى شملت معظم المناطق الجبلية التونسية .

الثورة الكبرى بالجنوب:

تضافرت عدة عوامل على انطلاق شرارة الكفاح المسلح في الجنوب، فاغتيال الوطنيين التونسيين وفي مقدمتهم الزعيم فرحات حشاد ومن طرف عصابة « اليد الحمراء » الفرنسية جعل الوطنيين يفكرون في وسيلة للانتقام من السلطات الاستعمارية التي ظهر تواطؤها مع عصابة الاستعماريين وقد شعر المناضلون في صفوف المنظمات الوطنية بضرورة مواجهة التحدي الاستعماري المتمثل في الاغتيالات الفردية بسلاح مثله . وقد كان استعداد الوطنيين في الجنوب لممارسة الكفاح المسلح كبيرا من البداية حيث قامت الانتفاضات المسلحة الواحدة تلو الاخرى وزادهم مرور الزمن اقتناعا بان الاستعمار لا يمكن قهره واجباره على مغادرة البلاد الا بعد حرب طاحنة تشمل كافة انحاء البلاد وتكلف الاستعمار من الخسائر اكثر مما يجنيه من سلب الشعب خيرات ارضه . وقد اتضح بما لا يدع مجالا للشك ان أسلوب النضال الحزبي المتمثل في الاحتجاجات والتظاهرات لم يعد وحده كافيا لاجبار الفرنسيين على اعادة النظر في سياساتهم الاستعمارية . بل ان الاستعماريين قد ازدادوا تشددا في فرض سيطرتهم على البلاد حيث بدؤوا في ممارسة أسلوب الاغتيال المنظم، وهو أسلوب لم يسبق لهم أن مارسوه من قبل . وكان لامتلاك عدد كبير من الوطنيين لاسلحة وذخيرة حربية يرجع تاريخ الحصول عليها للحرب العالمية الثانية أثر كبير في التغلب على بعض الصعوبات الأولية التي كانت تقف حجر عثرة في طريق ابراز فكرة الكفاح المسلح من حيز التفكير الى حيز التطبيق . والواقع أن القواعد العمالية والفلاحية مجتمعة قد أدركت مدى الخطر الذي يهدد المناضلين البارزين والحركة الوطنية ككل ان هي طأطأت الرأس أمام الضغوط والتهديدات الاستعمارية ولم تواجه النار بالنار . ولكن قصر العمليات الفدائية المسلحة على مناضلي المدن وحدهم لم يكن يحمل في طياته أي ضمان لاستمرار النضال المسلح . ذلك ان الاستعماريين كانوا يستطيعون بواسطة الاغتيالات الجماعية والقتل الجماعي واعتقال العناصر الثورية والعناصر الوطنية الفعالة تطويق الثورة وان لم يستطيعوا اخماد كل صوت .

وكان ادراك القواعد لهذه الحقيقة قد دفع ببعض العناصر الى التفكير الجدي في تكوين عصابات مسلحة بالجبال تكون مهمتها مواصلة الكفاح المسلح ضد الفرنسيين وعملائهم من التونسيين انطلاقا من مراكزها الحصينة بالجبال حيث تستطيع توجيه ضربات عنيفة لقوات الاحتلال ثم تنسحب الى مكان حصين يقيها المطاردة والتطويق.

وقد بلغ اقتناع بعض عمال منجم « المضيله » بمنطقة قفصة بضرورة تكوين عصابات مسلحة بالجبال ذروته اثر اغتيال الزعيم فرحات حشاد. وكان في مقدمة هؤلاء الرجال الذين دفع بهم اقتناعهم الى حد ان شهروا سلاحهم في وجه الاحتلال عامل أمي وواحد من الذين تطوعوا في حرب فلسطين يدعى الازهر الشرايطي. وعلى اثر قيامه باغتيال خليفة بلدة « القطار » وكان عونا كبيرا من أعوان الاستعمار وعقبة كأداء في طريق تكتيل أبناء المنطقة حول الحركة الوطنية. شق طريقه في اتجاه بني زيد حيث اتصل ببعض الفلاحين وفي طليعتهم الطاهر الاسود الذي أصبح فيما بعد قائد جيش المجاهدين بتونس. وعلى اثر التحاق الطاهر الاسود بالجبال تعزز جانب الثورة مما دفع بالازهر الشرايطي الى مواصلة اتصالاته بالعناصر الوطنية المهيئة لحمل السلاح. وكان عدد الثائرين انذاك قد تكاثر على اثر إعلان عدد من الرجال الثورة والالتحاق بالجبال وفي مقدمتهم الساسي البويحي من بلدة المتلوي بمنطقة قفصة بالجنوب وبلقاسم البازمي من بلدة « بازمة » بمنطقة قبلي ومصباح الجربوع من بلدة بني خداش بالجنوب والساسي الاسود من بني زيد بمنطقة الحامة بالجنوب وعمار بني من منطقة قفصة ومحمد الغيلوفي والطاهر الغريبي بمنطقة قبلي بالجنوب وغيرهم.

وقد بادر هؤلاء باغتيال الخونة وغلاة المعمرين ونصب الكمائن لوحدات الشرطة والجندرمة.

ومن أبرز أعمالهم الأولى نصب كمين بجبال « السطح » لوحدة من الجندرمة تم فيه اطلاق النار بين الطرفين وتمكن الثوار من قتل من فيها والانسحاب سالمين.

وهاجم الثوار في منطقة قابس ومناطق أخرى من البلاد ثكنات الجندرمة والجيش. كما صوبوا نيران أسلحتهم على الدوريات الليلية المتجولة في منطقة قفصة ومناطق عديدة أخرى من البلاد.

وكانت الفترة الأولى التي تم فيها الاعلان عن تكوين جيش التحرير التونسي أي بداية سنة 1952 حافلة بنشاط المجاهدين. من نصب الكمائن واغتيال للخونة ولغلاة

المعمرين ولم يمض وقت طويل حتى أخذت القوات العسكرية الفرنسية تتدفق من القواعد الفرنسية بالخارج في طريقها الى مسرح العمليات بالجنوب. وقد بلغ عدد هذه القـوات في منـطقـة قفصة وحدها حوالي اربعين الفا. وسرعان ما شرعت القوات الفرنسية في مطاردتها للمجاهدين الذين أخذ عددهم في تزايد مطرد حتى بلغ في سنة 1954 حوالي ستة الاف رجل. وبادئ ذي بدء اعتمدت القيادة الفرنسية اعتمادا كليا على أقوال الجواسيس ولكنها فيما بعد شرعت في استعمال طائرات الاستطلاع تلك الـطائـرات التي استعملت أيضا في العمليات العسكرية لتحديد مواقع المجاهدين بالنسبـة للمدفعية الفرنسية أثناء عمليات القصف المركز. وكانت القوات الفرنسية تسعى جاهدة للقضاء على الثورة بطرق لا تكلفها خسائر كبيرة. فكانت تلجأ الى أسلوب بات معروفا في الحرب هو أسلوب المباغتة. كانت تهاجم القرى والتجمعات السكنية المجاورة للجبال في أوقات معينة من النهار آملة ان تفاجئ المجاهدين وهم يتناولون وجبة طعامهم اليومي بحيث لا تعطيهم فرصة للتمركز بالجبال واخذ مواقع حصينة بها. وكانت تسلط جام غضبها على كل من يحوم حوله أدنى شبهة في ايواء الثوار أو مد يد العون والمساعدة لهم بأية طريقة كانت.

وهناك تكتيك خاص اخر استخدمته القوات الفرنسية في صدامها مع الثوار كلما امكن لها ذلك الا وهو أسلوب الحصار. وقد شمل هذا الاسلوب القتالي في تحقيق الغرض منه وهو القضاء على الثورة ذلك ان مثل هذا التكتيك يتطلب استعمال قوات كبيرة للعدو ومعدات ضخمة كما انه يقتضي معرفة كاملة بطبيعة الجبال والسبل الموصلة اليهـا. وبـالـرغم من توفـر هذين الشرطين في بعض المعارك فان المجاهدين كانوا يستغلون معرفتهم الدقيقة بالمسالك الجبلية وظلام الليل الدامس لشق طريقهم وسط القوات المحاصرة والافلات من قبضتها مثلما حدث في معركة جبل سيدي عيش.

والحقيقة ان المجاهدين قد ابدوا في مناسبات عديدة براعة فائقة في التخلص من الاوضاع الحرجة وشجاعة نادرة في المعارك. وصبرا شديدا على تحمل المشاق. ومع ان اسلحتهم المستعملة كانت من مخلفات الحرب العالمية الثانية الا انهم استطاعوا أن يكبدوا العدو خسائر فادحة. وأن يغتنموا أسلحة وذخيرة حديثة منه. أهمها المدفع الرشاش الذي أصبح يستعمل ضد الطائرات المغيرة.

ومع ان القوات الفرنسية لم تحقق النجاح المرجو من عمليات الحصار الا انها لم تتخل عن هذا الاسلوب الحربي تماما. على انها لجأت الى أسلوب القصف الجوي باعتباره أسلوبا أكثر نجاحا وأقل تكاليفا. وقد تمكنت بواسطة ضغطها على القيادة

العسكرية والسياسية من الحصول على طائرات مقاتلة سريعة الحركة استعملت ضد الثوار في المراحل الاخيرة من الحرب. ولم يكن لدى الثوار سلاح قوي لمواجهة هذه الطائرات غير المدفع الرشاش وهو سلاح كان موجودا باعداد قليلة في ايدي الثوار لا يتجاوز أصابع اليد تم الاستيلاء عليها من الفرنسيين في الكمائن وأثناء المعارك.

وليس من السهل التكهن بما كانت ستؤول اليه الحرب لو أنها استمرت زمنا طويلا بعد شروع الجيش الفرنسي في استعمال الطائرات والمعدات الحربية المتطورة. كان في امكان الثوار تجنب الظهور في الجبال العارية من الأشجار وذلك بالزحف نحو جبال الغرب والشمال اذا ما تم التغلب على بعض الصعوبات مثل التموين والتعود على المناطق الرطبة. والحقيقة ان أهم صعوبات كانت تواجه الثوار هي صعوبة الحصول على السلاح الحديث والذخيرة والعنصر المدرب تدريبا حديثا. وقد بدأت العناصر الوطنية تضغط على القيادات السياسية لتتكيف مع الاوضاع الجديدة وفعلا بدأ الزعماء التونسيون بالخارج يسعون جادين للحصول على الأسلحة والذخيرة. وقد فتحت ثورة 23 يوليه في مصر في وجوههم آمالا واسعة عريضة في الحصول على الدعم المادي والأدبي اللازمين لمواصلة الكفاح المسلح. وقد تمكن علي الزليطني من انشاء مركز بليبيا للثورة هربت منه قوافل محملة بالسلاح والذخيرة الى الجنوب التونسي حيث تسلمها الثوار كما هربت أسلحة أخرى وذخيرة عن طريق البحر وشرع بعض الضباط التونسيين المتخرجين من المدارس الحربية بالمشرق العربي في تدريب الشباب على السلاح وتكوين فرق مقاتلة وارسالها عبر الحدود الليبية الى داخل البلاد للقتال. ويبدو ان القيادة السياسية والعسكرية الفرنسية قد أدركت اصرار التونسيين على تجاوز العقبات التي كانت تحول دون توسيع نطاق الكفاح المسلح بل وفتنمة الحرب، خاصة وان الثورة قد اندلعت ايضا في الجزائر والمغرب وأصبح في الامكان بعد استقلال ليبيا تكوين قواعد انطلاق للثوار على الحدود الليبية التونسية والحدود الليبية الجزائرية. وكانت القوات الفرنسية التي خرجت مدحورة من معركة « ديان بيان فو » مقتنعة بان الوضع في تونس لم يصل الى درجة الخطورة التي وصل اليها في فيتنام ولكن احتمال تطوره الى تلك الدرجة لم يكن مستبعدا تماما خاصة اذا ما توحد النضال بين أقطار المغرب الثلاثة.

ويبدو أن ادراك الساسة الفرنسيين لهذه الحقائق وسعيهم وراء تجزئة النضال في المغرب العربي كما اشرنا. دفع بحكومة منداس فرانس الى السعي الى تقديم مشروع اصلاحات الى رئيس الحزب الدستوري الجديد تؤول الى منح تونس الاستقلال

الداخلي بشرط أن يلتزم رئيس الحزب بتوجية نداء الى الثوار لايقاف القتال وتسليم اسلحتهم للسلطات الحاكمة بالبلاد. وقد وافق رئيس الحزب على المشروع ووجه بالفعل نداء للثوار لتسليم اسلحتهم كما ارسل عناصر قيادية للجبال لاقناع الثوار بوجهة نظره. وقد استجاب قسم من الثوار لنداء رئيس الحزب ورفض جانب هام اخر منهم تسليم اسلحتهم واصروا على متابعة النضال الى جانب اخوانهم الجزائريين والمغاربة. وفي مقدمة هؤلاء القائد الطاهر الأسود وبالفعل واصل هؤلاء الرجال كفاحهم واتصلوا بصالح بن يوسف زعيم المعارضة للاتفاقيات وتعهدوا له بمواصلة الكفاح حتى تحقيق الاستقلال التام للمغرب العربي والوحدة بين أقطاره.

وقد جند الحزب الدستوري عناصر منه لمحاربة هؤلاء جنبا الى جنب مع الجيش الفرنسي في نفس الوقت الذي كان يستغل فيه نضالهم الهادف الى تحقيق الاستقلال التام للمناورة السياسية والضغط على الحكومة الفرنسية للسير بالبلاد التونسية في طريق الاستقلال السياسي. ولولا استمرار الكفاح المسلح لتعذر تجاوز اتفاقية سنة 1954 بالسرعة التي حصلت. اذ لم يمض عامان على التوقيع عليها حتى حصلت تونس بموجب اعلان 20 مارس سنة 1956 على الاعتراف بالاستقلال التام.

لكن رئيس الحزب الدستوري الجديد قد اصر في أكثر من مناسبة على تجريد الثوار ويسميهم « بالفلاقة » من شرف دحر القوات الفرنسية وتحقيق الاستقلال للبلاد. ولا شك ان تسمية الثوار « بالفلاقة » انما يعبر عن كره شديد وعميق للثورة والثوار وهذه التسمية لها دلالتها الكبيرة في توضيح خطّه السياسي. وقد أعلن في مؤتمر صفاقس سنة 1955 بحضور عدد كبير من قدماء الثوار الذين سلموا أسلحتهم ان الدبلوماسية البورقيبية وليست حرب « الفلاقة » هي التيْ حققت الاستقلال الداخلي للبلاد لكن الحقيقة لا يمكن أن ينكرها أحد وهي ان اتفاقية سنة 1955 فتحت الباب على مصراعيه في وجه الانتهازيين الذين استغلوا نضال العمال والفلاحين لصالحهم في حين لم يجن هؤلاء غير الموت والعذاب ومزيد من الفقر والاهمال.

وهكذا استطاع الحزب الحاكم اجهاض الثورة المسلحة التي كانت تعمل على تحقيق مطالب الشعب التونسي في الاستقلال التام وجلاء القوات الفرنسية عن أرض الوطن والتي كانت تعكس الارادة الشعبية المصرة على الكفاح. كما استطاع هذا الحزب ان يسرق ثمرة كفاحها وان ينسب كل شيء لنفسه وقد استطاع الوصول الى هدفه في ضرب الثورة وافشال امتداد حركة الكفاح المسلح التي كانت أول ما ستنجزه في طريقها هو بالدرجة الاولى الشكل السياسي الحزبي المتعايش والمتعامل مع

الفرنسيين معاملة التابع الضعيف المسالم للمتبوع القوي الذي يكافيء تابعه طالما كان مؤدبا وخادما متفاهما .

وقد كان الحزبيون هؤلاء متمرسين بأسلوب المناورة وأسلوب الخداع وقد استطاعوا أن يقنعوا بعض الزعماء القياديين للحركة المسلحة بأنهم معهم ويؤيدونهم ولكن يمنعهم من اعلان ذلك الدبلوماسية . وهكذا عملوا على شق حركة الكفاح المسلح . ثم تفتيتها . ثم مطاردتها وأخيرا تطويقها بالتعاون مع الجيش الفرنسي . . وبعد ذلك تصفيتها وأخيرا استخدام اجهزتهم الاعلامية لتشويه نضالها وانكار دورها وانها كانت حركة « فلاقة » وبعد ذلك يجوز لهم أن يعلنوا بتبجح انهم حققوا الاستقلال بالدبلوماسية ، بينما الفتات الذي نالوه منحهم اياه الفرنسيون خوفا من أن يخسروا الكثير لو نجحت تماما الثورة المسلحة .

وقد كان لانعدام الفكر السياسي المتكامل والوعي الايديولوجي أثر في وقوف الثورة مبهورة أمام التحرك الحزبي التكتيكي لتصفيتها والقضاء عليها . ولو كان للثوار فكر سياسي مستنير ونظرية اقتصادية واجتماعية متكاملة لاستطاعوا الافلات من خطر التطويق الحزبي ولاستطاعوا تكتيل جماهير العمال والفلاحين حولهم ولشرعوا في نضال اجتماعي تكون غايته محاربة الانتهازيين والمستغلين واعداء التحرر الاجتماعي والاقتصادي .

ويعتبر قبول فكرة التخلي عن الكفاح المسلح أكبر خطأ وقع فيه الثوار . ذلك انهم لم يلبثوا أن وقعوا فريسة للبورجوازية الجديدة التي سرقت نضال الجماهير واستطاعت تصفية قادة الحركة بعضهم جسديا والبعض الاخر سياسيا عن طريق أسلوب الغدر والخيانة حينا والدس والمكيدة حينا آخر .

ولعل أكبر خيانة للنضال المسلح في تاريخ هذا البلد تلك التي حدثت في سنة 1954 والتي روجت لها البورجوازية الحاكمة . وقبل بعض قادة الحزب ان يكون فيها أدوات طيعة في خدمة الانهزامية والبورجوازية . والمأساة التي يعيشها شعبنا اليوم ما هي الا امتداد لتلك الورطة التكتيكية التي تردى فيها النضال الشعبي ولا زال يعاني من آثارها كما أشرنا الى ذلك في الفصل السابق . . .

الفصل السابع

لمحة عن الدور الوطني للحركة النقابية في تونس

كان النظام الاستعماري يحتقر العمال العرب في تونس ويعتبرهم بشرا اجراء من درجة رابعة فكانت السلطة الاستعمارية تدمجهم في منظماتها النقابية تبتز منهم إمكانياتهم وتخرج السلطة الاستعمارية بالربح . ثمنا للجهد . . . والكدح الذي يقوم به العمال العرب التونسيون . . وقد تعرف العمال التونسيون على الحركة النقابية بانخراطهم في الاتحادية النقابية الفرنسية بتونس وهي نوع تابع للمركز النقابي العام في باريس وكان ذلك في عام 1919 . ولم يمض وقت طويل حتى شعر العمال التونسيون بما يلحقهم في هذه الاتحادية الفرنسية من جور فبدؤوا ينسحبون منها تدريجيا .

وبدأ العمال العرب التونسيون ينظمون أنفسهم . وقد وجدوا من يقودهم في شخص الشاب المناضل الدكتور محمد علي الحامي (القابسي) الذي عاد من المانيا في مارس 1924 بعد أن انهى تخصصه في حقل الاقتصاد السياسي في جامعة برلين وقد كان محمد علي مناضلا وطنيا عربيا من الطراز الأول فكان يعمل متطوعا في حرب طرابلس ضد الغزاة الطليان ويقود سيارة الهلال الأحمر التونسي لنقل المال والمواد الغذائية والأدوية للمجاهدين الليبيين في كفاحهم ضد الطليان وبعد ذلك تعرف على القائد التركي المعروف أنور باشا الذي رافقه محمد علي من تونس الى طرابلس. وقد اختار أنور باشا فيما بعد الشاب محمد علي ليكون سائق سيارته في ميدان القتال وبعد انسحاب الجيش التركي من ليبيا غادر محمد علي طرابلس الى مصر. ثم سوريا ومنها الى اسطنبول ثم سافر الى المانيا ليعمل في أحد المعامل ويدرس وفي عام 1924 رجع الى تونس يحمل درجة الدكتوراة في (الاقتصاد السياسي) فكان من أولى الدعامات

الاساسية التي استندت عليها الحركة النقابية بتونس وما ان وصل هذا الرجل حتى شرع في تأسيس نوع من التعاونيات الاستهلاكية تحت اسم « جمعية التعاون الاقتصادي التونسي » وكانت غاية محمد علي من هذا العمل هو تكوين مشاريع وطنية وتكون في حماية الاقتصاد الوطني من خطر التجار اليهود والأجانب الذين كانوا يسيطرون على جميع النشاطات الاقتصادية في تونس. ولم يتح لمشروع التعاونيات أن يبرز للوجود لأن محمد علي انهمك في هذه الفترة بالذات في حركة الاعتصام التي بدأها العمال التونسيون في ميناء تونس في منتصف شهر اب من عام 1924 ثم انتشرت حتى عمت قسما كبيرا من العمال التونسيين ولقد كان على محمد علي هنا ان ينظم الصفوف وينبه العمال الى المزالق الاستعمارية وان يحث الشعب على مساعدة المعتصمين في محنتهم ولما انتهت حركة الاعتصام، وبعد ان نال العمال معظم مطالبهم نشط محمد علي الحامي في تنظيم الصفوف وتأسيس نقابات عمالية تسهر على مصالح العمال وترعاهم فكانت الأولى نقابة « عمال ميناء تونس » وتبعتها بعد ذلك نقابات عديدة انتشرت في معظم أنحاء القطر التونسي. وفي تشرين الأول من عام 1924 تم تكوين اتحاد عمالي اطلق عليه اسم « جامعة عموم عملة تونس » وانتخب لامانتهم العامة الدكتور محمد علي.

وتكتل عمال تونس هذه المرة وقد أصبحوا بتكتلهم قوة هائلة وقفت في صف النضال ضد المستعمر الباغي وتقدم العمال التونسيون بمطالب عديدة فتجاهلتها فرنسا وكان يومها الموعد المحدد للضربة الاولى

اذ أعلن العمال التونسيون الاضراب العام . . . واتخذوا لانفسهم مركزا رئيسيا في مدينة بنزرت ووقع صدام عنيف في بنزرت بين الفرنسيين والعمال التونسيين استشهد فيه عدد كبير من التونسيين وحصد البوليس الفرنسي برصاصه بقسوة لا نظير لها العمال التونسيين وامتدت هذه الأحداث الدامية الى جبل الخروبة وحمام الأنف وتونس العاصمة وقد تعطلت المواصلات والصناعات في جميع المرافق التي يسيطر عليها الفرنسيون وكانت هذه صدمة أذهلت المستعمر وعلمته منذ ذلك التاريخ أن أولئك الذين كان يعتبرهم رعايا اجراء أصبحوا اليوم بتكتلهم قوة عظيمة أخذت مكانها في الصف المتقدم لطرده من البلاد.

نفي وتشريد محمد علي

وتكالبت قوى الاستعمار كلها . . . فالى جانب قوة الفرنسيين المسلحة. قامت ضد العمال في تونس الحركات (الرجعية الوطنية) وكذلك (حركات المعمرين

الفرنسيين في تونس) التي كانت امتدادا للحركات الام في فرنسا وأوروبا مثل الحركات الفرنسية المتعددة التي منها (الحزب الاشتراكي الفرنسي) وجامعة النقابات الفرنسية العـامة وكذلك الاحزاب الاستعمارية اليمينية وقبضت السلطات على زعماء الحركة العمالية التونسية وعلى رأسهم محمد علي الحامي في 5 ـ فبراير ـ 1925 وقد حكمت عليهم المحاكم الفرنسية بالنفي والتشريد وكان من نصيب محمد علي أن يهاجر من البلاد محاولا اللحاق بثورة عبد الكريم الخطابي في الريف المراكشي الا انه عندما وصل الى جبل طارق اعتقل وأعيد الى ايطاليا ومن ايطاليا ذهب الى مصر فلم يجد عملا الا سائق سيارة عند أحد الباشوات وصرفه الباشا المصري من العمل عنده بسبب رفض جلب السفـير الفـرنسي في القـاهـرة لحفلة عشـاء أقـامها الباشا على شرف السفير الاستعماري . وكان من نصيب محمد علي أن يموت في منفاه في الحجاز في حادث سيارة كان يقودها بنفسه حيث قضى بقية عمره وهو يحاول بكل جهده أن يواصل النضال مع إخوانه في تونس.

الفكرة لا تموت :

كان محمد علي يعتقد أن الشعوب المغلوبة على أمرها وخاصة الشعب العربي أو شعوب افريقيا وآسيا التي تناضل ضد الاستعمار الأوروبي لنيل حريتها واستقلالها. لا تزال فاقدة العنصر الحقيقي لأنها لا تملكّ من وسائل المقاومة الا الأفكار الضبابية أما بالنسبـة للأفكـار الاجتماعية والاقتصادية فهي غير موجودة وكان يرى ان استغلال الاستعـمار الأوروبي للشعـوب المغلوبـة على أمـرها لمصادر الثّروة كالمناجم والمعامل وشركات التجارة وعن وجود الوسائل الكافية (1) عند الأوروبيين من علم وفن وروح تعصب لاستغلالها أما العرب وغيرهـم من شعوب العالم الثالث فما زالوا يسعون للحياة فرادى متخاذلين وما ظهر للناس تجمعهم واتفافهم الا في الشكاية من غاصب أرضهم واظهار الالم والتوجع من ذلك

عندما كان محمد علي يواصل دراسته في ألمانيا كان يطالع الصحافة الوطنية التونسية التي كان يتصل بها فيرى في المقالات المنشورة في هذه الصحف إحساسا وطنيا وشعورا شعبيا مليئـا بالغضب والحقد على النظام الاستعماري في تونس. فكان يتصور من خلال مطالعته لصحافة وطنه وهو في ديار الغربة ان لهجة الصحف في تونس لابد أنّ وراءها تنظيما شعبيّا فطينا على أساس علمي وعلى أسس اجتماعية واقتصادية مهما كانت درجتها في التكوين ولكن أثناء زيارته في صيف 1923 وهو لا يزال طالبا وعندما

---

1) الطاهر الحداد العمال التونسـيون وظهور الحركة النقابية بتوس سنة 1927 .

مر من تونس العاصمة في طريقه الى منطقة الجنوب التونسي « حيث يقطن آهله في بلدة الحامة في ولاية قابس » قد اجرى اتصالات بمختلف طبقات الشعب وبعض المثقفين فاستطاع من خلال وعيه وادراكه وحسه الوطني أن يدرك أن لهجة الصحافة التونسية التي كان معجبا بها وهو في برلين وكان يعتقد أن وراء هذا الحماس فكرا اقتصاديًا واجتماعيا اتضح له بعد زيارته لبلاده واتصاله بالمثقفين بها ان ما تنشره الصحف ليس الا مقالات حماسية. ليس وراءها فكر تنظيمي على أساس اقتصادي واجتماعي يضمن استمرارها وانتصارها في المعركة ضد الاستعمار والسيطرة الاحتكارية والعمل السياسي في نظر محمد علي اذا لم يكن مبنيًا على الأساس الاقتصادي والاجتماعي فانما هو كالابخرة المتصاعدة في مجرى الرياح على حد تعبيره.

احساس الدكتور محمد علي الوطني :

يقول رفيقه في الكفاح المناضل الاصلاحي الطاهر الحداد ان محمد علي كان يستاء جدا من مناظر البؤس والفاقة وكان يردد ذكر مشاهد الجوع التي رآها في منطقة الجنوب التونسي وسير قوافل سكان الريف بجوعهم ووحشة مناظرهم وهم يسيرون الى المدن القريبة منهم عساهم يجدون لقمة العيش في هذه المدن.

كثيرا ما كنا نتجول ليلا في شوارع العاصمة وخاصة في أيام الشتاء والبرد فيعترضنا النائمون تحت الجدران وحافلات الطريق وكثيرا ما يكونون أطفالا صغارا دون سن البلوغ متساندين فوق التراب تدثرهم السماء بسحبها الماطرة.

فكان محمد علي يقف طويلا وهو شاخص البصر مستجد الفكر صامت كالليل ثم يقول : « ان كبراءنا الذين هم قادة الشعب وأهل الرأي فيها لا أدري اذا كانوا يشاهدون هذه المآسي الموجعة أو أنهم الان في فرشهم الوثيرة مع زوجاتهم وأبنائهم غارقين في الأحلام وتاركين هؤلاء لحكمة الأقدار التي تقضي وحدها في هذا الأمر . . . »

دائما كان محمد علي يعطف على هذا الحديث بقوله : « ان التظاهر بالافكار القوية أمام الفرنسيين ونحن بهذه الحال يكسبهم ضدنا احقادا نامية لا نقدر على رد مفعولها. ودائما يفتح لهم تظاهرنا بذلك منافذ لاعمال الانتقام. ولو اننا نتدفع في تحضير الأعمال الاجتماعية لأمتنا واستئصال الألم الذاتي فينا والذي ورثناه عن الاجداد. ونفتح عيوننا لنرى الحياة بأجلى مظاهرها وأوسع معانيها لامكن أن نقنع كثيرا من الفرنسيين والأوروبيين بأننا نستحق أن نلقى الحياة مثلهم. إذ ندركها بدرجة مساوية لهم.

نكسب قوة عظيمة تضاف الى قوتنا وأما قوتنا غير مهيأة اليوم فليس لنا من ذلك شيء الا اذا كان الخداع والتطمين لتمضية الوقت في الفراغ » وكان يقول عن الأوروبيين انهم يتهموننا في احساسنا الوطني فاذا قلنا لهم : نريد الحرية . فهم يفهمون منا أننا نكره بقاءهم معنا ونفهم حريتنا في استقلالنا وحدنا بالطواف في شوارع وطننا . وان كان في ذلك تعطيل العمران وابقاء لكنوز الأرض في جوفها .

هم دائما يحاولون ذلك . ولكم يكون قولهم هذا نافذا ومقبولا اذا كانت تؤيده « مظاهر جمودنا واقتصارنا على التظلم منهم وابداء الكراهية لهم » .

وعندما يتحدث محمد علي عن البؤس فهو غواص سابح في بحاره . وأقوى مصدر يريك الحقيقة الرائعة الاليمة ليثيرك منها الى طلب الخلاص (1)

ولمزيد من توضيح دور محمد علي الباعث الأول للحركة العمالية في تونس نرى من المفيد أن ننشر خطابين متتالين القاهما هذا الرائد النقابي المناضل : الأول كان عندما ذهب للاتصال المباشر بالعمال في مدينة المتلوي في جنوب تونس والثاني في المؤتمر التأسيسي للحركة النقابية وحواره مع مدير الأمن الفرنسي بتونس . ومن خلال هذا نتبين الايديولوجية التي بنى عليها محمد علي الحركة العمالية في تونس واستمر على هذه الايديولوجية رفاقه من بعده الذين آمنوا بمبادئه واخلصوا الاخلاص الكلي لايديولوجيته من فرحات حشاد الى أحمد بن صالح الى أحمد التليلي الى محمود الخياري وأحمد بن حميده وصالح القلعاوي ومحمد الري .

وقد كان خطابه الأول في شهر نوفمبر 1924 وقد بدأه بقوله « يا اخواني اسمحوا لي للمرة الأخيرة أن أكلمكم ولكم بعد ذلك أن تقبلوا أو ترفضوا . وأريد أن أسألكم هل انتم مسلمون ؟ فأجابوا : نعم .

وهل تصدقون بآيات القرآن اذا تليت عليكم ؟ فقالوا من دون شك

اذن فاستمعوا الي ، قال الله تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر . . . » معناها ان الله تعالى قد جعل هذه الامة الاسلامية والعربية أحسن الامم التي ظهرت في العالم بما تحلت به من صفات مجيدة اذ هي تقوم بواجب الارشاد والتعليم في الناس بأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر ولقد استطاع المسلمون الأولون أن يكونوا حقيقة خير الناس وساستهم كما قال القرآن

عنهم. ونـاهيكم انهم هم الـوارثـون الاوحـدون في وقتهم لمدنيّات العـالم القديمة والمجددون لها. النافخون فيها روح الحياة والنمو ليسجلوا بذلك لهم فخرا خالدا في التاريخ ولكن هل يظن أحد أننا نحن أبناء أولئك الأمجاد قد ورثنا عنهم ذلك الفخر الخـالد. كلا - كلا فنحن اليوم المذلة والفقر والجهل الفتاك يصهرنا الجوع بحرارته ويذيبنا البرد بلدغاته ويكل رقابنا الجهل ويقيد أيدينا عن العمل لأنفسنا فنرتمي على اعتاب المستثمرين وهم يدركون منا عجزنا وجهلنا بطرق الحياة فيستثمرون ذلك لهم وهكذا نقضي نحن وأهلونا وأبناؤنا الصغار حياة مرة اليمة لا ذرة فيها من الرحمة وليس منـا فيها غير التوجعات والتأوهات والحمل على الأقدار التي شاءت ويجب الاذعان لمشيئتها القاسية ومع ذلك فإننا أمام هذه الحالة المبيدة لعنصرنا قد هيأنالها من اخلاقنا ما يزيدها علينا طغيانا. فبعد الألفة والمحبة والاتحاد الذي ثبت به الأجداد حتى في الحروب الهائلة أمام الأشلاء الممزقة والدماء المتدفقة والرؤوس النازلة عن أجسادها وبعد كل ذلك أصبحنا مفككي الروابط لا صلة لواحد منا بأخيه بل على العكس انقلبنا إلى شياطين أرسلت للفتك ببعضنا فلا نرى غير الخداع والوشايات السافلة والتضليل عن الحق.

اعتبروا أيها الاخوان بأنفسكم وقولوا لي : ما هي حياتكم التي تقضونها في هذا المنجم تحت اخطار السقوط والموت حرقا بالمواد الملتهبة أو ردما تحت الأدماس. ثم ما هي حياة السالم منكم بالروح غير معاش أبتر وأجر أقصر وهو يقوم بنفقة عائلة يستغرق الدين ذمته من أجلها ولا يكفيها فيقضي أيامه رقيقا لدائنين، ضعيف النفس خائر القوة ذاهلا عن وجوده دياسا من نفسه لا يبالي أن وقع في الشر أو وقع الشر فيه يتسلى باللهو الخاسر يدفع دراهمه ثمنا لشرب السموم ويرمي بها في بؤرة الميسر لتمضي الوقت ويتعزى حتى بارتكاب الآثام والجنايات.

قبل يومين كنت مع السيد المهندس. فذكر لي أنكم كسالى تفضلون خسارة ما عندكم من البطالة على العمل الذي تربحون منه جديدا تضيفونه إلى ما عندكم ها اني أراكم امامي الآن في يوم راحتكم فلا أرى غير وجوه منقبضة من البؤس وأطمار مرقعة على الأجساد التي صيرها غبار المنجم خلقا آخر وأنتم ترون بأعينكم الأوروبيين الذين يشتغلون بجواركم كيف يستقبلون أيام راحاتهم كالأعياد. فتشاهدون في غيركم الحياة التي لا أمل لكم فيها وما هي إلا ضرورة لازمة لكم لو عرفتم الطريق إليها.

حقا انكم معذورون في جهل الطريق ويا للأسف. ولكن آسف أكثر من ذلك ويستوعبني الألم من كل جهة فاستغرق في الدهشة والحيرة حين أراكم تأبون معرفة

الطريق وترفضون بشدة من يدلكم عليه وقد أدخلوا في أذهانكم انني أقصد أخذ أموالكم وأخذ أسمائكم للجندية فراج ذلك عليكم ولكن أي مال عندكم حتى يسافر الانسان من بلد لاخر ليأخذه وهل طالب المال يجده عندكم. ثم انكم جميعا تشكون قلة الأجور والاحتياج الناتج لكم من ذلك. فرأيت ان علاجكم يكون بتأسيس نقابة لكم تختارون أعضاءها من بينكم ويكون كل شأنكم بأيديكم وواجبنا أن نتعهدكم بالنصيحة والارشاد لما يخصكم لتفهموا جليا معنى اشتراككم مع سائر نقابات الوطن فبذلوا جميعا جهودا متحدة تعود نتائجها لكم فهل في هذا ما يخيفكم ؟ ثم هل تظنون انكم تشتغلون دون ان توضع اسماؤكم في سجل الشغل ؟ فما احتياجي لاخذها من أفواهكم لو جئت لهذا العمل . . .

جاء الوقت لتفهموا حقيقة واجبكم نحو الحياة لتفتح لكم الحياة ذراعيها ولكي تفهموا ذلك يلزمكم ان تحفظوا عقولكم ان يدس فيها المفسدون الآثمون الافك والزور طمعا في استغلالكم بلا رحمة. ما كنت أظن ان كلماتي الأولى في الاجتماع الأول الصادرة من أعماقي تزن عندكم وزن الافك والزور الذي يقوله أعداؤكم عني وهم يريدون به كيدكم واخفاقي فيما أحاول من أجلكم وعلى كل حال لا أريد ان اضطركم جبرا للاعتقاد بما أقول ولاؤكد لكم ذلك فها اني أبارح المكان عائدا من حيث أتيت وبعد ذلك يمكنكم أن تفكروا في الأمر لتفهموا الحقيقة التي جئتكم بها ها أنا ذاهب والسلام عليكم ».

أما خطابه الثاني فقد كان في 14 يناير 1925

وقد بدأه قائلا :

« يا اخواني أرى أني في غير حاجة أن أرحب بكم كضيوف في منزلي فإنما أنا رجل مثلكم جئت إلى هنا كما جئتم لنعرب عن إرادة واحدة ونفكر جميعا في علاج أمراضنا الاجتماعية وما نلاقي في سبيل ذلك من العقبات وحقيقة أيها الاخوان اني لا أقوى أن أعبر لكم عن النشاط والقوة اللذين يختلج بهما قلبي سرورا من خلال مشهدكم هذا الذي أسمع منه هتافا عاليا أرى فيه نفوسا أبية وعزما شابا يدفعني إلى الأمام.

بماذا أحدثكم يا اخواني وأنا لا احسن الحديث إلا عن البؤس الذي يملأ قلبي ؟ فمن منا لا يعرف البؤس وهو آخذ باعناقنا يسير هنا كالظل هو في مساكننا ظلمة وحرمان من النور والهواء وفي ملابسنا وحشة وبلى وفي مآكلنا (تعس) لا يقيم الضيم وجوه مصفرة وثياب ممزقة مغبرة وجيوب فارغة الا من دريهمات نحاس وهؤلاء هم الذين يعملون وينالون أجرا عن عملهم أما العاطلون الضائعون الذارعون الأرض نهارا أو النائمون عليها ليلا فذلك نوع آخر من البؤس الأليم.

ان كل الشعوب في العالم قد اقام فيها البؤس أجيالا وقرونا وهذه مسألة وجدت مع الانسانية ولكن قد كان ضحاياها في كل زمان هم العمال الذين يمثلون أغلبية الشعب المطلقة فان ايجار أحدهم ان احتيج إليه بأجر يكفيه وعائلته التي يزداد أفرادها ولقائه متى ارتفعت الحاجة إليه. وكلّ ذلك قد جعل حياته مغمورة بالالام في نفسه وأفراد عائلته. وقد ورثت الأجيال المتعاقبة هذه الحياة المرة بواجب الطاعة والرضى متعزية بالقضاء المحتوم الذي قدر لكل حي حظه في الحياة. قد أيد ذلك فيهم انتشار الجهل الذي يشملهم وذريتهم وما عسى ان ينتج الجهل والسذاجة غير الخضوع والذل والرضى بالموجود.

لكن تاريخ أوروبا الحديث بما فيه من انقلابات كبرى وعصيان النظامات القديمة والثورة عليها قد حقق جزءا عظيما من يقظة العمال التي تزيدها الحوادث المتوالية رسوخا ومن أعظم أسباب النجاح في أوروبا هو انتشار العلوم وتعميمها في جميع الطبقات التي كانت محرومة ومن ذلك تخرجت طائفة عظيمة مخلصة من العلماء تعمل لانقاذ سواد العمال من وهدة سقوطهم تدرسوا الأنظمة الاجتماعية وتبينوا احسنها والفوا الكتب والرسائل وأسسوا الأحزاب والجمعيّات النقابية للدفاع عن العمال وانقاذهم من البؤس وبالتدريج استطاعت هذه التأسيسات في أوروبا ان تحقق لنفسها الحياة في قوة ونمو وتأتي بأعظم النتائج التي يتسم بها عمال أوروبا بالنسبة إلى غيرهم ان بلادالشّرق عامة وشمال افريقيا خاصة مازالا بعيدين عن بلوغ هذه الدرجات وحتى عن السير بجد وعزم اليها ولا سيما وطننا هذا المحروم من كل شيء إلّا من الالام التي تصهر قلبه نيرانها.

أسس الفرنسيون وانضم اليهم عامة الأوروبيين في تونس نقابات ثم اتحادا لها أيد ربطها بجامعة العمال في فرنسا ولم يستنكف العمال التونسيون من الانخراط في نقاباتهم التي يمنع انتخاب غيرهم فيها وادى العمال التونسيون واجبهم الذي يفرضه على الجميع قانون النقابات ثم كان بعد ذلك انهم انفصلوا عن هذه النقابات أما الى اغلال أو تأسيس مستقل كما تم لعملة السكك الحديدية الذين أسسوا جمعية (الاتفاق الودادي) أثناء الحرب الكبرى.

انكم تعرفون هذه المسائل أكثر مني وقد وقفتم بأنفسكم على نصيبكم منها بما أدى الى انفصالكم وهذا ما أكده لي كل من حادثني منكم، على أي حال رأيت بعيني أن بعض عملة الرصيف بالعاصمة لم يقع الالتفاف حولهم الا بعد انتظامهم في هيئة مستقلة عن الاتحاد الفرنسي وقد كانوا في الاعوام السالفة يعتصبون ويتكسر اتحادهم فيرجعون للشغل بخيبة وفشل دون أن يجدوا لهم مرشدا أو معينا.

ان هذه الحالة تستدعي طول الفكر، فان العامل في الوطن التونسي لا حرمة له ويظهر ان مستقبله سيزداد غبنا واجحافا بانحلال الوحدة ولزوم الصمت ولاتقاء هذا الشر المسيطر أسسنا نظاما اجتماعيا نقابيا مثل الذي أسس في أوروبا للعمال هو جامعة عموم العملة التونسية.

ان مثل هذا العمل لم يرض رجال الاتحاد هنا حتى ولا رجال الجامعة الفرنسية فان م. جوي صرح بوضوح : ان هذا العمل لا ينجح أبدا وليس الا ان تنضمّوا لجامعتنا هذا القول بعينه قد صرح لنا به مدير البوليس بمكتبه في عنف وقساوة، فلم يسعنا الا الاحتجاج عليه بما قرأتم في الصحف وهنا وقد جئنا لتعرف حقيقة موقفكم نحو الجامعة التونسية فانا أسألكم جهارا أمام كمين لا شك عندي : هل أنتم متمسكون بجامعتكم عن تصميم بلا انقطاع . . نعم.

هل تستقبلون التضحية من أجل ذلك بقلوب مطمئنة راضية وعزائم صحيحة.

اذن فكل شيء بعد ذلك يهون وما علينا الا ان نسير في عملنا بأفكارنا رافعين رؤوسنا معجبين »

وعندما بدأت الحركة النقابية تسجل الانتصارات والتف العمال العرب التونسيون حولها وعندما رأت السلطات الاستعمارية الباغية هذه القوة الهائلة من العمال التونسيين تنظم صفوفها وتلتف حول باعث حركتهاالدكتور (محمد علي القابسي) ذلك البطل العصامي الذي نبتت شخصيته في الالام وتربى في خضم الصراع والكفاح بدأ الاستعمار يوجه ضرباته الى الحركة النقابية في شخص قائدها محمد علي ونورد هنا الحوار الذي دار بينه وبين مدير البوليس الاستعماري حيث بادره قائلا علمت انك بالمتلوي كنت تستعمل الدين وتقرأ لهم آياته من القرآن لتهيجهم. وهذا يدل على ان حركتكم دينية » فأجاب النقيب ان الأمر على خلاف ما تقول يا سيدي المدير فحركتنا نقابية أممية لا دخل للدّين فيها ولا أنكرك كما لا أنكر أحدايسألني اني ذكرت لهم آيات من القرآن ولكن اصغ لي يا حضرة المدير لترى قصدي ووجه عذري : ان هؤلاء الناس الذين لقيتهم في المتلوي لا يعرفون شيئا من مباديء الحياة وهم محشورون في بؤرة حيوانية يعتمرون بالآلام لا أمل لهم من الخروج منها وليس لديهم فضل سوى ان بينهم كثيرين يحفظون القرآن وكلهم مسلمون وهذا هو السبيل الوحيد هنا لفتح مسالك أذهانهم الضيقة ليسيروا منها الى نور الحياة فيدركون موقفهم اليوم وواجبهم للمستقبل وهذه طريقة أرى اني مسؤول فيها لضميري أكثر من كل أحد فأنا

اجتهد في الوصول بدعوتي إلى العمال بقدر درجاتهم وبقدر ما يمكنني لا لاثيرهم على الناس بل لاثيرهم على أنفسهم وأعمالنا مع الزمن تؤكد لكم ذلك يا حضرة المدير ».

فأجاب النقيب « انما جئنا هنا لنتفاهم في مسألة الاجتماع بقاعة العملة من التراب الفرنسي فهي مقاطعة فرنسية لا فرق بينها وبين مرسيليا لذا لا يمكن بحال ان يتسامح لكم في تأسيس جامعة عمال فيها وليس لكم الا أن تلتحقوا باتحاد النقابات الموجود من قبل.

فأجاب محمد علّي : « انما جئنا هنا لنساهم في مسألة اجتماعية بقاعة العملة وهذا ما فهمناه من م. فكالاس الكوميسار الذي جاءنا لاجتماع حومة ترنجه وعدنا به بالنيابة عنكم أما ما يخص البلاد التونسية فأنا أعلم أنها حماية لا مستعمرة وتوجد فيها حكومة تونسية على رأسها الباي وشخصيتها مكفولة بمعاهدات أممية وخاصة بين فرنسا وتونس ولا يوجد في رأينا نص يمنعنا من تأسيس جامعة العمال » فابتدره المدير بقوله : « يلزم أن تفهموا أن فرنسا هي كل شيء هنا وشاعرة بكل شيء أيضا فمن المستحيل أن تسمح بوجود مؤسسات هي في الحقيقة مناورات سياسية تتجه لمصادرة النفوذ الفرنسي وكما قلت لكم : لا يوجد هنا إلا شيء واحد هو انضمامكم إلى الاتحادية الفرنسية وأنا حاضر للتوسط بينكما في هذا الأمر متى صعب عليكما التفاهم فيه. وثقوا ان أبواب قاعة العملة تصير مفتوحة لكم على الدوام متى تم هذا الأمر ».

فأجاب محمد علي بتأثر شديد استطاع أن يستمر فيه هادئا انك تخاطبني في حل الجامعة وهي ليست ملكا من أملاكي لي الحق في التصرف فيها بل هي حق العملة مشاعة لهم وهم أصحاب التصرف فيه ولي معهم صوت لا أرفعه ضد الجامعة ما حييت وهذا ما أقوله لكم ».

أجابه المدير : « يكفيني منك السكوت فلا أطلب التصويت من جهتك وأنا التحقق ان المسألة تنجح كما قلت لك ولا أريد أن تطول هذه المسألة أكثر مما طالت وأنا أعطيكم أجلا نهائيا ثمانية أيام لتتفاهموا بينكم وإذا لم يتم الأمر بعزلها فان الحكومة تحلها بالقوة جبرا ».

وقد استطاع الاستعمار الفرنسي بهذا أن يشتت أول جامعات العمال في تونس ولكن الفكرة لم تمت بعد نفي باعثها ورائدها محمد علي ورفاقه بدأ الضعف يتسرب إلى الحركة النقابية الفتية التي أوجدوها في تونس وبقيت الحال هكذا حتى عام 1937 عندما تألفت جامعة عمالية جديدة وبدأت نشاطها وانتشرت في جميع أنحاء تونس تحت شعار كبير ظل شعار صف المناضلين الموحد : لا مكان للاستعمار والاستغلال في أرض تونس.

الضربات القاسمة :

وبدأت اضرابات العمال التونسيين في المتلوي وأم العرائس والمضيلة والجبل الأبيض والمتلين حتى عم الاضراب جميع أنحاء تونس واستنجدت شركة مناجم الفوسفات المستعمرة بالجيش الفرنسي فاحتل المناجم وهاجم العمال في دورهم واستشهد في هذه المعارك الكثيرون وعلى إثر هذا قام الشعب كله قومة رجل معلنا الاضراب الشامل تأييدا لأبنائه العمال وبدأ الشعب يجمع الاعانات والاسعافات لارسالها للعمال الجرحى .

وفي عام 1938 تكالبت قوى المستعمرين مرة أخرى فنفت وشردت أغلب أعضاء الجامعة النقابية الثانية وخاصة أحد قادتها المرحوم حسن النوري الذي مات من عذاب السجون في الجزائر حيث اعتقل في تونس وقضى سجنه في الجزائر .

بعث الحركة النقابية على يد الشهيد فرحات حشاد :

الحركة النقابية . . . حركة مستمرة . . . وفكرة لا تموت « ابدا الى الامام وكان هذا هو شعار الشهيد فرحات حشاد ».

وفي عام 1944 بدأت الحركة النقابية تتخذ شكلا قوميا واضحا وقد كان الشهيد فرحات حشاد هو محرك هذه الحركة بعد ان تبين له ان منظمة (الجامعة العامة للعمل الفرنسية) لم توف العمال العرب في تونس حقهم . في ذلك الوقت بدأ الشهيد فرحات حشاد في إخراج فكرته الى حيز الوجود في مدينة صفاقس عاصمة الجنوب التونسي .

وقد احس بالحركة النقابية يجب أن تكون اجتماعية قومية أمّا أن تظل فرعا لمنظمة فرنسية فذلك مدعاة لخمولها إذ كيف يمكن العامل أن يثق بمنظمة لا تربطه بها رابطة إلا رابطة الاستعمار والاستغلال وهكذا بدأ الشهيد حشاد في إنشاء نقابات مستقلة واضعا نصب عينيه ان مشكلة العامل العربي في شمال إفريقيا تختلف عن مشاكل غيره من العمال لأنه مستعمر فعليه إذن أن يناضل حتى يحرر نفسه ويحرر بلاده .

وانتقل الشهيد حشاد بعد ذلك من صفاقس إلى تونس فوجد فكرته منتشرة هناك . وهكذا استطاع أن يكون في تونس اتحاد النقابات المستقلة في الشمال إلى جانب جامعة عموم عملة تونس التي بقيت بعد نفي محمد علي ورفاقه .

كانت الخطوة التي تلت هذه الحركة هي جمع هذه النقابات المستقلة في الشمال والجنوب في منظمة واحدة هي « الاتحاد العام التونسي للشغل » وقد تم ذلك في عام

1946 بعـد دعوة المؤتمر في قاعة الخلدونية بتونس حضره جميع قادة النقابات وبعد انتهـاء المؤتمر انتخب الشهيد حشاد أمينا عاما « للمنظمة النقابية الكبرى » « الاتحاد العام التونسي للشغل » وقد آمن الشهيد فرحات حشاد بأن الحركة العمالية في تونس يجب أن تكون حركة قومية سياسية وكان ايمانه هذا قائما على أبسط قواعد المنطق العقلي السليم إذ كيف يتم للحركة النقابية في تونس نيل حقوقها المتعلقة بالمسائل الاقتصادية والاجتماعية بينما تهدف سياسة الاستعمار هناك إلى تحطيم كل تحسين وكل تقدم يزيد من وعي الشعب.

فالسياسـة الاقتصـادية تقـوم على أسـاس احتكار فريق معين من الاستعماريين الأجانب لجميع ثروات البلاد القومية والسّياسة التربوية تهدف إلى الأمية وبالتالي إلى خفض مستـوى المعيشـة، كل هذا حتى يسهـل استغـلال الشعب التـونسي. أما السياسـات الادارية والاجتـماعية وغيرها فهدفها لا يختلف عن هدف مثيلاتها . . الاستعـمارية . . وعـلى هذا الأسـاس رأت الحـركـة النقابية في تونس بان المشاكل الاجتماعية والاقتصادية لا يمكن ان توجد حلولها في الميادين الاجتماعية والاقتصادية فحسب وانما هي مرتبطة بالنظام السياسي أشد ارتباط، إذن هدف الحركة النقابية في تونس هو هدف وطني يرمي إلى مقاومة الاستعمار حتى يتم تحرير البلاد وعندها يصبح النضال من أجل التغيير الاجتماعي أمرا مثمرا وإيجابيا.

والعامل في تونس في العهد الاستعماري كان يحمل أعباء مسؤوليتين جسيمتين إزاء هذا الواقع.

1 ـ النضال من أجل التحرير الوطني
2 ـ النضال من أجل التحرر الاجتماعي.

وقـد رأى الشهيد فرحـات حشـاد ان الوسيلة الوحيدة الكفيلة ببلوغ الأهداف الوطنية هي العمل المنظم المدروس.

ومن أقـوالـه في هذا الصدد: « انه علينا ان نتعود الاستقلال في تسيير المنظمة الشعبية وخاصة النقابية منها ».

ولم يتـوقف عمـل الاتحـاد على التنـظيم فقط بل تعـداه إلى نشر الروح الوطنية الصحيحة في نفوس العمال وتعليمهـم أسس الحياة الاجتماعية المتحررة من كل استعباد استعماريا كان أو اقطاعيا أو برجوازيا لذلك ان الوعي الكامل للمبادئ الوطنية قد

حطم جميع المحاولات التي قامت بها النقابات الأجنبية والاستعمارية للتغلغل في صفوف العمال التونسيين واستغلالهم لغير الأهداف الوطنية وقد برهن الاتحاد العام التونسي للشغل انه كان دائما في طليعة الكفاح الوطني.

صفات الحركة النقابية في تونس :

اتصفت منظمة الاتحاد العام التونسي للشغل بالصفات التالية :

أولا : التنظيم الدقيق المحكم الذي عمل على ايجاد وحدة فولاذية بين جميع هيئات هذه المنظمة ضمنت دائما تنفيذ الخطط بدقة متناهية.

ثانيا : المستوى الفكري المرتفع لقادة هذه المنظمة الوطنية،كانوا يتمتعون بمستوى فكري من الناحية السياسية قلما يوجد مثيله في أي جزء آخر من أجزاء الوطن العربي، فمفهومهم الوطني للحركة النقابية متبلور تماما وكذلك بالنسبة للاستعمار ووسائل التخلص منه.

ثالثا : الثورية المتناهية وهي الصفة التي كانت تتمتع بها الحركة النقابية على عهد المرحوم حشاد وكذلك في عهد أحمد بن صالح هي المحور الأول لهذه الحركة « لا ركود ولا خمول في المجتمع ما دام المستعمر موجودا » هذا هو شعار كل عضو من الحركة.

رابعا : العمل الواقعي المدروس البعيد عن كل عاطفة وجميع الأعمال التي قامت بها منظمة الاتحاد تدل دلالة واضحة على أهمية هذه الصفة من ناحية قطعها الطريق على مستغل آثم يحاول استغلال الحركة النقابية. ان تنظيم الحركة النقابية في تونس كان قائما على أساس ثوري هرمي وهو كما يلي :

أولا : المؤتمر الوطني وهو أعلى هيئة في هذه المنظمة ويتألف من ممثلي جميع النقابات ويجتمع في سنتين ليحاسب الهيئة الادارية عن إدارتها للاتحاد مدة السنتين الماضيتين وهذا المؤتمر هو الذي ينتخب تلك الهيئة ويخطط حركة العمل والكفاح.

ثانيا : أما الهيئة الثانية في المنظمة فهي المجلس القومي ويجتمع هذا المجلس مرة كل ستة أشهر بشكل مؤتمر وطني من ممثلي الاتحادات الجهويّة والمحلية والجامعات القومية. وتقدم الهيئة الادارية لهذا المجلس القومي تقارير عن نشاط سير الاتحادات ككل. ولهذا المجلس الحق في املاء آرائه على الهيئة الادارية. شرط أن تكون هذه الاراء ضمن الخطوط التي رسمها المؤتمر الوطني.

ثالثا : والمكتب التنفيذي يتكون من 11 عضوا تنتخبهم الهيئة الادارية من بين أعضائها وعملها تنفيذ قرارات الهيئة الادارية والقيام بجميع الأعمال الادارية اليومية للاتحاد وتنظيم جميع حركات الكفاح العمالي.

رابعا : والهيئتان الرئيسيتان اللتان تليان المكتب التنفيذي هما الاتحادات الجهوية والجامعات القومية التي تفرع منها عشرات النقابات والاتحادات المحلية والجامعات الداخلية المرتبطة جميعها بالمكتب التنفيذي الرئيسي.

نظام الاتحاد العام التونسي للشغل :

ويقسم الاتحاد تنظيمه إلى سبعه أقسام هي :

أ ـ العضوية

ب ـ النقابات

جـ ـ الجامعات

د ـ الهيئة الادارية

هـ ـ المكتب التنفيذي

و ـ الأمين العام

ز ـ المؤتمر.

العضوية

يعتبر الاتحاد العام التونسي للشغل كل عامل تونسي مناضلا في معركة الحرية والاستقلال.

واجبه ان يخوض المعركة إلى جانب اخوانه الآخرين وألّا يقصر في بذل أي جهد في سبيل دفع الحركة الشعبية في طرق النصر.

كل عامل تونسي في نظر الاتحاد مسؤول وعليه واجباته تجاه شعبه ولذلك يستطيع كل عامل يرتزق بعمله ويعيش بكد يمينه أو يعمل بفكره أن ينضم إلى الاتحاد وأن يصبح عضوا عاملا فيه، كعامل الميناء وعامل المصنع وعامل سكة الحديد والموظف الصغير والكبير وفراش المدرسة واستاذ الكلية كل هؤلاء وغيرهم يحق لهم الانخراط في صفوف الاتحاد.

وكنت تجدهم يعملون جنبا إلى جنب جميعهم يكدحون ويكدون في سبيل النصر جميعهم مكتب واحد ينضب قوة وإيمانا بقضية الملايين من أبناء أمتنا ».

النقابات :

والنقابات في الاتحاد العام التونسي للشغل تضم العمال ذوي العمل الواحد والحرفة الواحدة، الذين يعيشون في مدينة واحدة أو في قرية واحدة. ولكل نقابة هيئة ينتخبها الأعضاء تتولى إدارة شؤون النقابة. وتكون الصلة بين أعضائها وبين المرتبات الأخرى في الاتحاد العام. وتجد للاتحاد في جميع المدن التونسية مئات النقابات كنقابة عمال الميناء بتونس ونقابة عمال شركة الترام، ونقابة عمال المقاهي والمطاعم ونقابة المدرسين . . . الخ . . وتعتبر النقابة في الاتحاد العام التونسي للشغل بمثابة أصغر خلية في تنظيم الاتحاد. وهيئات النقابة المشرفة كما ذكرت هي التي تشكل الرباط الذي بواسطته تتصل مرتبة النقابات بالمراتب التي فوقها.

الجامعات

وسميت كذلك لأنها تجمع النقابات الصغيرة وتشرف على أمورها وتسير شؤونها. وهي مكونة من ممثلي النقابات الذين ينتخبهم أعضاء النقابات كما ذكرنا سابقا.

والجامعات نوعان :

النوع الأول وهي الجامعة العامة للموظفين وهي أكبر جامعة وتضم هذه الجامعة جميع الجامعات الفرعية والتي يعمل منتسبوها بالقطاع.

1 ـ جامعة التعليم والتي تضم جميع نقابات المعلمين والأساتذة.

2 ـ جامعة الصحة وهي تضم النقابات التابعة لقطاع الصحة

3 ـ جامعة الأشغال العامة وتضم عمال وموظفي وزارة الأشغال العامة

4 ـ جامعة المالية وتضم النقابات التابعة لقطاع المالية.

5 ـ جامعة البريد وتضم نقابات البريديين.

وكل هذه الجامعات تشكل جامعة عالية تسمى الجامعة العامة للموظفين وهي أكبر هيئة تأتي بعد الاتحاد العام (1)

الاتحادات الجهويّة :

كل اتحاد جهويّ يسهر على الحياة النقابية وعلى التنظيم النقابي في جهته وعدد هذا النوع من الاتحادات التابعة للاتحاد العام هو 15 اتحادا وهي اتحادات مدينة تونس. بنزرت، قابس، سوسة، صفاقس، الكاف، باجة، سوق الاربعاء، زغوان، نابل، القيروان، قبلي، مدنين، قفصة، توزر الجريد، ويطلق على بعض اتحادات المناطق الاتحاد المحلي.

---

1) كان المناضل محمود الخياري رئيسا لهذه الجامعة وقد لعب الخياري دورا بارزا على صعيد الكفاح العمالي والوطني ضد الاستعمار.

الهيئة الادارية

وهي الهيئة التي تشرف على جميع أعمال الاتحاد وتنتخب من جميع الجامعات العمالية والاتحادات الجهوية.

المكتب التنفيذي

هو الذي ينفذ مقررات الهيئة الادارية، وأعضاؤه هم أعضاء في الهيئة الادارية والأمين العام هو الذي ينسق أعمال الاتحاد العامة.

المؤتمر

أما المؤتمر فهو الهيئة المهيمنة على الاتحاد، المقررة لاتجاهاته العامة الواضعة لنظامه الداخلي. وهو يتكون من أعضاء ينوبون عنه مباشرة بعد أن يتم انتخابهم في نطاق النقابات. والمؤتمر هو الذي ينتخب الهيئة الادارية.

التنظيم والتوعية

كان الاتحاد العام التونسي للشغل يقوم بعمل داخلي على صعيد التنظيم والتوعية والتثقيف والهدف بالدرجة الأولى هو خلق القيادات النقابية وتكوينهم تكوينا قوميا.

فالحركة النقابية في تونس كانت في نضالها وماضيها المجيد على صعيد الكفاح الوطني والقومي تؤمن بأن العامل وان كان يحتاج كنقابي أن يكون على دراية بحقوقه المادية والأساليب الكفيلة بنجاح مساعيه يحتاج كذلك إلى معرفة النظام الاجتماعي العادل الذي يكافح من أجل تحقيقه في البلاد ثم هو يحتاج باعتباره مواطنا أن يشارك سائر مواطنيه في تفهم سائر المشاكل القومية وما تقتضي من حلول.

ولهذا نرى ان الحركة النقابية في تونس تعمل على تكوين العمال نقابيا وقوميا. وهذا يتم بسلسلة من الدروس النقابية تلقى دوريا على العناصر الواعية من العمال وتشمل الدروس صنفين من المواضيع.

1 ـ الدروس العامة: التي تشمل مواضيع واسعة النطاق كالجغرافيا الاقتصادية والاجتماعية لشمال إفريقيا ومشكلة تزايد السكان، ومشكلة الأجور والأسعار وكل ما يتعلق بالكفاح العمالي.

2 ـ دروس في مواضيع نقابية تعالج النقابية بحد ذاتها وطرق الكفاح والتنظيم وكلّ ما يتفرع عنها. وبفضل هذه التّوعية والتوجيه تصبح شخصية المكافح النقابي متحررة من كل عوامل الضغط والاكراه وتتقوى بالوعي واليقظة المستمرة.

3 ـ مجال شعبي يرتبط بسياسة المنظمة اشد الارتباط فالحركة النقابية في تونس اخـذت على نفسها امر توعية الشعب قوميا. ولهذا نرى ان المنظمة النقابية والاتحاد العام التونسي للشغل قد طالبت عدة مرات بجعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية في البلاد ثم تعريب التعليم والثقافة وتحريره بشكل يضمن ايجاد الوعي الوطني في البلاد.

4 ـ مجال الكفاح الوطني وهذا يتعلق بتضامن الحركة النقابية مع الحركات الوطنية في سبيل التحرر والوحدة. وهذا يتم بالمشاركة في مؤتمرات الشباب والطلبة ثم بتحضير استعراضات واحتفالات وطنية تثير النزعات الثورية التحررية في نفوس أبناء الشعب.

5 ـ مجال وطني عام، فالحـركة النقابية في تونس تعتقد اعتقادا جازما بأن حركة التحرير والاستقلال لن يكتب لها النجاح إذا ما بقيت التجزئة في المغرب العربي وفي رأي الحركة النقابية في تونس أيام فرحات حشاد وأحمد بن صالح ان هذه الوحدة تتم عمليا من خلال نضال الشعب فالعمال في الجزائر والمغرب يجب أن يتحدوا مع العمال في تونس ويكـونـوا نقـابة واحدة تستطيع ان تواجه المستعمر وتكيل له الضربة تلو الأخرى وقد كانت في الاتحاد العام التونسي للشغل لجنة خاصة تعمل وتسعى جاهدة لتحقيق أماني العمال في الوحدة المغربية التي كانت أحد أماني فرحات حشاد ومحمد علي الحامي وهي تكوين اتحاد عام عمالي يجمع شمل العمال العرب في المغرب ويكون خطوة نحو وحدة الطبقة العاملة العربية.

مبادئ الاتحاد العام التونسي للشغل

كان الهدف الأول الذي بنى عليه الرائد البطل المناضل الدكتور محمد علي الحركة النقابية التونسية في الربع الأول من هذا القرن هو ان أهداف العمال العرب في تونس لا يمكن ان تتحقق في ظل الاستعمار الفرنسي. ولا بد من تحقيق استقلال البلاد لتحقيق استقلال العمال ومهما انصف العمال ومهما قيل عن استقلالهم فان ذلك يبقى صوريا طالما أنه وجدت في ظل الاستعمار الذي يتحكم بمقدرات البلاد. ويستعملها مطية لرأسماليته الجشعة ويرى الاتحاد العام ان الوضع السياسي في حياة جميع الأمم ما هو إلا صورة عن الـوضع الاجتماعي والاقتصادي السائد فيها لأن السياسة هي نظام الحكم العـام المسيطر على الـوضع الاجتماعي والاقتصادي ويرى الاتحاد العام ان السياسة الاستعمارية تشمل الاقتصاد ومشاكل الانتاج والمعاش والاسعار والأجور. واي مشكلة من المشـاكـل الاجتماعية كمقـدرة الشراء ونظام العمل وحقوق العمال ونظام الاضراب خارجة عن مشمـولات نظر السلطة »

المبدأ الأول : الذي طرحته الحركة النقابية هو أن تحرر البلاد من الاستعمار واستقلال العمال ونيلهم حقوقهم أمران مرتبطان أشد الارتباط باستقلال البلاد ونيلها أهدافها.

المبدأ الثاني : من مبادئ الحركة النقابية ان الشعب كل لا يتجزأ جميع صفوفه مدعوة للنضال ضد المستعمر لطرده من تونس. كل فرد فيه مهما كانت صفته يفرض عليه واجبه الوطني والقومي ان يعمل من أجل طرد الاستعمار.

المبدأ الثالث : من مبادئ الاتحاد ان كفاح العمال الاجتماعي هو في نفس الوقت كفاح سياسي وطني فالعامل التونسي عندما يناضل من أجل حقوقه وأهدافه، انما يناضل في الواقع من أجل تغيير نظام الحكم السائد وعليه فعلى العمال أن يعتبروا ان نضالهم موجه ضد الاستعمار لاخراجه من البلاد. وبعد ذلك ينتقل العمال في نضالهم الى المرحلة الثانية . . حيث يبدؤون الكفاح الداخلي من أجل التغيير الاجتماعي ومن أجل اكتساب حقهم.

ويتضح مما تقدم ان مبادئ الحركة العمالية واضحة كل الوضوح واعية لمشاكل البلاد مدركة سبل الخلاص.

وقد كانت الحركة النقابية في تونس خلال ثلاثة أرباع القرن في طليعة الكفاح الوطني التونسي.

وإذا كانت حياة البطل العصامي الدكتور محمد علي النضالية قصيرة في تونس إلا أنه استطاع بما بثه من روحه في صفوف العمال التونسيين وما غرسه فيهم من حب النضال بقيت جذوة النضال على مر الأيام عاملا أساسيا في صمود الحركة النقابية إلى أن وجدت في القائد الشعبي فرحات حشاد الذي قاد الحركة النقابية والوطنية معا في ظروف قاسية مريرة وقد كان يعرف أن الموت له بالمرصاد ولكنه واصل كفاحه وكان مؤمنا أعمق الايمان بأنه لا يمكن الفصل بين قضية العمال في تونس والقضية الوطنية وكان إذا عاب عليه بعض النقابيين الفرنسيين انهماكه في العمل الوطني والسياسي كان يجيبهم « ولكن السياسة في كل ميدان، فاذا سمحنا لأنفسنا بتجاهلها فإنها لا تتجاهلنا » وان العمال التونسيين في كفاحهم الاجتماعي من أجل التحرر من الاستغلال وفي سبيل حياة أفضل على الصعيد الاجتماعي يصطدمون بقوى سياسة استعمارية يجب عليهم تحطيمها ولا يستطيعون تحطيمها إلا إذا ناضلوا نضالا وطنيا »

وكان تصور فرحات حشاد ومحمّد علي من قبله بان العمال في البلاد المغلوبة على أمرها أي التي تخضع للنضال الاستعماري « والسيطرة على الصعيد السياسي تهدف إلى الاستقلال الاقتصادي » تعاني من هذا الاستغلال على علاقة ببعضها ـ الاستغلال الرأسمالي الذي يعاني منه العمال في جميع أنحاء المعمورة والمتعلق بوسائل الملكية ووسائل الانتاج وفوق هذا الاستغلال استغلال استعماري يجثم بكلكله على البلاد المغلوبة على أمرها ومن بينها الطبقة العاملة. ولذلك كانت الحركة النقابية في تونس تكافح ضد ظلمين أو استغلالين : الظلم الاستعماري والظلم الرأسمالي وقد قدمت الحركة العمالية كثيرا من الضحايا الشهداء في تونس، اذ كانت هي رأس الحربة. ولما شعر الاستعمار بخطورة الحركة النقابية في تونس وخطورة قائدها فرحات حشاد ـ دبّر طريق اغتياله، وفي 5 ـ 12 ـ 1952 اغتيل فرحات حشاد.

وقد صمم المستعمرون على ضرورة التخلص من فرحات حشاد عقب أحداث 13 اغسطس 1947 عندما أعلن عمال « معمل الجلد » في مدينة صفاقس اضرابا شاملا لمواجهة السلطات الاستعمارية مواجهة دموية أدت الى استشهاد أربعين من العمال ومئتي جريح واعتقال مئات العمال ومحاكمتهم. فقد قاد هذا الكفاح الشهيد فرحات حشاد وأثبت للمستعمرين وللرأي العام في العالم ان الحركة العمالية في تونس قادرة على الوقوف في وجه الطغاة المستعمرين. وبفضل التضحيات التي قدمها العمال التونسيون خرجت الحركة النقابية من هذه المعركة منتصرة وازداد الصراع حدة خاصة بعد انتفاضة العمال بالنفيضة.

انتفاضة العمال بالنفيضة :

وفي شهر نوفمبر 1950 قرر عمال شركة الفلاحين الفرنسية بمنطقة النفيضة الاضراب العام مطالبين بحقوقهم النقابية كعمال زراعيين. فما كان من هذه الشركة الاستعمارية الا ان رفضت الاستجابة لمطالبهم واستنجدت بالشرطة والجيش الفرنسي ضد هذا الاضراب الشرعي ووقع صدام عنيف دام حصدت فيه القوات الاستعمارية عشرات العمال وعندما بدأت القوات الاستعمارية في تقتيل العمال في النفيضة أعلن الشعب العربي في تونس تضامنه الكامل مع العمال والاضراب العام في كافة القطر التونسي ولم تكتف السلطات الاستعمارية بحصد العمال في النفيضة بل امتدت يدها الى سوق الخميس وزغوان فواجهت اضطرابات العمال هناك بقمع وحشي وسقط شهداء كثيرون تحت ضربات الاستعماريين. وفي سنة 1952 بعد فشل المفاوضات بين حكومة محمد شنيق والحكومة الفرنسية اجتاحت تونس موجة من الارهاب والاعتقالات شملت كل العناصر الوطنية والقيادية. قاد

فرحات حشاد زعيم العمال التونسيين على اثرها الحركة الوطنية الى جانب مهامه كقائد للحركة النقابية . وبدأت المقاومة منذ أوائل سنة 1952 واتخذت شكل صدام عنيف بين الشعب من جهة والسلطات الاستعمارية من جهة ثانية وتكونت خلايا سرية داخل المدن والقرى لضرب عملاء الاستعمار وتهديد المصالح الاستعمارية وبدأ الشعب في المقاومة وتصفية العناصر العميلة والمتعاونة مع الاستعمار وتحطيم المصالح الاستعمارية واجتاحت البلاد المظاهرات والصدامات مع البوليس والجيش. وكلما تمت تصفية مجموعة وطنية قامت مجموعة أخرى. وبتعاظم المقاومة الشعبية لم يكتف الاستعمار بالجند والجندرمة بل أطلق يد غلاة الاستعماريين لتكوين عصابة استعمارية تسمى اليد الحمراء مهمتها اغتيال القيادات النقابية والوطنية وتفجير بيوت الوطنيين ومنازلهم ويرجع تاريخ هذه العصابة الاجرامية اليد الحمراء الى سنة 1947 حيث بدأ المستعمرون الفرنسيون وغلاة الاستعماريين في تسليح انفسهم وجعل منازلهم ومزارعهم ترسانات للاسلحة وكان الهدف من وراء هذه الجمعيات الارهابية هو ارهاب الوطنيين والجماهير الشعبية ، ودمرت هذه العصابة المجرمة (اليد الحمراء) ما يقرب من خمسمائة بيت من بيوت الوطنيين التونسيين واغتالت الكثير من قادة الحركة الوطنية. وفي 5 ـ ديسمبر 1952 ارتكبت جريمة اغتيال الزعيم النقابي الشهيد فرحات حشاد وقد كلفت احداث 1952 ما يقارب 6000 معتقل سياسي واغتيال أخلص العناصر الوطنية وهو عدد كبير لا يحصى الى جانب عمليات القتل الجماعي في المدن والقرى التي ارتكبها جيش المستعمرين وبالرغم من هذا الارهاب الأعمى فان الشعب العربي قد وقف صامدا ولم تزده الأيام الا صمودا وثباتا . وباغتيال فرحات حشاد صعد بعض انصاره الى الجبل وتكونت المقاومة المسلحة في الجبال وبدأت في أعمالها العسكرية. في سنة 1953 اغتالت عناصر اليد الحمراء الزعيم الهادي شاكر والاخوين حفوز أعضاء حركة الفلاحين التونسيين. وقد عاشت تونس طيلة سنتين في صراع دام أظهر فيهما الشعب العربي في تونس صمودًا وبسالة لا نظير لهما واستمر النضال المسلح ضد الاستعمار والعملاء ولم يستسلم الشعب ولم يلق السلاح . والواقع ان فترة الكفاح التي استمرت من سنة 1952 الى سنة 1954 كانت مليئة بالأحداث. فقد سجلت بالمئات عمليات الاغتيالات والنهب والسلب وتهديم المنازل واعتقال المواطنين وهم نيام في منازلهم وعمليات القتل الجماعي والاعتداء على الحرمات بحيث يستحيل ذكرها بالتفصيل في فصل موجز كهذا. ولم تترك اليد الحمراء وسلطات البوليس والجندرمة والجيش مكانا في القطر، مدينة أو قرية، سهلا أو جبلا، الا وارتكبت فيه بعض جرائمها الفظيعة ضد شعب أعزل وكانت تحت حمى مطاردتها

للمجاهدين والعناصر الوطنية وبتأثير الحنق والغضب توجه ضرباتها الطائشة فتنال بها من الأبرياء وتلحق بهم دمارا أو خرابا لا حد له.

ومع هذا فان أعمال المقاومة الوطنية استمرت بل ازدادت شدة على مر الأيام. ولم تحل سنة 1954 حتى كانت المقاومة المسلحة في الجبال قد أخذت تدخل في دور حاسم مما أجبر السلطات الاستعمارية على اعادة النظر في سياستها الاستعمارية بتونس.

اغتيال الزعيم النقابي فرحات حشاد.

وقد كان لاغتيال فرحات حشاد صدى أليم في نفوس الجماهير، إذ بعد اغتياله صعد انصاره الى الجبال وواصلوا الكفاح وكان هذا النضال العمالي الشعبي هو أقوى مظاهر النضال الوطني في تونس ولكن للاسف كانت القوى البرجوازية المتفرنسة المتهادنة هي التي سوف تستثمره لصالحها أبشع استثمار.

وفي سنة 1953 تولى أحمد بن صالح قيادة الحركة النقابية وقد سار بها في نفس الطريق الذي سار عليه محمد علي وفرحات حشاد واستمر أحمد بن صالح يواصل المهمة الصعبة المزدوجة.

الكفاح النقابي الى جانب الكفاح الوطني :

وبعد حصول تونس على الاستقلال بدأ أحمد بن صالح يتفرغ للعمل الاجتماعي وتطوير البلاد على غرار ما سارت عليه البلاد الاسكندنافية وبعد سيطرة حزب الدستور الجديد على الحكم وجه هذا الحزب ضربته للحركة النقابية الشعبية القومية فتم اقصاء قادة الحركة الذين بدؤوا يطالبون بالاصلاح الاجتماعي والاقتصادي للطبقة العاملة الا ان البرجوازية الجديدة التي ورثت الاستعمار في الامتيازات وجهت ضربتها للاتحاد العام التونسي للشغل وأمينه العام أحمد بن صالح الذي عزل من منصبه وهو في طريقه إلى المغرب لحضور مؤتمر الحركات النقابية في المغرب العربي الذي كان مقررا عقده في الدار البيضاء وقد بلغه خبر إقصائه من منصب الأمين العام بعد نزوله من الطائرة وكان ذلك في ربيع 1956 ولم يمر على استقلال تونس شهران واستطاعت بورجوازية حزب الدستور الجديد ان تنهي دور الحركة النقابية في تونس.

هذه لمحة تاريخية عن تاريخ الحركة الشعبية النقابية في تونس والاتحاد العام التونسي للشغل بتاريخه ونضاله ومبادئه وتنظيمه . . حركة ما عرفت السكون منذ أن واجه أول رجل فيها عسف المستعمر، حركة كرست كل امكانياتها في سبيل الوصول إلى النصر

الوطني والاجتماعي حركة قدمت بالأمس القريب آلاف الضحايا الشهداء، حركة كان مصير قادتها الشهادة أو التشريد على يد سلطات القمع الاستعماري أو دكتاتورية الرجعية التي سلمها الاستعمار السلطة .. ولكن روح هذه الحركة النقابية الشعبية الوطنية لا يمكن ان تضيع، ان روح محمد علي وفرحات حشاد وغيره من الشهداء والقيادات النقابية المشردة الهائمة الآن سوف تؤرق هؤلاء الذين حولوا هذه الحركة القوية إلى أداة طيعة لخدمة حزب البرجوازية الحاكم وافرغوا هذه الحركة من مضمونها الشعبي وجعلوا منها نقابة من نقابات السلطة واثروا الثراء الفاحش من وراء بيعهم هذه الحركة للسلطة وخدمتها وسوف تبتعث هذه الروح وهذا التاريخ النضالي الوطني الشريف من جديد عند العمال التونسيين جميعا ليعيدوا درب النضال الوطني المجيد إلى عنفوانه ومساره الصحيح حتى يقضوا على هذا القهر المسلط على الشعب من طرف البرجوازية الجديدة التي أورثت نفسها امتيازات المستعمر . . .

ولا تكتمل صورة الدور الوطني للحركة النقابية في تونس إلا إذا ألمحنا إلى الدور الوطني للحركة الفلاحية التي ضربت هي الأخرى ضربة قاصمة عشية تسلم الدكتاتورية الرجعية السلطة من الاستعمار . . . فقد أحس الفلاحون بضرورة ايجاد تنظيم يجمعهم ويدافع عن حقوقهم، خاصة بعد تكوين الاتحاد العام التونسي للشغل، واتحاد الصناعة والتجارة .. وهكذا كون الفلاحون تنظيما أطلقوا عليه اسم « الاتحاد العام للفلاحة التونسية » رئيسه الحبيب المولهي وأمينه العام ابراهيم عبد الله ونظرا للعدد الهائل من الأعضاء المشاركين في الاتحاد الذين بلغ عددهم في مطلع سنة 1953 أكثر من خمسين ومئتي ألف مشترك فان الاتحاد العام التونسي للفلاحة يعتبر أقوى المنظمات الوطنية من حيث عدد المشتركين فيه بالرغم من أنه أحدث المنظمات الوطنية تكوينا وكانت الغاية من تكوينه الدفاع عن حقوق المزارعين التونسيين خاصة وان الاستعمار الفرنسي كان يهددهم باستمرار بانتزاع أراضيهم منهم .. بجميع الطرق والوسائل المتوفرة له فكان يضيق عليهم الخناق ماديا ويحاربهم نفسيا ليجبرهم على مغادرة أراضيهم وكان دائما على استعداد لشراء أراضيهم منهم وتسليمها للمعمرين الفرنسيين. وبقدر ما كانت الأراضي خصبة بقدر ما اشتد المستعمر في ممارسة ضغوطه على الفلاحين التونسيين ولهذا السبب كان الشعور عاما بضرورة الانضمام الى صفوف المناضلين في هذه النقابة الفتية التي سرعان ما نمت وكبرت وأصبحت لها فروع في كافة أنحاء البلاد وكباقي المنظمات الوطنية فان اتحاد الفلاحين بنى لنفسه نظاما داخليا يعتمد على تلقين المنخرطين فيه روح التعاون والتضحية في سبيل المصلحة العامة باعتبار أنّ مصلحة الفرد جزء من مصلحة المجموع والانضباط وتجنب المجالات العقيمة والتعود على النظام والامتثال والنقد البناء.

ويبدو من هذه الروح الصارمة التي أراد الاتحاد ان يجعلها تتغلغل في نفوس أعضائه أنــه كان مدركا ادراكا كاملا لخطورة المعركة التي كان مقدما عليها وأعني بها معركة التحرير الوطني.

كان الاعتقاد سائدا لدى كل عضو واع في الاتحاد انه لا حقوق للفلاحين ولا كرامة لهم ولا اطمئنان لهم على مستقبلهم ما دام الاستعمار الفرنسي يحكم البلاد وما دام المعمرون الأجانب يهددون الفلاحين بالطرد والتهجير ليستولوا على أراضيهم.

ولكن الاعداد للمعركة الوطنية لم يمنع الاتحاد من ان يشرع في العمل العظيم الذي خلق من أجله الا وهو وضع البرامج والخطط الكفيلة بتحسين حالة الفلاح الاقتصادية والاجتماعية وذلك بتحسين الانتاج الزراعي وتطويره وادخال الأساليب العصرية على الزراعة واستغلال الأراضي البور.

وكان أوّل عمل هام قام به في هذا المجال هو محاولة تحسين الانتاج وذلك بانشاء التعـاونيات الفلاحية التي تضم عددا من الملاك الزارعيين الأعضاء في الاتحاد ومن أمثلة ذلك تعاونية التّمور بالجريد وهي المسماة « بشركة النور » وتعاونية البرتقال بالوطن القبلي وغير ذلك من التعاونيات التي كونها الاتحاد إما لبيع الانتاج الزراعي أو لشراء ما يحتـاج إليه المـزارعون من بذور وآلات ومعدات. وكان دور الفلاحين في معركة التحرير الوطني مهما، فقد كان المجاهدون التونسيون في الجبال يتلقون منهم كل عون وسنــد. كانـوا يجدون عنـدهم الغـذاء الضروري الـلازم للعيش. كانت أفـواج المجـاهدين تنزل من الجبال وتلجأ إلى هذا البيت أو ذاك لتجد من كرم الفلاحين وترحابهم ما يساعدهم على الاستمرار في نضالهم المسلح ضد المستعمر ولقد تعرضِ الفلاحون بسبب مساعدتهم هذه للمجاهدين لاشد أنواع التعذيب.

واثر توقيع الاتفاقيات وحصول خلاف بين رئيس الحزب الدستوري . . (الحبيب بورقيبة) والأمين العام للحزب صالح بن يوسف انضم الاتحاد إلى جانب صالح بن يوسف فلما كان من رئيس الحزب إلا ان اقصى قادة الاتحاد وعمل على حله. ثم ساعد على تكوين اتحاد جديد يضم كبار ملاك الأراضي الزراعية أسماه (اتحاد المزارعين).

الفصل الثامن

نضال الحركة الوطنية خارج تونس

لقد بدأت هجرة التونسيين للتعريف بقضاياهم الوطنية منذ الاحتلال ولكنهم لم يقطعوا الصلة البتة بوطنهم فهاجر الشيخ محمد بيرم الخامس إلى مصر وواصل نضاله هناك. وهاجر الشيخ محمد السنوسي إلى مصر وعاد ليناضل داخل تونس بعد ان اتفق مع جمال الذين الأفغاني والشيخ محمد عبده والشيخ بيرم الخامس والأمير عبد القادر الجزائري على ضرورة النضال. كذلك هاجر اللواء العربي زروق وظل متجولا بين القاهرة والقسطنطينية والحجاز. وهاجر علي باش حانبة أحد قادة تونس الفتاة سنة 1912 إلى تركيا وواصل نضاله ضد الاستعمار الفرنسي في تونس والجزائر وضد الاستعمار الفاشيستي في ليبيا وتوفي سنة 1919 بتركيا وهو يناضل.

وهاجر شقيقه محمد باش حانبة الذي التجأ إلى سويسرا حيث أسس بها مجلة المغرب باللغة الفرنسية ومجلّة جزائرية تونسية للتعريف بقضايا الاستعمار الفرنسي بالمغرب العربي حيث كان يتم توزيعها في كافة أنحاء أوروبا. وقد انتقل بعد ذلك إلى المانيا حيث واصل عمله النضالي ضد الاستعمار الفرنسي بالمغرب العربي حيث كان يتم توزيعها في كافة انحاء ألمانيا.

وهاجر عبد العزيز الثعالبي سنة 1923 وقد عاش متنقلا بين مصر وفلسطين والحجاز واليمن للاتصال بالحركات العربية لتوحيد نضال العرب ضد الاستعمار في كافة أنحاء الوطن العربي. وعند اشتداد الكفاح في المغرب العربي سنة 1937 عاد إلى تونس حيث حاول الجمع بين العناصر القديمة والجديدة في الحزب الدستوري ولكنه لم ينجح في التوفيق بينهما واستمر يناضل إلى أن توفي سنة 1944 رحمه الله.

وهاجر الشيخ صالح الشريف والشيخ اسماعيل الصفائحي والشيخ المكي بن عزوز الذي هاجر إلى اندونيسيا والشيخ الخضر الحسين. وقد عاش هؤلاء متنقلين بين الشرق العربي وألمانيا ومنهم من توفي في تركيا ومنهم من تولى مشيخة الجامع الأزهر وهو الشيخ الخضر الحسين الذي أسس لجنة الدفاع عن شمال افريقيا بالقاهرة وتوفي هناك. وكان شعار هؤلاء المناضلين: « إما النّصر وإما الموت » وقد تعالت أصواتهم جريئة تهز آفاق المغرب العربي كله لم تخمد ثورتهم بنادق المستعمرين الفرنسيين فقد عاهدوا الوطن على الموت شعبا وقيادة ما دام في أرضه موطأ لقدم مستعمر. ورأى الاستعمار أنه لا سبيل للقوة مع شعب يسوق إليه الموت فيبتسم شوقا إلى الموت ويتفنّن في استعمال القوة والارهاب معه فلا يزداد إلا تصميما على تحقيق إرادته في التحرر والاستقلال فلجأت فرنسا إلى تفكيك صف النضال الشعبي بان عزلت القيادة الوطنية عن الشعب وبعد ان عرضتهم لجميع أنواع الاضطهاد والارهاب وابعدت الكثير منهم خارج البلاد كي تتفرغ لاخماد الثورة بعد ان فقد الشعب قياداته الوطنية. فلم يكن ابعاد اكثر قادة النضال في المغرب خارج البلاد لينال من عزيمتهم المصممة أو يضعف من نفوسهم المؤمنة الواعية فسرعان ما انطلقوا يعملون لقضية المغرب العربي كله من صحراء المغرب إلى طبرق ويوجهون سير الكفاح الشعبي من الخارج.

ولما رأى الاستعمار ان نفي القيادات الوطنية إلى خارج الوطن العربي لم يفلح في اخماد لهب الثورة أو منع القادة الوطنيين من الاشتراك فيها اشتراكا فعالا وتوجيهها وتغذيتها. بل على العكس قد بدأ ينقل قصة جهاد الشعب العربي في المغرب العربي ومآسي الاستعمار الايطالي في ليبيا إلى صعيد عالمي. عاد الاستعمار مرة أخرى إلى تطبيق الحصار على المغرب العربي ففرضت المراقبة الدقيقة على الحدود. ومنع اعطاء الجوازات وقطع كل اتصال بين أبناء المغرب العربي والعالم الخارجي منتهجا في كل ذلك سياسة الكبت والتعسف والاضطهاد. ولم يبق أمام زعماء المغرب العربي الباقين، وقد رأوا ان السلطات الفرنسية ستشل نشاطهم نهائيا، سوى الانتقال إلى مكان يستطيعون فيه العمل بحرية بعيدين عن قيود الاستعمار الثقيلة. وهكذا غادر المغرب العربي فوج آخر من أولئك الذين ما عرفوا يوما معنى الاستقرار. وسرعان ما انصرفوا يكملون ملحمة النضال الطويلة وبدؤوا اتصالاتهم بطلاب المغرب العربي في أوروبا فكان من نتائج عملهم ان تأسست في باريس بعد الحرب العالمية « جمعية طلاب شمالي افريقيا » التي راحت تصدر النشرات وتعقد الاجتماعات وتقوم باتصالات واسعة لتطلع الرأي العام الفرنسي على قساوة الاستعمار الفرنسي وتبث الوعي وروح الثورة بين كافة صفوف عرب المغرب العربي.

الحرب العالمية الثانية وهجرة المناضلين للخارج :

كان السؤال المطروح أثناء الحرب العالمية الثانية من طرف الجماهير المناضلة في تونس، يتردد على ملايين الشفاه كل يوم وفي كل لحظة ابان الحرب العالمية الثانية. كان هذا السؤال يتردد في كل ساعة وفي كل لحظة. كان يعيش على الشفاه لا يفارقها طيلة ساعات الليل والنهار كان هذا السؤال : أين المعتقلون ؟ . . وكيف يعيشون . . ولم يعرف الجواب إلا من سلك الطريق وذهب مع الذاهبين إلى المعتقلات في جنوب تونس وفرنسا لقد بلغ عددهم أثناء الحرب العالمية الثانية اثني عشر ألفا . . كلهم قذف بهم في معتقلات ضيقة . . بعضهم في صحراء جنوب تونس وبعضهم الآخر في فرنسا.

وعندما انكسرت جيوش الاستعمار الفرنسي أمام المحور . . نزل الألمان والطليان إلى تونس. فتوسط الملك محمد المنصف لديهم يوم ذاك للافراج عن المعتقلين . . وهكذا كان . . وتم في عام 1943 الافراج عن المعتقلين الذي اعتقلوا أثناء الحرب وقد قرر بعض قادة الحركة الوطنية بعد خروجهم من المعتقلات مغادرة تونس إلى الخارج على أساس الاستمرار في النضال وتنظيم كل القوى التي يمكن ان تساهم في مقاومة الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي. وكان من بين هؤلاء وعلى رأسهم الدكتور الحبيب ثامر قائد الحركة الوطنية أثناء الحرب العالمية الثانية. والاستاذ يوسف الرويسي أحد قادة الحركة الوطنية. والدكتور حافظ ابراهيم راجح أحد قادة الحزب الحر الدستوري القديم وابن المناضل المعروف الشيخ راجح إبراهيم أحد رفاق عبد العزيز الثعالبي في الكفاح. والرشيد ادريس أحد المناضلين التونسيين. والبشير المهذي وغيرهم كثير والمرحوم الحبيب بوقطفة أحد قادة الحركة الوطنية الذي توفي على ظهر باخرة كانت تحمل الجرحى والمدنيين إلى ايطاليا تعرضت للقذف فأصيب بشظية فصلت رأسه عن جسده وكانت ايطاليا أول بلد توجهوا إليه. وهناك قابلوا العديد من اخوانهم مناضلي المغرب العربي فاجتمعوا لوضع خطة للعمل على أساس منظم ومدروس ولم يمض وقت طويل حتى بدؤوا يعملون . . فأنشؤوا إذاعة سرية سموها « افريقيا الفتاة » كانوا يذيعون منها لمدة ساعة في اليوم أخبار النضال العربي في المغرب العربي ونداءات إلى شباب الأمة العربية اينما وجدوا في العالم للمساهمة في نضال المغرب العربي عن أي طريق تساعدهم فيه ظروفهم.

مؤتمر في ألمانيا :

ولم يمكثوا في ايطاليا وقتا طويلا وغادروها إلى المانيا في أواخر سنة 1943 وهناك

أصبح عملهم مركزا أكثر من ذي قبل : فقد أسسوا في مدينة برلين أول مكتب اطلق عليه اسم مكتب المغرب العربي. وفي شهر تشرين الثاني من العام نفسه عقدوا في برلين مؤتمرا للشباب العربي بحثوا فيه القضية العربية وتطوراتها بشكل عام. وقد كان عقد هذا المؤتمر فرصة نادرة تبادل فيها الشباب العربي اراء حول قضيتهم القومية وتوصلوا أخيرا إلى ايجاد رابط منظم يجمعهم كلهم على صعيد واحد . . وقد أسسوا جريدة باللغة العربية اسمها « المغرب العربي » اشرف على ادارتها الاستاذ يوسف الرويسي. وقد التقوا هناك بقادة عرب من المشرق العربي من بينهم مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني ورشيد علي الكيلاني. وكان لقاء مناضلي المغرب العربي بمناضلي المشرق هو لقاء كفاح ونضال مشترك.

وقد امتد نشاط هذه الحركة الجديدة إلى معظم دول أوربا وخاصة فرنسا التي بقي الدكتور الحبيب ثامر يتردد عليها باستمرار من ألمانيا.

الطريق الصعب :

ولقد لقي هؤلاء المناضلون أثناء الحرب العالمية الثانية صعوبات كثيرة في عملهم الوطني خارج المغرب العربي . . فألمانيا أرادت ان تلاين فرنسا كي تنتهي من توقيع الهدنة بدون خلق مشاكل جديدة قد تعرقل تقدم جيوشها وكانت ألمانيا تعرف ان فرنسا تفضل ان تتنازل عن جزء من الوطن الفرنسي مقابل الاحتفاظ بالمغرب العربي ولهذا كان على المانيا ان تساير فرنسا في هذا الخصوص. فبدأت تضيق على المناضلين في عملهم بشتى الأساليب.

ولكن هل وقفت هذه العقبات في الطريق ؟

الحقيقة تعرفها القوى الاستعمارية قبل غيرها . . انهم بقوا يشقون طريقهم على الرغم من جميع الصعوبات . . لقد عاشوا النضال بأسمى معانيه وأقدس صوره . . والنتيجة الطّبيعيّة لهذا النضال يعرفها الجميع .

فرنسا تعوض الأسرى الفرنسيين بالعمال العرب المغاربة :

قبل توقيع اتفاقية الهدنة بين المانيا وحكومة « فيش » الفرنسية كانت الحكومة الالمانية محتاجة إلى أيدي عاملة فما كان من « لافال » الا ان طلب من الحكومة الالمانية أثناء المفاوضات لتحقيق الهدنة الألمانية الفرنسية ارجاع الأسرى الفرنسيين مقابل تزويدهم بالعمال من شمال افريقيا للعمل بمصانعهم ووقعت الهدنة وكان هذا البند مثبتا فيها . . وبين أهازيج الفرح التي واكبت الأسرى الفرنسيين العائدين إلى وطنهم.

سار الوف مؤلفة من العمال العرب يواصلون صفحة جديدة من النضال الطويل الشاق.

أما العرب الذين حاربوا مع فرنسا ووقعوا في اسر الألمان فقد كتب عليهم ان يبقوا حيث هم ولتفعل بهم السلطات الألمانية ما تشاء فقد أنهوا مهمتهم يوم ان وقعوا في الأسر . . تلك ضريبة الاستعمار التي تدفعها الشعوب المغلوبة على أمرها، راضية أو كارهة، وعندما يحين وقت الضريبة في الوقت الذي تكون فيه الدولة المستعمرة مغلوبة على أمرها ومهزومة في الحرب تصبح الضريبة نوعا من الاهانة التي لا تطاق ومع ذلك . . صبر عمالنا . . وتحملوا كل أنواع المتاعب والاهانات حيـن لم يكن من التحمل بد . . ومن الصبر بد . . يوم تكالبت قوى الشر وتألبت . . فكنت تراهم صفر الوجوه ضعـاف البنية يأكلهم الهزال . . أبدا يرتجفون من البرد والخصاصة. وقد استولت الـوكالة الفرنسية على أجورهم وتموينهم وراحت تتصرف بها كما تشاء . . فكان ان اعـطت العـامـل العـربي ثلث الأجـر الـذي أعطته للعامل الفرنسي. أما تموينهم وملابسهم التي كدوا من أجلها أياما تلو أيام فلقد سلبتهم إيّاها الوكالة الفرنسية لتبيعها في السوق السوداء . . وكانوا كلما ذكر ترتيب للمشرفين على شؤون العمال يأتون في الدرجة الأخيرة : مسؤول فرنسي . . مسؤول الماني، مسؤول سنغالي وأخيرا مسؤول عربي.

هؤلاء هم العمال العرب في الغرب وعددهم أثناء الحرب العالمية الثانية 180٫000 عامل منهم 150٫000 في فرنسـا المحتلة، وثلاثــة آلاف فــي المانيا هؤلاء وأمثالهم هم الذين التفوا حول الأمير عبد القادر في كفاحه وحول البطل عبد الكريم الخطابي في جهـاده وحـول الحـركات الوطنية في المغرب العربي وحول محمد علي الحامي ثم فرحـات حشاد. وحول أحمد بن صالح. وحول المهدي بن بركة ومحمد البصري. هؤلاء الذين يدفعون الثمن دوما لتقطف البورجوازية الأجنبية ثم البورجوازية الوطنية الثمار.

الوطنيون وساعات العمل :

لقـد ثار مكتب المغرب العربي في برلين لهذه الحالة التي وصل إليها عمال عرب المغـرب العربي على أيدي الاستعماريين الفرنسيين وأدركوا ان أي سند شعبي قوي يمكن أن يشكل هؤلاء العمال فيما إذا وجهوا الوجهة الوطنية الصحيحة. فسافر أعضاء مكتب المغـرب العـربي في ألمـانيا إلى فرنسا لبحث أوضاعهم وإيجاد حلول جذرية لمشكلتهم. وعندما وصل اعضاء مكتب المغرب العربي إلى فرنسا أبدت السفارة الألمانية امتعاضا

من قدومهم وعندما طلبوا من السفارة الألمانية تمكينهم من الاتصال بالعمال أجيبت مساعيهم بالرفض وفي النهاية اعتمدوا على أنفسهم لتذليل الصعوبات لأن العمال العرب المغاربة لم يكونوا إلا بني وطنهم فلا يمكن لاي قوة في الأرض أن تفصل بينهم وبين قيادة الحركة الوطنية.

الاتصال المباشر بالعمال :

لم يبق أمام أعضاء مكتب المغرب العربي إلا ان يفكروا في أحد الأمرين. أما ان يغادروا المانيا إلى بلاد محايدة. ويكتفوا بالعمل عن طريق الدعاية لتحرير المغرب العربي واما ان يختاروا طريق النضال وهو طريق الاتصال المباشر بالعمال لحثهم على الهروب من ميادين العمل الألمانية . . ولم يكن المناضلون بجاهلين ان الفشل في هذه المغامرة معناه القضاء عليهم.

الاختيار الصحيح :

واتصلوا بالعمال وراحوا ينظمون أمر هروبهم فاتصلوا بحزب الشعب الجزائري والحركة الوطنية المراكشية وعقدوا مؤتمر وانتخبوا فيه لجنة تنظيمية لتشرف على تنفيذ العمل والخطط المرسومة له. وكان من بين اعضائها قائد الحركة الوطنية التونسية ابان الحرب العالمية الثانية الشهيد الدكتور الحبيب ثامر والاستاذ يوسف الرويسي. وبعد نضال واتصالات أجريت مع العمال بدؤوا يهربون من المصانع ويشلون حركتها. أما السلطات الألمانية فقد هالها هذا الصنيع وأقضّ مضجعها ولم تر السلطات الالمانية بدا من اللجوء الى اللجان التنظيمية لايقاف عمليات هرب العمال من مصانعها ولكن اللجنة أهملت مطلب الألمان واستمرت في سيرتها الأولى ولم يبق أمام السلطات الالمانية الا الرضوخ. فاستسلمت لارادة العمال. ومكنت اللجنة التنظيمية من الاتصال الرسمي الدائم بالعمال. فشرعت في بعث الثقة في نفوس العمال وتقوية روحهم النضالية. فهبوا لمواصلة كفاحهم المرير لتحقيق حريتهم ونيل حقوقهم كاملة.

مطالب العمال العرب :

وتقدمت اللجنة الى السلطات الالمانية بمشروع يحتوي على ما يلي :

1 ـ ترك الحرية للعمال العرب في انتخاب المسؤولين عنهم بعد أن كان المسؤولون السنغال والالمان والفرنسيون يفرضون عليهم فرضا.

2 ـ فتح المجال أمام العمال العرب ليتثقفوا ويتعلموا.

3 ـ ترك الحرية لهم لانتخاب هيئات تشرف على تدبير أمورهم والدفاع عن مصالحهم على أن تشكل هذه الهيئات في مجموعها اتحادا عاما لهم.

ـ ووافقت السلطات الالمانية على هذه المطالب. وبدأ العمال العرب في تنفيذ بنودها. فتألفت في كل من المانيا وفرنسا هيئات أوكلت لها مسؤولية الاشراف عن مختلف وحدات العمال. وكونت بمجموعها اتحاد العمال. وتكفل مكتب المغرب العربي الذي كان قد تألف في برلين بتنظيم شؤون العمال وتثقيفهم وتهيئتهم للدخول في معترك النضال الشاق الطويل من أجل تحرير المغرب العربي من الاستعمار والاقطاع والتخلف.

معارضة فرنسية فاشلة :

وثارت ثائرة حكومة فرنسا عند سماعها بالخبر وأبدت اعتراضا عن تعاظم نشاط هذه الحركة المنظمة واكتساحها لفرنسا فحاولت عرقلة سيرها ولكنها منيت بالفشل الذريع . . مما دفع بحكومة « لافال » للاستقالة.

وعند تولي « دوبرينو » رئاسة حكومة فرنسا بدلا من « لافال » وجه طلبا للمسؤولين عن العمال العرب بتحديد موعد لاجتماع يعقد بينه وبينهم تبحث فيه شؤون العمال. وتصفّى فيه مشاكلهم مع فرنسا. لكن المسؤولين رفضوا هذا الطلب وكان جوابهم في هذا الصدد ان الدولة التي لم يردعها خلقها عن افتداء أسراها بالعمال العرب. لا يمكن أن تؤتمن على حق . . وان اللجنة تعتبر أن العمال العرب لهم وحدهم الحق في حل مشاكلهم وتصفية قضاياهم وكان هذا الرد الحازم ضربة للاستعمار وحثا للعمال على مواصلة السير في طريق النضال والاستعداد للمعركة الفاصلة الحاسمة.

الدكتور ثامر ورفاقه في اسبانيا :

وفي أواخر سنة 1944 نزل الحلفاء نورماندي. فما كان من الدكتور الحبيب ثامر واخوانه المقيمين في باريس الا أن سافروا الى اسبانيا حيث وجدوا هناك أخا لهم في النضال سبقهم اليها الا وهو الدكتور حافظ ابراهيم راجح. أحد قادة الحزب الدستوري القديم. وقد قدم لهم الدعم والمساعدة وواصلوا نضالهم هنالك الى جانب الدكتور راجح بمدريد. وأما الاستاذ يوسف الرويسي واخوانه فقد تم اعتقالهم في « وغشتاين » بالمانيا ونقلوا الى بلجيكا حيث بقوا هناك سنة كاملة أفرج عنهم بعدها فسافروا الى سوريا وفي سنة 1946 انتقل الدكتور ثامر واخوانه من اسبانيا الى القاهرة.

مؤتمر الحركات الوطنية في المغرب العربي بالقاهرة :

وفي عام 1947 اجتمعت قيادات الحركات الوطنية بالمغرب العربي في القاهرة

لعقد مؤتمر لتوحيد كفاحها ورسم خطط نضالية واشترك ممثلون عن حزب الاستقلال المغربي وحزب الدستور التونسي بشقيه القديم والجديد وانبثق عن هذا المؤتمر لجنة سميت بلجنة تحرير المغرب العربي افتتحت مكتبا آخر بنفس الاسم في دمشق وترأس هذه اللجنة البطل عبد الكريم الخطابي. وقد واصلت الحركات الوطنية في المغرب العربي عملها الوطني في المشرق وهو التعريف بقضايا المغرب العربي في المشرق وقد وجدوا كل دعم ومساندة من الجامعة العربية ومن الحركات الوطنية في المشرق العربي وكان يساعد الدكتور ثامر في مكتب تونس بلجنة تحرير المغرب العربي المرحوم المناضل يونس درمونه الذي انشق على حزب بورقيبة وأسس مكتب تونس الحرة للتعريف بقضايا الحرية بالمغرب العربي والمناضل ابراهيم طوبال الذي كان شعلة من النشاط في خدمة قضية المغرب العربي في القاهرة. وكانت هنالك عناصر أخرى من بينها رشيد ادريس وحسين التريكي ومراد بوخريس.

وأسس طلبة المغرب العربي بالقاهرة رابطة العمل في سبيل قضية المغرب (وكان ضمن هؤلاء الطلبة تونسيون وليبيون ومغاربة وجزائريّون نخص بالذكر منهم منصور رشيد الكخيا من ليبيا وحمودة الطاهري وأحمد صوه من تونس وقد كان لجهود هذه الرابطة ان ربطت الحركة النضالية لطلاب المغرب العربي بالحركة النضالية لطلاب المشرق العربي وأسس الشيخ الخضر حسين جبهة شعبية سماها جبهة الدفاع عن شمالي افريقيا. واستمر هذا العمل للحركات المغربية في الخارج متضامنا متعاونا. وفي سنة 1947 سافر محمد المصمودي بصحبة الدكتور شوقي مصطفاي الجزائري الى ايطاليا للاتصال بالطلبة العرب هناك وقد وجدوا تجاوبا من الطلبة الليبيين الذين يزاولون دراستهم بايطاليا واجتمعوا هنالك بعبد اللطيف رشيد الكخيا الذي أسس جمعية في روما للتعريف بقضايا المغرب العربي وحقيقة الاستعمار الفرنسي واستمر هذا العمل في الخارج الى فترة الاستقلال. وفي باريس تولى جلولي فارس ومحمد المصمودي بالتعاون مع الحركة الجزائرية والحركة الوطنية المغربية العمل على كشف مساوىء الاستعمار. والاتصال بالأحزاب التقدمية في أوروبا. وكان معهم المرحوم الحسين الغويل (من منزل جميل) وفي بروكسل تولى أحمد بن صالح نفس المهمة للتعريف بقضية المغرب العربي وفي ستوكهولم تولى علي بن سالم التعريف بقضية المغرب العربي وكسب الانصار لها بالدول السكندنافية. وفي نيويورك أسس الصحافي التونسي العابد بو حافه لجنة للدفاع عن شؤون شمالي افريقيا. ثم السيد الباهي الأدغم الذي أسس مكتبا في نيويورك والرشيد ادريس اسس مكتبا في جاكرتا باندونيسيا والطيب سليم مكتبا في الهند والدكتور حافظ ابراهيم

راجـح لجنة للدفاع عن قضايا المغرب العربي بمدريد. وأسس علي الزلبطني مكتبا بمدينة طرابلس ـ ليبيا. وقد كانت هذه المكاتب كلها تعمل وتدعو لتحرير المغرب العربي. ولم يقتصر عملها على الدعاية وكسب الانصار لقضايا المغرب العربي بل تعداه الى العمل على تكوين اطارات كفؤة من خريجي الجامعات والمعاهد العليا وتدريب المتطوعين على حمل السلاح وجمع السلاح بطرق مختلفة ونقله الى داخل البلاد.

وقد وجدت كل دعم ومساندة من طرف الهيئات والمنظمات والاحزاب العربية. خاصة بعد ثورة 23 يوليو ووصول جمال عبد الناصر الى الحكم في مصر. وقد كانت هذه المكاتب تعمل بحرية كاملة في القاهرة ودمشق وطرابلس ووقف الشعب العربي في ليبيا وقفة شجاعة الى جانب اخوانه في تونس والجزائر والمغرب ولم يتوان عن تقديم أي دعم بالرغم من احتلال الاستعمار البريطاني والامريكي لقواعد عسكرية في ارضه.

اذ يعتبر استقلال ليبيا في سنة 1952 نقطة تحول في تاريخ الحركة الوطنية كلها بشمال افريقيا. بعد هذا التاريخ أصبحت ليبيا مركزا من مراكز التجمع المعادي للاستعمار وساحة من ساحات النضال منها انطلقت المساعدات والامدادات وفيها وجد المناضلون الحماية والأمن.

وأعطت مصر جيشا وشعبا وحكومة دعما مطلقا لحركة النضال في المغرب العربي وتعرضت مصر بسبب مواقفها المعادية للاستعمار الفرنسي الى التهديد والوعيد. وكان من الأسباب التي دفعت بالاستعمار الفرنسي الى المشاركة في عدوان السويس هو تأييد مصر لثوار الجزائر ومساعدتهم بالسلاح والعتاد وتعرضت بور سعيد المجاهدة للقصف الجوي والاحتلال وانتصرت ارادة الشعب العربي الذي وقف صامدا موحد الصفوف في وجه العدوان.

وشاركت سوريا مشاركة فعالة في دعم حركات النضال بالمغرب العربي وكان دور الحركة القومية العربية بجميع احزابها وتنظيماتها بارزا في تأييد هذا النضال. من حزب البعث الى حركة القوميين العرب الى المنظمات الشعبية والنقابية. الى العناصر المستقلة.

وشارك شعب العراق بجميع منظماته كذلك في حركة النضال بالمغرب العربي وقدم مساعدات هائلة في هذا السبيل.

وشاركت بلدان عربية أخرى مثل الكويت في دعم هذا النضال ووقف الشعب العـربي كله من المحيط الى الخليج فخـورا بنضـال المغـرب العربي مباهيا بصموده واستبساله دفاعا عن حريته وكرامته بل دفاعا عن حرية الامة العربية كلها وحقها في الوحدة والتقدم . . .

الفصل التاسع
نضال الزيتونية ضد الاستعمار

الصدى الأوروباوي والصدى الزيتوني :

لقد كانت القيروان هي العاصمة الحضارية الأولى في المغرب العربي وهي التي انتشر منها نور المعرفة في المغرب العربي والاندلس. ومن مشاهير القيروان الامام سحنون وأسد بن الفرات. وفي خلال القرن الخامس الهجري بعد الزحف الهلالي. انتقل مركز الاشعاع الفكري الى جامع الزيتونة بتونس. ومنذ ذلك التاريخ يعتبر جامع الزيتونة مقصد طلاب العلم والمعرفة من جميع أقطار المغرب وافريقيا الاسلامية. وقد بدأ جامع الزيتونة في القرن الخامس ينشر رسالته ومن أشهر العلماء الذين تخرجوا منه ودرسوا فيه. الامام بن عرفه صاحب « الحدود الفقيهة الدقيقة » والعلامة عبد الرحمن بن خلدون صاحب التاريخ الشهير « ديوان المبتدأ والخبر» والمقدمة ذات الشهرة والصيت. ومن أشهر الثوار الزيتونيين « علي بن غذاهم » صاحب الثورة المشهورة ضد ظلم العائلة المالكة وطغيانها.

ومن أشهر القادة الزيتونيين العظام الشيخ عبد العزيز الثعالبي زعيم الحركة الوطنية في تونس ومؤسس الحزب الحر الدستوري القديم ومحي الدين القليبي والشيخ راجح ابراهيم. والكاتب الكبير الاستاذ محمد المنصف المستيري صاحب جريدة الارادة لسان حزب الدستور القديم وغيرهم . . ولا شك ان جامع الزيتونة قد لعب دورا كبيرا وعظيما منذ انشائه في القرن الثاني للهجرة في تثبيت دعائم القومية العربية والثّقافة العربية والاسلامية بطرق ووسائل مختلفة ففيه تتمثل اسمى معاني المجد القومي. كما تتمثل فيه أعرق القيم الروحية واسماها. له من التقديس في نفوس الناس

ما للدين الاسلامي نفسه من قدسية . . فيه تتمثل عظمة الأمة ومجدها العريق التليد. كما تتمثل فيه روحها الحية النابضة بكل معاني الحضارة والقيم الثقافية العليا. واذا القينا نظرة عن التركيب الاداري للبلاد التونسية لوجدنا ان الزيتونيين يمثلون النسبة الكبرى بين المثقفين. منهم معظم معلمي اللغة العربية. والاكثرية من القضاة وموظفي المحاكم والمحامين والعدول الموثقين ومعظم رجال الحرس الوطني والشرطة. ونسبة كبيرة من الموظفين الاداريين وأكثر الأدباء والكتاب. ويكفي الزيتونة فخرا ان رجال النهضة الاصلاحية في تونس كلهم من الزيتونة . . الشيخ سالم بو حاجب والشيخ قبادو والشيخ بيرم الخامس. كما ان شاعر تونس الأكبر شاعر الثورة والشباب أبا القاسم الشابي من الزيتونة.

ولا اغالي ان قلت ان كل عمل نضالي ضد قوى الاستعمار الأجنبي بالبلاد تمتد جذوره الأولى إلى جامع الزيتونية فهو بصفته الأمين على التراث القومي والحضارة العربية الاسلامية. وبحكم موقفه هذا يجد نفسه دائما في الصف المقابل للتجمعات الهادفة الى محو الذاتية القومية ومسخ التراث. سواء كانت هذه التجمعات باسم الكنيسة « المؤتمر الافخارستي » والكنيسبة منها براء أو كانت باسم مجاراة روح العصر وليست في الحقيقة الا قناعا تختفي خلفه محاولات المسخ والتشويه للكيان القومي وتقوية النفوذ الأجنبي على حساب التطور الذاتي من الداخل. وهو التطور الذي ساعدت قوى الاحتلال الأجنبي والوساطة الاجنبية اللذان استمرا قرونا على جعله امرا عسيرا فما كان الا ان تأخرت الأمة عن الركب الحضاري الزاحف. بل أن العلوم والمعارف انتكست نكسات فادحة بسبب اندثار التراث على يد المحتل.

ولكن الجمود كان أحيانا نابعا من داخل جامع الزيتونة نفسه. فانعدام العنصر العبقري الخلاق في بعض فترات التاريخ وفشل قادة الفكر داخل الجامع في جلب أي تطوير لمناهج الدراسة والانفتاح على النهضة العلمية والفكرية في أوروبا في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر جعل جامع الزيتونة يفقد مكانته كجامعة للعلوم والمعارف على اختلاف انواعها. تحيط باخر ما وصل اليه العلم من تطور ليصبح معهدا للحفاظ على التراث.

فخريج جامع الزيتونة رجل وثيق الصلة بوطنه شديد التعلق بامجاده محيط بعلوم التراث ـ مستعد لحمل أعباء النهضة على كتفيه. ولكن سرعان ما ينوء به الحمل لأنه لا يملك من وسائل المعرفة ما يمكنه من مواجهة المشاكل التي تسبب فيها التطور العلمي في أوروبا. ولهذا فهو لم يكن رجلا مثقفا بقدر ما كان رجلا وطنيا شديد الارتباط بالشعب والتراث.

وهذا الوضع الذي كان عليه رجل الزيتونة هو الذي جعله دائما في الصف المعادي للاستعمار. يقف من كل ما هو أجنبي موقف الحذر والحيطة. ولم تكن الادارة الفرنسية لتثق فيه أو تعول عليه أو تمنحه من الوظائف الرسمية الحكومية وظيفة واحدة. فكان مجال عمله الطبيعي القضاء في المحاكم الاسلامية والتدريس في الزيتونة والتوثيق العدلي. أما الوظائف الأخرى فكانت للفرنسيين والتونسيين المتخرجين من المدارس الفرنسية. لان هؤلاء الاخيرين كانوا على عكس الزيتونيين. كرعوا من نبع الثقافات الفرنسية والأجنبية وتشبعوا بروح العصر ولكن ارتباطاتهم القومية ضعيفة ومعرفتهم بالتراث القومي أضعف والفرق شاسع بينهم وبين أبناء جلدتهم. كانوا أشبه بالأجنبي المحتل منهم بأبناء جلدتهم . . . ولما كان جامع الزيتونة ممولا من مشاريع الأوقاف والأكرية والعقارات الموقوفة. فقد بقي حتى العقد الخامس من القرن الحالي مستقلا ماديا عن الادارة الفرنسية المباشرة. ولهذا احتفظ بشخصيته وطابعه الخاص فلم يكن لدراسة الفرنسية ولا لاية لغة اجنبية أخرى في مناهجه الدراسية نصيب.

الاصلاح الزيتوني :

بالرغم من جمود أساليب الدراسة ومناهجها في الزيتونة فان ذلك لم يمنع هذا المعهد الجليل من ان يوجه الحركة الوطنية التونسية بروحه وتعاليمه وقيمه ورجاله منذ الاحتلال الفرنسي حتى ظهور الحزب الدستوري الجديد سنة 1934. فقادة الحزب الدستوري القديم وفي طليعتهم الشيخ عبد العزيز الثعالبي كلهم من خريجي الزيتونة . . والانتفاضات الشعبية والثورات المسلحة التي قامت في فترات مختلفة أثناء الاحتلال والتي كانت تستهدف المستعمر وظلمه وطغيانه . . كانت إقتبست من روح الزيتونة وما تمثله من قيم خالدة ما ساعدها على ان تطلق شرارتها الأولى. وبالرغم من احاطة بعض أبناء الزيتونة بالثقافة الفرنسية أمثال الشيخ عبد العزيز الثعالبي قائد الحزب الدستوري القديم فانه لا قادة الحركة الوطنية ولا المسؤولين على تسيير جامع الزيتونة عملوا حقا ما فيه الكفاية لادخال اصلاحات جديدة على أساليب التدريس ومناهج الدراسة بالجامع. ولعل السبب في ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى عدم توفر المدرسين الاكفاء للقيام بهذه المهمة التي كانت تتطلب حدا أدنى من الالمام بالعلوم العصرية والقدرة على تلقينها باللغة العربية وهو ما لم يكن متوفّرا في تونس ولا في عموم الوطن العربي نظرا للضعف الذي كان يشكو منه . .

هذا بالاضافة إلى وقوف الاستعمار حجر عثرة في سبيل هذا التطوير لمنع اللغة العربية من ان تكون اداة للنهضة المنشودة . .

ولعـلّ أقدم عمل اصلاحي عرفته الزيتونة هو انشاء معهد « الخلدونية » ليكون تابعا لها ومتعاونا معها على تحقيق نهضة ثقافية أحسن بالبلاد فكان للخلدونية معهد ثانوي مستقل يدرس فيه طلبة الزيتونة العلوم العصرية من طبيعة وكيمياء ورياضيات وتـاريخ وجغرافيا ولغات أجنبية تنتهي بالاحراز على شهادة البكالوريا العربية التي تهيء الطلبة للالتحاق بالجامعات العربية في المشرق للتخرج في هذه المواد ومن ثم يمكن امـداد جامـع الـزيتـونـة بمـدرسـين قادرين على تحقيق الاصـلاح المنشـود بالـزيتـونة. وفي سنة 1933 وبعد كفاح شاق استطاع رجال الاصلاح بالزيتونة ان يحرزوا على موافقة الحكومة على برنامج الاصلاح الذي طالبوا به. وفي سنة 1947 أدخـل على معاهدها الثانوية التي تكاثرت لتشمل كل أنحاء البلاد إلى جانب فروع بالجـزائـر تدرس العلوم الـطبيعية والكيمياء والاحياء والرياضة والتاريخ والجغرافيا والفلسفة واللغات الأجنبية. وبهذا أخذت الزيتونة في تكسير عقدة النقص التي لحقت بها بسبب عدم ملاءمة برامجها للحياة العصرية.

الزيتونة والمؤتمر الافخارستي :

كان الاستعمار الفرنسي قد قرر ان تكون سنة 1930 وهي السنة التي مضى فيها على احتلاله للبلاد التونسية خمسون عاما مناسبة ليثبت فيها للرأي العام رسوخ قدمه ونجاح خطواته الأولى الرامية إلى فرنسة التونسيين عن طريق التنصير. كما سعوا إلى اثبات فشل الثقافة العربية. والنهضة عن طريق تطوير التراث وملاءمته لروح العصر. فسعوا إلى عقد مؤتمر بتونس سمي المؤتمر « الافخارستي » وقد فشل هذا المؤتمر فشلا ذريعـا في تحقيق أهدافه على مستوى الفكر والعمل. ويرجع السبب في فشل هذه الحملة الصليبية إلى الحملات الصحفية العنيفة التي قادها المثقفون التونسيون وفي طليعتهم أبنـاء الـزيتـونة والتي استهدفت فضح المؤتمر وتفنيد دعاويه. وكان للدور العظيم الذي لعبه جامع الزيتونة في التصدي للمؤتمر أثر بالغ في نفوس التونسيين. وقـد استطاع أبناء الزيتونة ان يلتقوا مع المؤتمرين في حوار فكري كانت نتيجته ان افحموهم وأثبتوا لهم فيه افلاس الفرنسة وفشل سياسة محو الذاتية التونسية والقضاء على مقومات البلاد.

الزيتونة والتجنيس.

وفي سنـة 1932 التف الـطلبة الزيتونيّون ومدرسوهم حول الحزب الدستوري القديم في مناهضته لقانون التجنيس الذي أصدرته الحكومة الفرنسية قصد فرنسة التـونسيين. وساهموا مساهمة فعالة في اظهار ما يهدف إليه هذا القانون من تقسيم

الشعب وإذابة العنصر الوطني في الكيان الفرنسي. وذلك بالرغم من الموقف المتخاذل الذي وقفه بعض الشيوخ الذين دفع بهم سوء فهمهم لما ينجر عن هذا القانون من أخطار على المستوى الوطني فراحوا يفتون في ان المتجنس لا يعد كافرا ويجوز دفنه في مقابر المسلمين. وقد وقف الشعب وقفه* رجل واحد ومنع دفن بعض المتجنسين في مقابره مما أجبر فرنسا على اتخاذ قرار بتكوين مقابر خاصة بالمتجنسين.

الزيتونة والحركة الاجتماعية والعمالية :

ولا بد هنا من الاشارة إلى الدور الخطير الذي لعبه بعض رواد الزيتونة في حركة الاصلاح الاجتماعي والثقافي. وفي مقدمة هؤلاء أبو القاسم الشابي والطاهر الحداد.

الأول أثار بكتيّبه « الخيال الشعري عند العرب » ضجة كبرى في الأوساط الأدبية والفكرية لما احتوى عليه من اراء فحواها ان الأدب العربي خال من الخيال الشعري. مغرق في المادية لا يقوى على مجاراة الآداب الغربية.

وهاجمته الصحف الدستورية مهاجمة عنيفة وكالت إليه التهم الخطيرة. وأبو القاسم الشابي نفسه واجه تهم الالحاد من طرف بعض القوى المعادية للتجديد بسبب قصائده ..

اما الطاهر الحداد وهو أحد رفقاء محمد علي الحامي مؤسس الجامعة العامة للعمال التونسيين. فقد تعرض إلى اضطهاد شديد بسبب كتابه « امرأتنا في الشريعة والمجتمع » وهو كتاب يحتوي على جزئين جزء في التشريع والآخر في الاجتماع.

في القسم الأول يتناول موضوع تطوير التشريع الاسلامي بحيث يلغي العمل ببعض النصوص الصريحة إذا تعارضت مع المصالح المستجدة التي يقرها العقل وتتلاءم مع مقاصد الشرع. وقد تناول مسائل من أحكام الشريعة تتعلق بالمرأة مثل مسألة تعدد الزوجات ومسألة تنصيف الميراث فأبدى رأيه في ضرورة العدول عما يقتضيه النص فيها.

اما القسم الاجتماعي فقد حلل فيه أطوار حياة المرأة التونسية منذ تولد إلى أن تصير أما ..

وكان لظهور هذا الكتاب حركة فكرية كبيرة في أوساط جامع الزيتونة وسعت « النظارة العلمية » لدى الحكومة لتحصل على امر منها بمصادرته فلم تفلح. لكنها لم تقف عند هذا الحد بل شكلت لجنة من كبار علماء الشريعة لتصرح برأيها في الكتاب.

فكان ان نظرت فيه وقدمت تقريرا احتوى على ماخذها عليه . وترتب على تقرير اللجنة سحب شهادة الطاهر الحداد الزيتونية وحرمانه من حقه في العمل . وكتب بعض رجال الشريعة كتبا في الرد عليه مثل الشيخ محمد الصالح بن مراد الذي ألف كتاب « الحداد على امرأة الحداد » والشيخ عمر بري المدني مؤلف كتاب « سيف الحق » .

أما أنصار التجديد فقد التفوا حول الطاهر الحداد وأقاموا حفل تكريم حضره جمع غفير من المفكرين . وألقيت فيه قصائد تشيد بالمؤلف وسعة مداركه فما كان الا أن تعرض كل من حضر هذا الحفل للتهجم الشديد من طرف بعض العناصر في الحزب الدستوري القديم . . وللطاهر الحداد مؤلف آخر بعنوان « العمال التونسيين وظهور الحركة النقابية » تناول فيه بالتفصيل أوضاع العمال التونسيين المزرية . وقد دافع دفاعا شديدا عن العمال وسلط الضوء على مشاكلهم الاجتماعية والاقتصادية ويعتبر الحداد أول مؤرخ تونسي للحركة العمالية عضدا ونظيرا لمحمد علي الحامي الذي دافع عن حركته في كتابه هذا دفاعا قويا .

وكان لاختيار الخلدونية لتكون مقرا لانعقاد المؤتمر التأسيسي للاتحاد العام التونسي للشغل بزعامة فرحات حشاد في 20 يناير سنة 1946 أكثر من مغزى واحد . فلقد سعى المؤتمرون وأغلب عناصرهم القيادية من الزّيتونة إلى التركيز على مدى ارتباط « المولود الجديد » بالقيم والمبادئ الروحية والحضارية النابعة من صميم الأمة العربية وصفاء الاسلام . وكان في ذلك تحد للقوى الاستعمارية والفرنسية وتحذير للنقابات الفرنسية من مغبة التمسك بموقفهم المصر على ابقاء العمال التونسيين تحت سيطرتها لتستمر في استغلالها البشع لهم . كما كان فيه تطمين للشعب وللقوى الوطنية بالبلاد بان العمال سوف يعملون على تمتين الصلة بأمتهم وتقوية الروابط التي تشدهم إلى قيمها الروحية الخالدة كما انهم يلتزمون بالعمل على احياء مجدها والمساهمة في النضال من أجل حريتها وكرامتها .

وانعقد في 28 اغسطس من نفس السنة المؤتمر الوطني الكبير المعروف « بمؤتمر ليلة القدر » وضم كل القوى الوطنية على اختلافها وقد شارك الزّيتونيّون مشاركة فعالة في عقد المؤتمر الذي طالب بالاستقلال التام والانضمام إلى الجامعة العربية والمنظمات والهيئات الدولية وتعرض عدد منهم للاعتقال ووجهت إليهم تهمة التآمر على أمن الدولة . وتضامن معهم الشعب العربي التونسي بجميع منظماته العمالية والوطنية وأعلن الاضراب العام .

وهكـذا فان الحـركة العمالية والاجتماعية بتونس كانت في نشأتها زيتونية ثم انها وجـدت من أبنـاء الزيتونة من الرّعاية ما مكنها من الاستمرار في السير في طريقها الـوطني الصحيح ومن تحمل أعباء النضال النقابي والوطني ضد القوى الاستعمارية الغـاشمـة وواجـه أعضـاؤهـا بقـوة المؤمن وصـبره وجلده التهديد والارهاب وحتى الاختطاف والاغتيال وما ضعفوا وما استكانوا . .

الجمعيات والمنظمات الزيتونية

على اثر الاضراب العام الذي أعلنه مدرّسو الزيتونة في نوفمبر سنة 1943 واجبروا فيه السلطات الاستعمارية على الاستجابة لمطالبهم ومنحهم حقوق موظفي الدولة بعد ان أيدهم الشعب تأييدا كاملا بالمظاهرات، شعر الطلاب بالزيتونة بالارتباك الذي حدث للاستعمار فتشجعوا وأقبلوا على تكوين الجمعيات الطلابية فأسسوا في سنة 1944 جمعيّة « مكتبة التلميذ الزيتوني » وبعد ذلك جمعية « التوادد الزيتوني » التي أصبحت فيما بعد تسمى بأسم « الاخوان الزيتونيين » واسهمت كل منها في توحيد الطلبة وتنظيم صفوفهم والرفع من مستواهم . . .

حركة صوت الطالب الزيتوني :

كانت موافقـة الحكـومـة على برنامج الاصلاح الزيتوني انتصارا عظيما للزيتونة ورجال الاصلاح فيها . واثر أحداث الصّراع العربي الاسرائيلي في فلسطين وما صاحبه من تحمس شعبي عام لقضية العرب بفلسطين ودعوة إلى مقاومة الصهيونية والرفض لقرار التقسيم . شددت الحكومة قبضتها على الزيتونة التي كانت تعتبرها بؤرة لحركة القـومية العـربية ومصـدر التحريك الشعبي . فأخذت تعمل على عرقلة الاصلاح الزيتوني فقاومت انشاء الفروع ومنعت المدرسين التابعين لادارة العلوم والمعارف من القاء الدروس بالمعاهد الزيتونية ومعهد الخلدونية . كما حرمت على المدرسين المبعوثين من الشرق الدخول إلى تونس مما سبب عجزا كبيرا في انجاز برنامج الاصلاح . . وفي هذا الجـو المليء بالأحـداث الخـطيرة على الصعيدين الـداخلي والعربي شعر الطلبة الزيتونيون بضرورة تكوين تنظيم قوي يدافع عن مصالحهم ويساهم في حركة النضال الشعبي الذي تخوضه البلاد لنيل حريتها والدفاع عن عروبتها فكونوا منظمة اطلقوا عليها اسم « منظمة صوت الطالب الزيتوني » وقد شارك في بعث هذه الحركة عدد من الشباب الزيتوني من مختلف الاتجاهات السياسية ولكن ارتبط اسم الحركة بأشخاص بارزين مثل الشهيد عبد العزيز العكرمي وذلك لصمودهم وثباتهم على مبادئ الحركة

وأهـدافهـا القومية العربية الشاملة بالرغم من الظروف الصعبة والضغوط الشديدة ومحاولات التصفية التي تعرض لها بعضهم ومن قادة الحركة أيضا عبد الكريم قمحة وعبد الكريم قريسة والاخوان الزين وخميس الوسلاتي ويونس الرويسي والشيخ محمد البدوي العامري وغيرهم. ويعد الشيخان عبد العزيز العكرمي الشهيد والشيخ محمد البـدوي هما المؤسسـان للحركة الزيتونية : فاعدم العكرمي ونفي البدوي مشردا. يواصـل نضاله خارج تونس وما لبثت هذه الحركة ان دخلت في صراع مع السلطة بسبب اصرارهم على المطالبـة بالاصـلاحـات وذلـك بتـنظيم الاضرابـات وقيادة المظاهرات واصطدموا مرارا عديدة مع السلطات الاستعمارية وسقط منهم العديد من الشهداء أمثال الدهماني حمزه ومحمد المرزوقي.

وقـد استـطاعـوا بفضـل كفـاحهم المـرير أن يجبروا السلطات الاستعمارية على الاستجـابة لهم وقبلت بتحقيق مطالبهم وأصدرت المراسيم باحداث شعبة التعليم العصري وشهادة التحصيل العلمي والعصري التي تؤهل للتعليم العالي بجامعات المشرق. وفعلا سافر عدد كبير من حاملي شهادة التحصيل إلى المشرق العربي وتخرجوا من جامعـاتـه في جميع الاختصاصات وزاولوا بعد تخرجهم مهنة التدريس بالمعاهد الثـانـوية. كما تخرج عدد آخـر هائـل منهم من الجـامعـة الزيتونية ومعهد البحوث الاسلامية و « معهد الحقوق العربي » و « معهد الفلسفة » التابعة كلها للخلدونية. كما تم انشـاء بنـايات جديدة تكـون معـاهـد وأحياء سكن للطلبة. ولكن الحركة اصطدمت بسبب مواقفها العنيفة بكثيرمن العناصر الوطنية. وكان لاختلاف وجهات النظر في تحقيق الاصلاح اثر في هذا الصدام. وربما كان لاندساس بعض العناصر في حركة صوت الطالب والحزب الدستوري الجديد دور في توسيع شقة الخلاف وبحل النظام الزيتوني انتهى دور الجمعية.

وجملة القول ان جامع الزيتونة بتونس الذي هو أحد أقدم المعاهد التعليمية العربية ونظير الأزهر بمصر وجامع القرويين بالمغرب الأقصى حمل لواء الثقافة القومية ما لا يقل عن اثني عشر قرنا ونصف وحافظ على مقوماتنا الحضارية في الوقت الذي كانت فيه الثقـافـة القومية مهددة بالمحو والشخصية القومية عرضة للمسخ. وقد استطاع جامع الزيتونة انشاء جسر دائم يربط بينه وبين الجماهير الشعبية التي كانت تنظر إليه على أنه الحارس الأمين للتراث القومي وتشعر بعمق الصلة التي تربطها بأبنائه أمثال عبد العزيز الثعالبي والطاهر الحداد وأبي القاسم الشابي وغيرهم.

وقد عمل الاستعمار والرجعية على اعاقة تطوره ومنعه من تعصير مناهجه وأساليبه بحيث تواكب تطور العلم وتستجيب لمتطلبات الحياة العصرية. وبذلك تحول بين اللغة العربية وبين ان تصبح أداة للنهضة الفكرية الشاملة. وتمنع الزيتونيين من قيادة النضال والحركة الوطنية. ولكن ذلك لم يمنع جامع الزيتونة من ان يسهم مساهمة فعالة في الحركة الوطنية بأبنائه وقيمه وروحه. فكان الحزب الدستوري القديم زيتونيا. كما أسهم العنصر الزيتوني اسهاما فعالا في تكوين الاتحاد العام التونسي للشغل. وكان نضال المصلحين الزيتونيين مريرا وفي الوقت نفسه الذي انتصرت فيه حركة الاصلاح الزيتوني وأخذت تؤتي أكلها وبدأ يظهر جيل جديد من أبنائها أكثر تفتحا وأشد تلاؤما مع متطلبات العصر. كان القرار قد اتخذ من أعلى سجل النظام الزيتوني تدريجيا. وهكذا بقرار قاس ساهمت ولا شك في صنعه الاحقاد والدسائس تم القضاء على نظام تعليمي عريق كان من الممكن أن يتطور لتصبح معاهده الثانوية على غرار المدارس العريقة في أوروبا مثل مدارس النحو بأنجلترا وجامعته على منوال الجامعات الأوروبية الشهيرة كالسوربون بفرنسا واكسفورد وكمبردج بانجلترا. كما قطع جامع الأزهر بمصر أشواطا كبيرة في هذا السبيل. وهكذا.. وبجرة قلم.. وببساطة ما بعدها بساطة حل جامع الزيتونة الذي حمل مشعل الثقافة العربية والاسلامية اثني عشر قرنا (1) ونصف القرن وظل طوال هذه الحقبة من الزمان محط رحال طلاب العلم والثقافة من الجزائر وليبيا وافريقيا منذ تأسيسه سنة 114 للهجرة.

الفصل العاشر

المغرب العربي

وحدة النضال هي الطريق الوحيد لتحقيق الوحدة والتقدم

تطلق كلمة المغرب العربي أو شمال افريقيا على الاقطار الأربعة في التقسيم السياسي الحديث الممتدة من السلوم على حدود مصر الغربية الى الجزر الخالدات والساقية الحمراء ووادي الذهب. هذا المغرب العربي الاشم العريق بالامجاد العربية كان مبعث الحضارات ومهد المدنيات ورمز البطولة، ولطالما حمى عرين الوطن العربي وذاد عن ترابه. ولقد دحر شعبه أبدا كل غاز دخيل فطرد اليونان والرومان والوندال وغيرهم. وقضى على كل استعمار أو مستعمر دخيل حلم أو تمنى استعباده، فطرده شر طردة من أرضه وهاجم المغيرين، وصمد في وجه المعتدين، وجعل من ترابه مقبرة لكل الغزاة. ولقد عمل الاستعمار منذ القدم على تجزئته خوفا من وحدته، ولكنه استطاع أن يقضي على أحلامهم ويكذب أمانيهم كما فعل مع الطليان والاسبان والفرنسيين في العصر الحديث.

ولكن كانت الكارثة دائما هي ـ سواء في العصر القديم أو الحديث ـ الحكم المطلق الفردي لممثلي الطبقة الاقطاعية والبرجوازية التي لا تنظر للقضايا الوطنية الا من زاوية مصالحها الذاتية. فهذا الحكم هو الذي عرض البلاد أبدا للضعف والاحتلال والاستغلال والتردي، وزيف تاريخها المجيد. فليس تاريخ المغرب هو تاريخ البايات أو الدايات أو السلاطين والباشوات وانما هو تاريخ جماهيره وحركاته الشعبية والعمرانية والثقافية، وهو تاريخ نضاله الشعبي الذي ينطق بالامجاد والمفاخر والتي سجل فيها هذا المغرب الاشم أروع البطولات وأغلى التضحيات في ساحات الجهاد والتحرير.

وكـانت ثمـرات هذا النضال الشعبي العنيد والمجيد يسرقها دائما هؤلاء الحكام المتحالفون مع الاستعمار ضد شعوبهم . وتاريخ ليبيا والتضحيات الغالية التي قدمها شعبهـا المجاهد قد سرقها وزيف تاريخها ملك عميل ربط مصيره بمصير الاستعمار وجعـل من نفسـه هو التـاريخ ونسي أرواح الشهداء وتضحيات المناضلين والجهاد الشعبي المسلح ، الى أن كان فجر الفاتح من سبتمبر سنة 1969 حيث أنهى تنظيم الضبـاط الـوحدويين الأحرار من أبناء الشعب ذلك الحكم العميل الى الأبد وطرد القواعد الاجنبية التي كانت تدعم بقاءه وأعاد هذا القطر العربي الى وضعه الطبيعي . وان شعبنا العربي في الجزائر الذي قدم البطولات الفريدة قد استطاع بأرواح مليون ونصف شهيد من أبنـائـه ومن خلال التجـارب القاسية المريرة ومن خلال التنظيم المحكم الدقيق لحركة تحريره الوطنية أن يهزم الاستعمار الفرنسي ويدحره . واستطاعت القاعدة الشعبية أن تتجاوز سلبيات قيادات الحركة الوطنية التقليدية التي توقفت عند المطالب والكلام وعندما بادرت القاعدة الشعبية وقامت بالثورة في سنة 1954 قضت على اسطورة الزعامة وتحمل الشعب المناضل مسؤولياته وخاض المعركة وانتصر هذه المرة بنضاله وبتضحيات جماهير الشعب وقد حل المشكلة وانتهى تقديس الزعيم لانه لا يوجد زعيم الا الشعب .

وان شعبنا العربي في الجزائر وليبيا ينبغي أن يكون دعما قويا لحركة التحرر الوطني في قطري المغرب العربي اللذين ما زالا يرزحان تحت حكم رجعي عميل لم تستكمل فيه قوى الثورة بعد نصرها ولم يتول الشعب مقدرات حكم نفسه ، وما زالت الثورة في هذين القطرين لم تحقق أهدافها . والتنصل من هذه المسؤولية معناه أنه لم تقع ثورة جذرية في هذين القطرين أو أن الثورة فيهما تحولت الى ثورة قطرية لا تخدم الا الأقليمية الضيقة لأن في تحريرهما استكمالا لحريتهما . . وكذلك فان قوى الثورة في أي قطر من هذه الأقطار العربية لم تنتصر الا بدعم من مناضلي الأقطار الأخرى .

فما زال الشعب العربي في تونس يعاني الأمرين من حكم فاشي ارهابي يسير بتونس ضد إرادة شعبها حيث تنكر هذا الحكم لكفاح الشعب وربط البلاد بعجلة الاستعمار الجديد . ولكن بالرغم من كل ما قام ويقوم به هذا الحكم فالشعب العربي في تونس هو الآن في طليعة الكفاح من أجل الخلاص ليعود بتونس الى وضعها الطبيعي . ان تونس بحـكم تاريخهـا ووضعهـا هي جزء من وطن عربي واحـد من المحيط الى الخليج . . ومـا زال الشعب العـربي المغـربي يعاني من حكم ملكي اقطاعي معاد لمصالح الجماهير الشعبية أبشع أنواع الظلم والقهر والقمع وتصفية القوى الوطنية الحية في المغرب أمثال الشهيد الغالي المهدي بن بركة وغيره من المناضلين الذين دفعوا ثمن

استقلال المغرب دماءهم الغالية. وان وحدة النضال سواء كانت ضد المستعمر الأجنبي أو حلفائه وأذنابه من القوى الرجعية والبرجوازية المتسلطة كانت وستظل هي الطريق الوحيد لتحقيق الوحدة والتقدم. وقد كانت تونس التي يراد اليوم فصلها وعزلها عن أمتها وفصم عرى الروابط الأبدية بأمتها في طليعة دعاة الوحدة منذ فجر الحركة الوطنية ولم يقطعوا صلتهم بالحركات التحررية في الوطن العربي بل ساهم عرب تونس بقسط كبير في نضالات الامة العربية سواء على صعيد المغرب العربي أو المشرق العربي. وهذا ان دل على شيء فانما يدل على الوعي القومي الوحدوي عند التونسيين، لقد قدموا تضحيات هائلة من أجل التحرير الوطني في المشرق والمغرب. لقد اشترك العرب التونسيون في الكفاح الجزائري عندما سقطت الجزائر في يد الاستعمار الفرنسي وكانت مفتاحا في يد الاستعمار للتوسع في افريقيا وقد اشتركوا في ثورة عبد القادر الجزائري وثورة المقرافي والشيخ الحداد. واشترك التونسيون في الجهاد الليبي عندما اعتدى الاستعمار الايطالي الفاشيستي على الارض العربية الليبية، لقد ساهمت القبائل العربية في الجهاد الجزائري وبعدها في الجهاد الليبي واعتبروا ان مشاركتهم في هذا الكفاح هو جزء من الضريبة التي يدفعها كل عربي للدفاع عن أرض العرب حيثما كانت مشرقا أم مغربا، وقد تجلى هذا الكفاح المشترك عندما كانت قبائل خمير في شمال تونس ترد الغزو الاستعماري الفرنسي عن الجزائر. وقد تجلى كفاح القبائل العربية التونسية القاطنة في الجنوب من حوامد ومحاميد وبني زيد في الجهاد الليبي ضد الطليان. وفي الجهاد المغربي الذي قاده البطل عبد الكريم الخطابي في الريف المراكشي. مشاركة التونسيين في هذا الجهاد كانت مشاركة فعالة حيث فر عشرات الجنود التونسيين من الجيش الفرنسي والتحقوا برجال عبد الكريم الخطابي حيث أبلوا البلاء الحسن.

وعندما حكمت السلطات الفرنسية الاستعمارية على رجال الحركة الوطنية في تونس بالنفي والتغريب واستقر المرحوم «علي باش حمبه» ورفاقه الشيخ صالح الشريف «واسماعيل الصفايحي» والشيخ «الاخضر بالحسين» في اسطنبول كان أول ما فكر فيه هو العمل على اقناع الدولة العثمانية بأن تدعم كفاح عرب المغرب للتخلص من النير الاستعماري وكانت اسطنبول في ذلك الوقت ملجأ لجميع قادة الحركات الوطنية المضطهدين من كافة العالم الاسلامي والوطن العربي وربط صداقات عديدة بقادة الحركات من أمثال (محمد فريد) و (عبد العزيز جاويش) والمجاهد الليبي (سليمان الباروني) و (أحمد فؤاد) و (شكيب أرسلان) وكان هؤلاء المجاهدون يمثلون نزعة التحرر والاستقلال في الوطن العربي وكان (عبد الحميد) يساعد الكثيرين منهم كما

كان حزب الاتحاد والترقي يعطف على رجال الحركة الوطنية في المغرب العربي وخاصة المرحوم (علي باش حانبه) ولما توفر له الجو وجد أنه لا بد من مواصلة العمَل وتكتيل الجهود لخدمة قضية الحرية في المغرب العربي وقد كسب أنصارا كثيرين بما كان يكتبه من مقالات في الجرائد التركية وخاصة جريدة « الشباب التركي » مما أكسبه عطف قادة الحركات الوطنية في الوطن العربي والعالم الاسلامي وعطف الدولة العثمانية وقد ربطت بينه وبين « سليمان البـاروني » و « عبد العزيز جاويش » و « محمد فريد » روابط نضالية حميمة . وكان لا يدع فرصة تمر بها كان له من نفوذ في الدولة العثمانية إلا وسخره لفائدة قضية تونس وليبيا والجزائر والمغرب . وسنة 1916 قررت الحكومة العثمانية ان تكون منظمة لغزو شمال افريقيا وقد ثارت طرابلس الغرب وبرقة وكبد الشعب الليبي الفاشيست الايطاليين أفدح الخسائر، ونتيجة للانتصارات التي سجلها المجاهدون الليبيون على الاستعمار الايطالي الفاشيستي تحررت عدة مناطق من الأراضي الليبية .

فما كان من « علي باش حانبه » ورفاقه إلا ان ذهبوا إلى أنور باشا وطلبوا منه أن يعـين الباروني واليا عاما على المناطق المتحررة في ليبيا والتحق الباروني بليبيا حيث اعتصم بجبال « غريان » ونظم المقاومة ضد ايطاليا وقد ربط « علي باش حانبه » بين رجال الحركة الوطنية التونسية المقيمين في تونس و « الباروني » وأخذ يراسل أنصاره بالتنقل للجزائر وقد قامت في سنة 1917 ثورة « التوارق » بقيادة زعيمهم « مصطفى واعق » وكانت هذه الثورة قد عمت الصحراء كلها من أعالي النيل أدرار في الساحل الأطلسي فاضطربت جميع المناطق الصحراوية الفرنسية واضطر الجيش الفرنسي إلى الانسحاب وقد قتل في ثورة « التوارق » الأب الجاسوس « دونوكو » الذي كان معتكفا في « تامـراست » على ألف كيلو متر من ورجلة في الصحـراء الجـزائـرية مما اضطر الفرنسيين إلى الانسحاب ثم دارت معارك عنيفة في الجنوب الجزائري وفي الجنوب التـونسي وقـد قتـل فيهـا المجاهدون الكولونيل « لوبوف » الذي سمي باسمه برج « البـوف » الذي أصبح معتقلا لقادة الحركة الوطنية فيما بعد وقد استطاع مناضلو المغرب العربي بفضل مجهودات « باش حامبه » والباروني ومن معهم من القادة العرب ان يفتحوا في افريقيا جبهة جديدة لفرنسا وايطاليا وقد شغلت قواتها الاستعمارية زمنا طويلا . في سنة 17 و 18 تشكلت منظمة تعمل على جمع أسرى الحرب المغاربة من ألمانيا وتركيا وتنظيمهم وتزويدهم بالسلاح والذخيرة وارسالهم لميدان الجهاد وكان يرأس المرحوم « باش حامبه » هذه الهيئة بنفسه التي استمرت في النضال إلى ان توفي المرحوم « علي باش حامبـه » سنـة 1918 باسـطنبـول . وقـد شارك الليبيون والجـزائـريون والتـونسيون جنبا إلى جنب وعندما وضعت الحرب في طرابلس أوزارها كان البطل

الشعبي التونسي « الدغباجي » الذي شارك في الجهاد الليبي ضد الطليان مع « خليفة بن عسكر » قد عاد إلى تونس لمقاتلة الفرنسيين واصطحب معه المجاهد الليبي « عمر الحامدي » الذي كان رفيقا « للدغباجي » في الجهاد وهناك في تونس اشتراكا معا في الحركة التي قادها « الدغباجي » ضد الفرنسيين وأبليا في جهادهما البلاء الحسن. وتجلت وحدة الكفاح بين أبناء الشعب العربي الواحد الليبي والتونسي والجزائري والمغربي.

وفي سنة 1916 قامت ثورة شعبية في الجنوب التونسي اشتركت فيها القبائل الليبية : الحوامد والمحاميد الى جانب حوامد ومحاميد تونس و « بن زيد » و « ورغمة » والمرازيق. ولم يكن هناك احساس بأي فارق بين التونسي والليبي والجزائري والمغربي. كان كل واحد يشعر بأنه ينتمي الى وطن واحد أراد المستعمرون احتلاله وتقسيمه واستمر هذا الكفاح المشترك في المغرب العربي طيلة الاحتلال الاستعماري وتربى على الصعيد السياسي نفس الشعور وقد تجلى في مقاومة التونسيين في الخارج ضد الاستعمار، لا في تونس وحدها ولكن في المغرب العربي كله وفي الوطن العربي عامة. ونرى « محمد باش حامبه » عند استقراره في جنيف يؤسس لجنة للدفاع عن المغرب العربي وأسس هناك « مجلة المغرب » وقد جعلها صدى لجهاد أبناء المغرب، فقد كتب « محمد باش حامبه » في افتتاحية العدد الأول في مايو سنة 1916 يقول :

« . . ومن الضروري لأولئك المتطلعين نحو عهد الحرية والعدالة أن يحاولوا تبليغ أصواتهم. ولهذا رأينا من المفيد تأسيس هذا الجزء من المجلة التي ستكون اللسان المعبر عن مطالب أهالي المغرب، هذا الجزء من افريقيا الشمالية الشامل لمراكش والجزائر وتونس وطرابلس والمستعمر اليوم أو في طريقه نحو ذلك . . من فرنسا واسبانيا وايطاليا. ان خمسة وعشرين مليونا تقريبا من المسلمين يؤلفون وحدة متناسقة لحمتها الدين واللغة والتقاليد يعيشون تحت حكم أجنبي ومحرومين من جميع الحريات وخاضعين لرحمة ادارة محلية متعسفة لم تستطع فرنسا واسبانيا في المغرب الأقصى وايطاليا في طرابلس أن تخمد نار مقاومة العرب من أجل استقلالهم والتجربة الطويلة في تونس والجزائر تسمح اليوم أن تحكم على الاستعمار الفرنسي من خلال مواقفه تجاه مصالح الأهالي. اننا نقترح أن نتبع يوميا أحداث شمال افريقيا للتعريف بجميع طرق نظام « القوة ». كما قال « بورده » والمسلط على بلدانه وسنجتهد في نفس الوقت للاعراب عن شعور اخواننا والتعريف بحاجياتهم وآمالهم ».

و « محمـد باش حامبـه » حين أسس « مجلة المغرب » لم يؤسسها لتكون اللسان المدافع عن قضية تونس وحدها وانما أسسها لتكون الناطق باسم أبناء المغرب العربي كله وبأقطاره الأربعة ذلك أن المغرب العربي وان اختلفت أشكال القهر والاستعباد المسلطة عليه واختلفت الـدول الاستعـمارية المتسببـة في هذا القهر والاستعباد فان النتيجة واحدة بالنسبة لجميع أقطاره وهي الضعف والتخلف والفقر، وعندما أسس « عبد العزيز الثعالبي » الحركة الوطنية في تونس كانت هذه الحركة تطالب باستقلال اقطار المغرب العربي الأربعة ووحدتها مع بقية أقطار الوطن العربي. ونجد أعضاء في حزب الـدستـور القديم، أي حزب الثعالبي، من الوطنيين الجزائريين المقيمين في تونس مثل « أحمد توفيق المدني » و « عبد الرحمن اليعلاوي » وكان نضال الثعالبي في المشرق العربي لا يستهدف خدمة قضية أقطار المغرب العربي الأربعة بل خدمة قضايا الـوطن العـربي كله وفي مقـدمتهـا قضية فلسطين التي كانت ترزح آنذاك تحت نير الاستعـمار الـبريطاني. وقـد أسس « مصالي الحاج » في سنة 1923 بفرنسا منظمة سميت « نجم شمالي افريقيا » كانت تعمل على جمع كلمة عمال المغرب العربي المقيمين بأروبا والدفاع عن قضاياهم الوطنية والنقابية.

ونجد الحزب الدستوري القديم في تونس وخاصة أحد زعمائه وهو المرحوم « محي الـدين القليبي » كما أشرنـا سابقا يعمل على دعم الحركة الوطنية الليبية في المهجر وخـاصـة اللجنة التنفيذية للدفاع عن طرابلس وبرقة ومقرها تونس وجمعية الوحدة الليبية بتونس أيضا.

وأسس الـدكتور « الحبيب ثامر » والاستاذ « يوسف الرويسي » مكتب « المغرب العربي » ببرلين وجريدة بالعربية اسمها جريدة « المغرب العربي » وكان الهدف من ورائها خدمة قضايا المغرب العربي كله. ونجد « المؤتمر الوطني بطرابلس » و « جمعية عمر المختار ببرقة » بعد الحرب العالمية الثانية على علاقات وطيدة بعموم الحركة الوطنية بشـمال افـريقيا. اذ كان هذان التنـظيمان همزة وصل بين لجنة تحرير المغرب العربي بالقاهرة والحركات الوطنية في أقطار المغرب العربي. وقد لعب الوطنيون الليبيون دورا كبيرا في الكفاح التحريري لجميع أقطار المغرب العربي.

وقد كان البطل عبد الكريم الخطابي وقادة الحركة الوطنية في تونس والجزائر وخاصة الدكتور « الحبيب ثامر » يعولون كثيرا على استقلال ليبيا وعلى الحركة الوطنية الليبية والشعب الليبي ايمانا منهم بأن ليبيا تصلح بحكم موقعها الجغرافي لتكون نقطة انطلاق للمجاهدين والمدربين على حمل السلاح. وعلى الصعيد النقابي كان المرحوم « فرحات

حشاد » مؤمنا إيمانا عميقا بضرورة توحيد الحركة النقابية في جميع أقطار المغرب العربي وقد عبر « فرحات حشاد » عن رأيه هذا أكثر من مرة وقد قال في محاضرة ألقاها بباريس في 20 ـ 12 ـ 1946 أمام طلبة شمال افريقيا :

« . . هذا وان حركتنا العمالية لا يمكن ان تبقى منكمشة داخل الحدود التونسية وانخراطنا في الجامعة النقابية العالمية سيضمن لتونس مقعدها بين الأمم الاخرى للعمل على تحقيق الحياة الكريمة العامة للطبقة العمالية في العالم. غير ان العمل اليومي لمنظمة نقابية في النطاق المحلي محتاج أيضا الى الاعتماد على وحدة عمال جميع منظمات البلاد ذات الخطوط المشتركة في ميادين الحياة الأخرى وأعني بذلك توحيد الحركة النقابية في شمال افريقيا وهو مشروع عزيز علينا طالما حلمنا به وسوف لا نألو جهدا في سبيل تحقيقه ولا مجال للشك يا اخواني في ان حظ بلدان شمال افريقيا الثلاث مشترك ووثيق الارتباط وقضيتها واحدة على وجه الاطلاق وعلى هذا يجب احكام عقد الرباط الأخوي المتين الذي يربط بين الطبقة العمالية في الأقطار الثلاثة في نطاق جامعة نقابية لشمال افريقيا ».

وكان « فرحات حشاد » يهدف إلى تكوين حركة نقابية موحدة لجميع أقطار المغرب العربي كخطوة لتوحيد العمال العرب في كافة الأقطار العربية. ولقد كان رد فعل العمال العرب في كافة أقطار الوطن العربي عنيفا حين اغتالت عصابة اليد الحمراء الفرنسية الاستعمارية الزعيم « فرحات حشاد » فقامت الاضرابات والمظاهرات في كل مكان وخاصة في المغرب العربي حين اصطدم المتظاهرون بالسلطات الاستعمارية الفرنسية وفي سنة 1952 قام الشعب العربي في تونس بثورته الوطنية للحصول على الاستقلال وتجاوب معه الشعب العربي في المغرب الأقصى فوقعت أحداث الدار البيضاء الدامية وفي سنة 1954 قامت الثورة في الجزائر وكان من الممكن لو استمر الكفاح المسلح في تونس وفي المغرب الأقصى أن يؤدي إلى وحدة الأقطار الثلاثة ومن ثم إلى وحدة أعم وأشمل بين أقطار الوطن العربي، وتجزئة النضال ولا شك كانت أكبر عامل من عوامل ابقاء أقطار المغرب العربي على ما هي عليه اليوم من تجزئة وضعف وتجلت أيضا وحدة الأمة العربية ووحدة أقطار المغرب العربي على الخصوص إبّان ثورة الجزائر الشعبية التي تكبد فيها الشعب العربي في تونس والمغرب الأقصى وليبيا خسائر كبيرة وتعرضوا مثل اخوانهم في الجزائر للعدوان الفرنسي تجلى في أحداث « ساقية سيدي يوسف » وغدامس وغيرها من مراكز الحدود كما شاركوا مشاركة فعالة في الحرب بالمدد والسلاح والعتاد والرجال. واختلطت دماؤهم في ساحات القتال لتؤكد بما لا يدع مجالا للشك ان الشعب العربي

واحد وان اقطاره وحدة لا تتجزأ، برغم دعوات الانفصاليين وأعداء الحرية وأعداء الوحدة والتقدم.

وفي سنة 1947 دعت ضرورة الكفاح لتحرير المغرب العربي إلى تكوين لجنة لتحرير المغرب العربي فاتفقت كلمة جميع الحركات الوطنية على عقد مؤتمر في 15 فبراير ـ 1947 وتم بالفعل عقد هذا المؤتمر الذي حضره جميع ممثلي الأحزاب من مراكش والجزائر وتونس وبعد اسبوع من النقاش أصدروا ميثاقا يربط الحركات ببعضها البعض. وقد رأس بطل المغرب العربي «عبد الكريم الخطابي» هذه اللجنة التي سميت بلجنة «تحرير المغرب العربي» والتي انبثقت عن مؤتمر القاهرة سنة 1947 واتخذت هذه اللجنة مقررات وأرفقها «عبد الكريم الخطابي» ببيان سياسي حدد فيه أهداف هذه اللجنة ومنطلق عملها على الصعيد السياسي والنضالي ولا يسعنا هنا إلا ان ننشر ميثاق القاهرة الذي قرر:

1 ـ بطلان معاهدة الحماية المفروضة على تونس ومراكش وعدم الاعتراف بحق فرنسا في الجزائر.

2 ـ مطالبة الحكومة المغربية والهيئات الوطنية باعلان استقلال البلاد.

3 ـ المطالبة بجلاء القوات الأجنبية عن بلاد المغرب كلها.

4 ـ رفض الانضمام للاتحاد الفرنسي في أي شكل من أشكاله.

5 ـ اعتبار أيام احتلال الجزائر «5 مايو» وفرض الحماية على تونس «12 مايو» وفرض الحماية على مراكش «30 مارس» أيام حداد في جميع أقطار المغرب.

6 ـ تعزيز الكفاح في الداخل والخارج لتحقيق الاستقلال والجلاء.

7 ـ ضرورة الاتفاق بين الأحزاب الوطنية داخل كل قطر.

8 ـ احكام الروابط بين الحركات الوطنية في اقطار المغرب العربي.

9 ـ الاتفاق على غاية واحدة هي الاستقلال التام والجلاء الناجز.

10 ـ تكوين لجنة من قادة الحركات الوطنية مهمتها توحيد الخطط وتنسيق العمل لكفاح مشترك.

11 ـ العمل على توحيد المنظمات العمالية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية في أقطار المغرب العربي وتوجيهها توجيها قوميا.

12 ـ ضرورة وقوف أقطار المغرب العربي جبهة واحدة عند حدوث الأزمات في أي قطر منها.

13 ـ مطالبة الجامعة العربية باعلان الغاء معاهدتي الحماية المفروضة على تونس

ومراكش واعلان عدم شرعية احتلال الجزائر، وتقرير استقلال هذه الأقطار مع تعيين ممثلين عنها في جامعة الدول العربية.

14 ـ عرض قضية المغرب العربي على الهيئات الدولية واستعمال كل ما لدى الجامعة من وسائل لمساعدة اقطار المغرب العربي على تحقيق استقلالها التام.

15 ـ ارسال لجان تحقيق إلى المغرب العربي.

16 ـ عرض الحالة الثقافية بالمغرب العربي على الجامعة العربية ومطالبتها بالعمل على نشر الثقافة العربية وتعميمها في أقطار المغرب العربي وحل مشكلة الطلاب المغاربة الذين يلتجئون إلى المشرق لمواصلة دراساتهم في المعاهد العربية وتذليل ما يلاقونه من عقبات ومصاعب في سبيل كسب الثقافة العربية.

18 ـ شكر جامعة الدول العربية على كل ما بذلته في سبيل المغرب العربي من جهود.

19 ـ تأييد وحدة مصر والسودان.

20 ـ تأييد فلسطين العربية والمطالبة بدعمها وتحريرها.

21 ـ تأييد الشعب الليبي في جهاده والمطالبة بوحدة القطر الليبي واستقلاله التام.

22 ـ تأييد نضال شعوب الهند الصينية في نضالها ضد الاستعمار.

وبعد المؤتمر وجه الأمير « عبد الكريم الخطابي » بيانا إلى قادة الحركات الوطنية في أقطار المغرب العربي هذا نصه :

« في هذا الوقت الذي تعمل فيه الشعوب على تأمين مستقبلها وتتطلع فيه أقطار المغرب العربي إلى استرجاع استقلالها المغصوب وحريتها المضاعة يتحتم على جميع زعماء المغرب ان يتحدوا وعلى كافة الأحزاب الاستقلالية أن تتآلف وتتساند، اذ ان هذا هو الطريق الوحيد الذي سيوصلنا إلى تحقيق غاياتنا وادراك أمانينا.

وإذا كانت الدولة الاستعمارية على باطلها تحتاج إلى التساند والتعاضد لتثبيت سيطرتها الاستعمارية فنحن أحوج إلى الاتحاد وأحق به من أجل احقاق الحق وتقويض أركان الاستعمار الغاشم الذي كان نكبة علينا، ففرق كلمتنا وجزّأ بلادنا وابتز خيراتنا واستحوذ على مقاليد أمورنا ووقف حجر عثرة في سبيل تقدمنا ورقينا ثم حاول بكل الوسائل ان يقضي على جميع مقوماتنا كأمة عربية مسلمة، ويسرني أن أعلن ان جميع الذين خابرتهم في هذا الموضوع من رؤساء الأحزاب المغربية ومندوبيها بالقاهرة قد أظهروا اقتناعهم بهذه الدعوة واستجابتهم لتحقيقها وايمانهم بفائدتها في تقوية الجهود وتحقيق الاستقلال المنشود. ولقد كانت الفترة التي قطعناها في الدعوة للائتلاف خيرا

وبركة على البلاد فاتفقت مع الرؤساء ومندوبي الأحزاب الذين خابرتهم على تكوين « لجنة تحرير المغرب العربي » من سائر الأحزاب الاستقلالية في كل من تونس والجزائر ومراكش على أساس مبادئ الميثاق التالي :

1 ـ المغرب جزء لا يتجزأ من بلاد العروبة وتعاونه في دائرة الجامعة العربية مع الأقطار العربية على قدم المساواة أمر طبيعي ولازم . .

2 ـ الاستقلال المأمول للمغرب العربي هو الاستقلال التام لكافة أقطاره الثلاثة « تونس ـ المغرب ـ الجزائر ».

3 ـ لا غاية يسعى إليها قبل الاستقلال.

4 ـ لا مفاوضة مع الاستعمار في الجزئيات ضمن النظام الحاضر.

5 ـ لا مفاوضة إلا بعد اعلان الاستقلال.

6 ـ للأحزاب الأعضاء في « لجنة تحرير المغرب العربي » ان تدخل في مفاوضات مع ممثلي الحكومة الفرنسية والاسبانية على شرط أن تطلع اللجنة على سير مراحل هذه الاتصالات.

7 ـ حصول قطر من الأقطار الثلاثة على استقلاله التام لا يسقط عن اللجنة واجبها في مواصلة الكفاح لتحرير الشعبين.

هذا هو الميثاق الذي قطعنا على أنفسنا العهد بالسير على ضوئه والعمل بمقتضى مبادئه، قد وافقت عليه أنا كما وافق عليه رؤساء الأحزاب المغربية التالية :

1 ـ الحزب الدستوري الحر التونسي القديم.

2 ـ الحزب الدستوري التونسي الجديد.

3 ـ حزب الشعب الجزائري.

4 ـ حزب الوحدة المغربية.

5 ـ حزب الاصلاح الوطني المغربي.

6 ـ حزب الشورى والاستقلال المغربي.

7 ـ حزب الاستقلال المغربي.

وقد كتبنا لبقية الأحزاب نطالب موافقتها النهائية على تكوين اللجنة والمصادقة على ميثاقها وتعيين مندوبيها في اللجنة بصفة رسمية ومنذ الآن ستدخل قضيتنا في طور حاسم من تاريخها وسنواجه المغتصبين ونحن قوة متكتلة تتكون من خمسة وعشرين مليونا كلها مجتمعة على كلمة واحدة وتسعى لغاية واحدة، هي الاستقلال التام لكافة

أقطار المغرب العربي وسنعمل على تحقيق هذه الغاية بكل الوسائل الممكنة في الداخل والخارج كلما استطعنا إلى ذلك سبيلا ولن يجد المستعمر بعد اليوم منفذا لتثبيط عزائمنا وايقاع الفتنة بيننا واستغلال تعدد الأحزاب وتفرق الكلمة لاستعبادنا وتثبيت أقدامه في بلادنـا. فنحن في أقـطارنـا الثـلاثة نعتبر قضيتنا قضية واحدة ونواجه الاستعمار متحدين متساندين ولن يرضينا أي حل لا يحقق استقلالنا الناجز وسيادتنا التامة على أننـا نأمل ان يعمل الفرنسيون والاسبانيون على إنصافنا دون أن يلجؤونا إلى اراقة الدماء وأن يكونوا قد تيقنوا من تجاربهم السابقة من ان استنادهم إلى استخدام القوة والبطش والاحتفاظ باستعمار أوطاننا واسكات صوتنا عن المطالبة بالحرية والاستقلال أصبح لا يجدي شيئا وان من الخير لهم أن يسارعوا إلى فك أغلالهم الاستعمارية بطريق التفاهم بين الجانبين وتقدير مصالح الطرفين. أما إذا تنكبوا هذا الطريق، فسيكونون المسؤولـين عن تغيير خطتنا لأننا لن نتأخر إذا نحن يئسنا من استرجاع استقلالنا بطريق التفاهم والاقناع عن استرجاعه بطريق التضحية وبذل النفوس.

واني إذ أعلن عن تكوين « لجنة تحرير المغرب العربي » أتوجه إلى الشعوب المغربية بالتحية والشكر في مناصرتها لقضية المغرب العربي ولا يخالجني شك في أنها ستستقبل تكوين هذه اللجنة بالمؤازرة والتأييد والترحيب.

ويسرني في الختـام أن أحيي إخواننا مجاهدي فلسطين الشقيقة داعيا لهم بالفوز والنصر ومؤكـدا لهم تضامن الأقطار المغربية معهم وعزمها على اتخاذ جميع الوسائل الممكنة للاشتراك في انقاذ بلادهم والمحافظة على عروبتها ووحدتها.

عبد الكريم الخطابي

رئيس لجنة تحرير المغرب العربي بالقاهرة

وقـد بقي البطل المرحوم « عبد الكريـم الخطابي » وفيا للمبادئ التي أعلنها ونذر نفســه لتحقيقها وضحى بشبابه وبراحته من اجلها وقد استمر ينير درب النضال للأجيال التي آمنت بوحدة المغرب العربي كخطوة نحو تحقيق الوحدة العربية الكبرى. ومن واجب الأجيال الحاضرة وأجيال المستقبل أن تستفيد من هذه التجربة تجربة النضال الموحد التي أجهضت في مهدها قبل ان تتمكن أقطار المغرب من تحقيق وحدتها. وإذا كانت النتيجـة الحتمية لهذا العمل هو ما نشاهده اليوم من كيانات هزيلة في المنطقة فان العلاج الوحيد لهذه الحالة الشاذة هو توحيد النضال في المغرب بل وفي الوطن العربي كافة لبناء الدولة العربية الواحدة من المحيط إلى الخليج وإذا نظرنا إلى هذا العمل

الذي قام به بطل المغرب العربي المرحوم عبد الكريم الخطابي لتوحيد جهود مناضلي المغرب العربي ورص صفوفهم ليكونوا قوة صلبة جبارة لمواجهة الاستعمار عن طريق الكفاح الموحد الذي كان شعار الحركة الوطنية في المغرب العربي كله ويعتبر ميثاق لجنة تحرير المغرب العربي الذي انبثق بعد مؤتمر الحركات الوطنية المنعقد في القاهرة 1947 ان هذا العمل يعتبر من وجهة نظرنا امتدادا للجهود التي كان يبذلها قادة الحركة الوطنية منذ هجرتهم إلى المشرق واستقرار البعض منهم في القسطنطينية، واستمر التفكير والتدبير في خطط الكفاح ونسج خيوط المستقبل بالرغم مّما كان يعانيه هؤلاء المناضلون من صعوبات وعراقيل فإذا كانت القسطنطينية قد جمعت بين باش حامبه من تونس. والباروني من ليبيا وقاما بعملهما الموحد فان وجود المجاهد الليبي « بشير السعداوي » في دمشق لم يمنعه في التفكير والتدبير والاتصال بقادة الحركة الوطنية في المغرب العربي ولا يسعني إلا ان اسجل هنا رسالة بعث بها المجاهد الليبي بشير السعداوي من دمشق بتاريخ 11 ـ 5 ـ 1933 إلى عبد العزيز الثعالبي رئيس الحزب الحر الدستوري التونسي وهذا نصها.

« انني يا مولاي لم أزل أحث السير في سبيل خدمة القضية الطرابلسية فهي شغلي الشاغل في هذه الحياة لعقيدتي بأني ان توانيت أو قصرت في واجبها سيحاسبني الله والتاريخ أشد الحساب خصوصا بعد أن تبينا مقاصد الايطاليين التي ترمي إلى إبادة شعبنا واستخلافه بمن ضاقت بهم أرضهم من أبناء ملتهم، لذلك فمهما بذلنا من جهود تجاه هذه المقاصد نعد مقصرين لأن هذا الطراز من الاستعمار الذي تمشي عليه ايطاليا في بلادنا لم تبتل به أمة منذ أن بدأ الغربيون يشنون الغارة على البلاد الاسلامية. نعم ان الأعمال التي قمنا بها حتى الآن غير كافية لحمل الايطاليين على تغيير مناهج سياستهم هذه ولكن ماذا نصنع والمسلمون رغم ما يشعرون به من الخطر الداهم في كل قطر من أقطارهم لم يوفقوا إلى عمل يقوي الرابطة الاسلامية في نفوسهم لكي يتمكنوا من تفكيك الأيذي الأجنبية الشادة بخوانيقهم. وهذه لا تحتاج إلا إلى قليل من التضحية والتخفيف من نزعات الشهوة التي أذلتهم بين سائر الأمم، انني متفائل خيرا بالحركة المباركة التي أخذت تهز مشاعر اخواننا المغاربة في شمال افريقيا. ان تلك الأمة التي توالت عليها النكبات والتي كان يظن انها فقدت مميزاتها بسبب الاستعمار المرهق بدأت تتحفز للنهوض من كبوتها وتشعر بضرورة اعادة حريتها لها بلا شك اذا أعقب هذا الشعور تفكير صحيح وعمل منظم لا تلبث ان تتبوأ المقعد الذي يليق بها في هذا المعترك الحيوي. ولا يخفى على سيادتكم ان المشتغلين بمعالجة القضية العربية يعدون العدة اليوم لعقد مؤتمر عربي سيكون البحث فيه بحكم الضرورة شاملا

لشؤون جميع البلاد العربية. أفلا يجدر بنا نحن سكان شمال افريقيا ان نتبادل الرأي ونفكر في الخطة المثلى التي يجب ان نتقدم بها إلى هذا المؤتمر لأن أوضاعنا السياسية والجغرافية، تختلف اختلافا بينا عن سائر البلاد العربية. ولقد كان هذا الموضوع يختلج في نفسي وأود أن أستطلع رأي سيادتكم فيه من مدة لأجل وضع منهاج خاص يوحد وجهتنا في بلوغ الغاية التي يجب ان نكون في سيرنا نحوها متحدي الشعور والعقيدة وليس لنا من الفوارق ما يحول دون تحقيق هذه الأمنية. وفي الختام تفضلوا بقبول فائق الاحترام.

بشير السعداوي

وحدة المغرب العربي بين مخططات الاستعمار ومشروعات القوى الثورية :

عندما يفزع الغرب من اندفاع الشعب العربي نحو الوحدة فذلك لأن معناها نهاية سلب الغرب لخيراتنا وثرواتنا وانها الخطوة الجادة لرفع مستوى الشعب فكريا واقتصاديا فإذا استغلت خيرات الوطن العربي لفائدة أفراده لا يلبث الفرد ان يصبح بعد فترة غير طويلة يعيش في نفس المستوى الذي يعيش به الفرد في أوروبا وأمريكا.

معركة المصير العربي ونضال عرب المغرب :

ان المعركة التي تدور على صعيد الوطن العربي حاليا بين قوى الثورة العربية من جهة واسرائيل والاستعمار الجديد من جهة أخرى هي في الواقع معركة كل العرب في المشرق والمغرب لمواجهة أساليب الاستعمار ومؤامراته والامبريالية والصهيونية والاستعمار الجديد في الوطن العربي وبما اننا نؤمن بأن الوطن العربي واحد من الخليج إلى المحيط فان القوى الثورية في المغرب العربي واجب عليها أن تتحمل كل المسؤوليات وأن تشارك القوى الثورية في الوطن العربي عبء المعركة العربية بما تفرضه علينا ضرورة النضال ومقاومة الاستعمار وواجب على القوى الثورية أن تقف كلها مع جماهير الشعب العربي بأجمعه في سبيل تحقيق وحدتها وتقدمها وانعتاقها ونعتقد اعتقادا جازما ان معركة العرب هي معركة واحدة ومترابطة مهما اختلفت مظاهرها وكذلك نؤمن ان وحدة المغرب العربي هي وحدة طبيعية عبر التاريخ، ولم يصبح المغرب مجزءا إلا بواسطة الاستعمار حيث كان يضع الحواجز بين أقطار المغرب العربي من ناحية ويرفعها بين المغرب وفرنسا ودول أوروبا من ناحية اخرى وبالرغم من جميع الأساليب التي لجأ إليها الاستعمار الفرنسي كان يدفع الشعب العربي في المغرب نحو الوحدة دفعا وكان يتزايد باستمرار ويتقوى مما دفع الاستعمار لأن يساير هذا التيار ويحاول في أثناء

مسايرته له خلق الانحرافات فيه وتغيير مفهوم الوحدة لدى جماهير الشعب . . بل اجهاض الوحدة الحقيقية واحتواءها وصرفها عن اتجاهها السليم لتخدم الاستعمار الجديد بدلا من ان تكون قوة للشعب العربي .

مشاريع وحدة المغرب العربي :

ومنذ القديم كان الاستعمار يطبخ في مخابزه المشاريع الاستعمارية لابعاد شعب المغرب العربي عن أهدافه الحقيقة وهي وحدة المغرب كخطوة نحو الوحدة العربية وكانت أشهر مشاريع الاستعمار الأوروبي لوحدة المغرب هي أربعة :

1 ـ مشروع وحدة شمال افريقيا في نطاق البحر الأبيض المتوسط .
وكان هذا المشروع يرمي ربط المغرب العربي بدول أوروبا التي تشرف على البحر الأبيض المتوسط وهي فرنسا وايطاليا واليونان واسبانيا .

2 ـ مشروع وحدة شمال افريقيا ضمن المجموعة الفرنسية .
وكان هذا المشروع يرمي إلى انشاء (كومنولث) فرنسي على نسق (الكومنولث) البريطاني .

3 ـ وحدة شمال افريقيا مع السوق الأوروبية المشتركة وهو المشروع الذي وضعته دول السوق الأوروبية الموحدة الست والذي يرمي لانشاء سوق اقتصادية أوروبية واحدة واستغلال افريقيا لصالح هذا السوق والدول التي وضعت المشروع هي : فرنسا ـ المانيا ـ ايطاليا ـ هولندا ـ بلجيكا، ولوكسمبرغ .

4 ـ مشروع وحدة شمال افريقيا فحسب وفي بعض الأحيان يكثر الحديث عن (قومية مغربية) أو مغرب كبير والهدف من ذلك ضرب الوحدة أولا وقبل كل شيء .

أهداف هذه المشاريع .

ويلاحظ من هذه المشاريع ان هناك عاملين دفعا إلى وضعهما **العامل الأول** : هو فصل المغرب العربي عن بقية أجزاء الوطن وربطه بتكتلات غير عربية وبالتالي ضرب فكرة الوحدة العربية التي تعتبر شعبا يخيف الاستعمار . . . فالدولة الواحدة ستكون عامل استقرار وسلام ورخاء في العالم كله . وهذا أكثر ما يخشاه الاستعمار.

والعامل الثاني : هو رغبة الدول الأوروبية في استغلال ثروات الصحراء في جنوب المغرب العربي وهذه الصحراء تملك احتياطيا عظيما جدا من الحديد والبترول

واليورانيوم ومختلف أنواع المعادن وقدر ما يحتويه واحد من مناجم الحديدفقط في منطقة (موريتانيا) ثلاثة مليارات طن 75 بالمائة منها أو أكثر حديد صاف.

معاهدة السوق الأوروبية

والمشروع الذي وضع موضع التنفيذ لاستغلال هذه الثروات هو معاهدة السوق الأوروبية المشتركة الذي وقعته الدول الأوروبية الست .. وتسمى هذه الدول المشروع « لورا فريك » أي « أوروبا - افريقيا » وهو اسم قديم كان (هتلر) أول من اخترعه وكان هتلر يريد من هذا المشروع أن تكون افريقيا مجالا حيويا لأوروبا الموحدة تحت ظل ألمانيا وتبنى تشرشل المشروع بعد سقوط ألمانيا ودعا إليه في خطبه منذ عام 1945 .

وقد سمي فيما بعد « بأوروبا الافريقية » وهو يرمي إلى جعل جنوب المغرب قطعة من أوروبا يمكن أن يسكنها الأوربيّون.

وكانت امريكا تؤيد هذا المشروع وتغذيه وكانت تهدف من ورائه إلى منع الاتصال بين المغرب وبقية أجزاء الوطن العربي وكانت أمريكا تخشى على قواعدها في ليبيا والمغرب العربي. هذه القواعد التي جاءت ثورة الفاتح من سبتمبر وتنظيم الضباط الوحدويين الأحرار بقيادة العقيد معمر القذافي لتطردها وتخلص الأمة العربية من شرورها وكانت أمريكا في ذلك الوقت تعمل على محاربة بعثات طلاب المغرب العربي إلى الدول العربية في المشرق العربي وكانت تريد إقامة مدارس وجامعات في ليبيا والمغرب تنفق عليها الولايات المتحدة. لمنع الطلاب من السفر والاختلاط باخوانهم في الأجزاء العربية الأخرى فخطة امريكا كانت ابعد بكثير من إيجاد قاعدة جوية في الملاحة أو غيرها في ليبيا هذه القواعد التي طردت بفضل الثورة الليبية وقد كانت تقوم بمساع أخرى على صعيد النقابات والحركة العمالية وعملت على ربط هذه الاتحادات النقابية بدول افريقيا غير العربية وذلك لابعاد الجماهير العربية عن الترابط والتناسق والعمل الموحد. هذا العمل الخاطئ الذي قامت به أمريكا هو مناقض تماما لأهداف الحركة النقابية في المغرب العربي التي بذر بذرتها الأولى المناضل العصامي « الدكتور محمد علي الحامي » والذي عمل على ابعاد حركة العمال في تونس والمغرب العربي عن التأثيرات الأجنبية الأوروبية ولكن هذه المشاريع تصطدم بحقيقة صلبة هي عروبة المغرب فلن يستطيع أي حاكم عربي مهما كان انحرافه ولن تستطيع دول الاستعمار مهما بلغت قوتها فصل الشعب العربي في المغرب عن بقية أبناء العروبة فقد كانت فرنسا إلى عهد قريب وكانت ايطاليا كذلك تدعي ان الجزائر فرنسية وموريتانيا

وهي منطقة شنقيط جزء من فرنسا مع ان سكانها يتكلمون بلغة امرؤ القيس ويتلون الشعر الجاهلي في مجالسهم وايطاليا تعمل على طلينة الشعب الليبي المجاهد الذي ضحّى بثلث سكانه لتبقى ليبيا أرضا عربية. لقد كان الاستعمار ينسج خيوط المؤامرات ضد عروبة المغرب العربي ووحدته ولكن إرادة الجماهير المناضلة التي تؤمن وتعمل من أجل الوحدة كانت دائما بالمرصاد لكلّ المناورات والمؤامرات وإذا كانت مشاريع الاستعمار تستهدف بالدرجة الأولى ضرب عروبة المغرب العربي منذ الاحتلال الاستعماري للجزائر وتونس ومراكش وليبيا واحلال الحضور الأوروبي محل الحضور العربي إذا كان الاستعمار الفرنسي في بلاد المغرب العربي يهدف من وراء احتلاله البقاء بشكل دائم واحكام السيطرة على جميع مرافق الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وجاء بأساليب التنظيم الحزبي والنقابي وجميع الأشكال الحضارية واعتبر بلاد المغرب جزء من فرنسا. لكن هذا الاستعمار جوبه بمقاومة عنيفة وعنيدة من الجماهير الشعبية التي تصدت لمشروعاته بما تملك من حس وطني ورؤية قومية نابعة من الانتماء للحضارة العربية والوطن العربي وكانت الحركات الوطنية في بلاد المغرب تقاوم الغزو الحضاري الأوروبي مقاومة لا هوادة فيها طيلة قرن ونيف وأثبتت للعالم ان بلادالمغرب هي جزء لا يتجزأ من الوطن العربي وقاوم الحضور العربي الحضور الأوروبي وأثبت بطلانه. وبقدر ما كان الاستعمار يعمل على التجزئة فان الحركة الوطنية كانت تعمل من أجل الوحدة وكان شعب المغرب العربي يخوض المعارك المعركة بعد المعركة من أجل طرد الاستعمار ومن أجل الوحدة وحدة أمته العربية من المحيط إلى الخليج.

النضال لتحقيق الوحدة :

وليست المعركة القائمة اليوم في المغرب العربي هي أول معركة يخوضها عرب المغرب ضد الاستعمار الفرنسي في الماضي ومخلفاته في الحاضر فمنذ ان دنس الاستعمار تربة أرض المغرب وهو في كفاح مستمر لتطهير ترابه الوطني من رجس الاعداء المستعمرين وما خلفوه لنا بعد خروجهم.

وما المعركة اليوم إلا حلقة واحدة من سلسلة الكفاح العربي في المغرب الذي بدأه منذ احتلال الفرنسيين للجزائر سنة 1830 وأول حقيقة تؤكدها معركة المغرب العربي هي الحقيقة التي تؤكد لنا ان العروبة واقع تاريخي قائم وان شخصية الأمة العربية قد ارتبطت بالتاريخ الانساني : فهي قائمة ما قام التاريخ وكمثال على ذلك كانت معركة الجزائر ضد الاستعمار فلقد بقي قرنا وثلث القرن يحاول بكل وسيلة ممكنة من وسائل الارهاب والقوة والبطش ان يذيب معالم الشخصية العربية في الجزائر وفي جميع أقطار

المغرب العربي فلم يكن مصير هذه المحاولات إلا الفشل الذريع وقد أكد كفاح المغرب العربي ضد الاستعمار ان أسلوب وحدة الكفاح المسلح هو الأسلوب النضالي الوحيد الصحيح ذلك الأسلوب الذي كان شعاره تحقيق الهدف أو الاستشهاد وهو أسلوب لا يعرف التردد والمهادنة ولا المساومة أو المصالحة ولا انصاف الحلول ولا التدرج ولا المراوغة ولا المداولة.

كفاح عرب المغرب العربي كان رمزا حيا قاطعا لهذا الأسلوب النضالي وبفضل هذا الأسلوب استطاع عربه المغرب العربي أن يقفوا في وجه دولة كبرى كانت تجند كل قواتها في محاولة يائسة لاخماد ثورة العرب المغاربة فلتذكر هذه الحقيقة في الوحدة والحرية والتقدم ولتذكر إلى جانب ذلك ان أكبر خطر هدد ويهدد الكفاح العربي هو الأخذ بالأسلوب غير النضالي مثل أساليب المساومة والمراحل والتدرج وخذ وطالب الخ الذي استطاع عملاء الاستعمار أن يبثّوها في صفوف عرب المغرب العربي حتى يحلوها محل أسلوب الكفاح الطبيعي والنضال الموحّد لتحقيق الوحدة من خلال وحدة الكفاح وقد بات هذا الأسلوب الاستسلامي المراوغ أسلوبا مرفوضا من الجماهير ولكن بعض السياسيين ما زالوا يشيعون هذا الأسلوب ويتمسكون به مما كان سببا رئيسيا لما وصل إليه الكفاح العربي الذي انطلق في بداية القرن.

وقد برز أيضا من خلال معركة الأمة العربية في المغرب العربي ان وحدة الكفاح هي وحدها القوة التي يرضخ أمامها الاستعمار مستسلما مقهورا.

فلقد كانت معركة المغرب العربي من أجل الاستقلال مثلا مصغرا لوحدة نضال المغرب العربي ودليلا ملموسا لمعنى هذه الوحدة.

وهنا نريد أن نؤكد على أنّ وحدة النضال في المغرب العربي لم تتحقق كما يجب وكانت محاولات توحيد الكفاح المسلح عن طريق توحيد جيش التحرير في المغرب والمقاومة وجيش التحرير الجزائري وجيش التحرير التونسي قد أزعجت المستعمر أكثر من أي شيء آخر، مما اظطره إلى تركيز كل جهده لمحاربة هذا الاتجاه والقضاء عليه حتى ولو اضطرّه ذلك ان يتنازل عن شيء من كبريائه. لقد نشبت الثورة المسلحة في تونس والمغرب الأقصى في عام 1953 ونشبت في الجزائر في سنة 1954 وكانت في فترات متقاربة وتمت خطوة عملية لتوحيد جيوش المجاهدين في المغرب في جيش واحد هو جيش التحرير فكان من نتائج هذه الخطوة ان تفرقت قوى العدو ولم يعد باستطاعته ان يسيطر على الموقف كما كان يحدث فيما مضى فبدأت جبهاته في الانهيار وتكتلت

القوى الثورية في المغرب العربي في جبهة واحدة حتى أصبحت معركة المغرب من أولى معارك الحرية في العالم بأسره وكانت سياسة الاستعمار تقوم على دعامة استعمارية رئيسية هي تجزئة النضال سواء في كل جزء على حدة أو بالنسبة للمغرب العربي ككل. وقد وضع خطوط هذه السياسة « منديس فرانس » حين استلم رئاسة وزارة فرنسا سابقا.

ففي تونس نجحت هذه السياسة في تجزئة النضال حين أوجدت تيارين داخليين متضاربين : تيار تهادني هو حزب الدستور الجديد المائل بالاتفاق مع فرنسا وتيار نضالي يرفض أية مساومة مع المستعمر وكانت الاتفاقيات التي حصل عليها رئيس حزب الدستور بداية لتجزئة النضال في المغرب العربي كله.

وبعد اشتداد النضال والمقاومة المسلحة من صحراء المغرب إلى حدود ليبيا فما كان من الاستعمار إلا ان وقع معاهدة ثانية في 20 مارس 1956 حسب بيان مشترك صادر عن حكومتي فرنسا وتونس نتيجة للمفاوضات التي كانت قائمة بين الحكومتين. وهكذا نجح الحبيب بورقيبة رئيس حزب الدستور الجديد في الحصول على اتفاق استقلال في نطاق التكافل لكي يبرئ موقفه من الحركة النضالية.

وقد ألغى بروتوكول ما سمي بالاستقلال التام الصادر في 20 مارس الاتفاقية التي حصلت عليها تونس في 3 من شهر حزيران سنة 1955 التي تمنح تونس الاستقلال الذاتي ببقاء حق الاشراف على الشؤون الخارجية والدفاع والجيش والأمن لفرنسا وقاومت الحركة النضالية هذا الاستقلال الذاتي وناضلت من أجل الاستقلال التام والجلاء وهذا الاتفاق الثاني كان أيضا محاولة ليقضي على حركة المقاومة التي بدأت تشتد وتعنف أما الاستعمار فقد خشي مغبة الاستمرار في مقاومة المطالب الوطنية وخاف أن تقوم في تونس ثورة لاهبة متحدة مع الثورة في الجزائر بحيث تضيع على الاستعمار جميع فرص التسوية وتشتت جنوده فتتغير قواه العسكرية وهكذا اضطر النظام الاستعماري إلى اللجوء إلى التمويه فاصدر البيان المشترك المشار إليه في صورة بروتوكول في 20 مارس 1956 ووقعه عن فرنسا كريستيان بينو وعن تونس الطاهر بن عمار وقد اقر هذا البرتوكول ما يلي :

1 ـ الاعتراف الصريح باستقلال تونس في نطاق التكافل مع فرنسا.

2 ـ الاعلان بأن معاهدة الحماية الموقعة في باردو في 12 أيار 1881 غير صالحة كأساس للعلاقات بين فرنسا وتونس.

3 ـ تعديل نصوص اتفاقيات 3 حزيران 1955 أو الغاؤها لما يتناسب مع الوضع الجديد.

4 ـ لتونس حق مباشرة مسؤولياتها في ميادين الشؤون الخارجية والأمن والدفاع وكذلك تأليف جيش وطني تونسي.

5 ـ التوصل إلى تنظيم تعاون بين فرنسا وتونس في ميادين المصالح المشتركة خاصة في الشؤون الخارجية والدفاع وتحديد اشكال الاعانة الفرنسية للجيش الوطني ومن الملاحظ أن اتفاقية ما يسمى بالاستقلال التام في نطاق التكافل تشبه إلى حد بعيد الاتفاقية المعقودة بين المغرب وفرنسا ونلاحظ ما يلي :

1 ـ ان اعتراف فرنسا السريع باستقلال تونس هو دليل دامغ على تصميم الشعب على النضال للحصول بالقوة على هذا الاستقلال ففرنسا وقد خافت من هذا التصميم على النضال ارادت ان تعيد لأصدقائها في تونس بعضا من الثقة ووجدت نفسها مضطرة للرضوخ أمام مطلب الشعب واظهار اصدقائها بمظهر الأبطال وذلك بابرام هذه الاتفاقية الغامضة ريثما تحاول اعادة سيطرتها على المغرب العربي كله.

2 ـ يلاحظ أيضا أن نصوص هذه الاتفاقية عامة وغامضة لا تحديد أو وضوح فيها شأنها في هذا شأن جميع ما يصدر عن المستعمرين الذين يحاولون دائما المماطلة والتضليل.

3 ـ ليست هنالك ميادين مصالح مشتركة بين فرنسا وتونس وبصورة خاصة في شؤون الخارجية والدفاع والأمن وفرض تعاون تونس مع فرنسا في هذه الميادين هو تناقض مع مبدأ السيادة الشعبية.

وقد اعتبر التيار الوطني في تونس والمغرب أن الاتفاقيتين ستسمحان للاستعمار الفرنسي بالتركيز على الجزائر بشكل عنيف. حتى إذا نجح في اخماد الثورة في الجزائر ارتد على تونس والمغرب الأقصى لقصر نصوص اتفاقيتيه معهما أو ينظم أمور التعاون معهما بما يتفق والمطامع الاستعمارية وقد استمر الشعب كله يناضل إلى جانب الجزائر لتفويت الفرصة على الاستعمار ودعم وحدة النضال الشعبي في المغرب العربي كله.

ولا بد لنا من التعرض إلى اتفاقية (ايكس ليبان) التي وقعتها الحكومة المغربية التي يرأسها « البكاي » باسم المغرب ما دمنا ننطلق من ان المعركة في المغرب العربي كانت واحدة عبر التاريخ والشعب واحد والاستعمار واحد وسقوط الجزائر بيد الاستعمار كان مفتاحا لاحتلال تونس والمغرب ومهد بذلك للاحتلال الايطالي لليبيا وبما ان الشعب واحد والكفاح الشعبي واحد كانت الاتفاقية واحدة أو شبيهة ببعضها البعض وكذلك ما تبعها من تصفية لقوى الثورة المسلحة في كل من البلدين والممثلة في جيش التحرير

الوطني التونسي والمقاومة وجيش التحرير المغربي. كلّ ذلك كان واحدا في أسلوبه وقد استخدم الاستعمار لتحقيق هذه التصفية في تونس الحبيب بورقيبة وفي المغرب الأمير الحسن الذي كان حينذاك رئيسا للأركان ووليا للعهد.

والغاية من هذا التحليل للاتفاقيات هي اعطاء القارئ العربي صورة واضحة عما كان يدور في جزء من الـوطن العـربي في فترة الخمسينـات ولكي تستفيد الأجيال الصاعدة من أخطاء الماضي، لأنه كان من الممكن لو استمر الكفاح المسلح في الأقطار الثلاثة لكان مصير المغرب العربي ان يتحرر من الاستعمار وان يتوحد في الآن نفسه ويكون خطوة نحو الوحدة العربية الشاملة. لقد وعى الاستعمار هذه الحقيقة وجزأ النضال وبذلك كرس الاقليميّة والشوفينية وبالرغم من استقلال الأقطار المغربية الثلاثة إلاان المغرب العربـي لم يخطأي خطوة باتجاه الوحدة، فمن المسؤول ؟

اتفاقية الاستقلال المغربية

في المغرب الأقصى لقيت السلطات الاستعمارية من نضال الشعب المغربي بقيادة الحـركـة الوطنية التي تجلت في المقاومة وجيش التحرير ما اضطرها إلى اعادة الملك « محمد الخامس » إلى المغرب بعد نفيه وخلعه عن عرشه اعتقادا منها بأن ذلك سيوقف نضال الشعب غير ان النضال الذي كان قد اتخذ من الملك رمزا للسيادة الوطنية لا غير. استمر بعنفه السابق فاضطرت حكومة فرنسا إلى المناورة وارجاع الملك من منفاه والدخول معه في مفاوضات حول وضع المغرب وكان الملك مستعدا للتفاوض وقد قبلت الحركة الوطنية في المغرب ممثلة في حزب الاستقلال باسلوب التفاوض ذلك بالرغم من ان المرحوم علال الفاسي رئيس حزب الاستقلال رفض اتفاقية (اكس ليبان) وعارض الاتفاقية التونسية الفرنسية من قبل وبدأت بعد ذلك تحاك المؤامرات ضد قيادة المقاومة وجيش التحرير.

نتيجة المفاوضات :

كان الوضع العام الذي تمخضت عنه المفاوضات والذي يظهر من البيان المشترك الصادر عن الحكومة الفرنسية وعن الحكومة المغربية.

1 ـ انهاء اتفاقية الحماية التي فرضت في 20 اذار مارس عام 1912 في فـــاس.

2 ـ اعتراف فرنسا باستقلال المغرب مما يقتضي انشاء تمثيل خارجي وجيش وطني فيها.

3 ـ السعي إلى عقد اتفاقيات تحدد علاقات البلدين المشتركة في الميادين التي تتشارك فيها مصالحها. والتي تنظم تعاونها على أساس الحرية والمساواة، خصوصا في قضايا الدفاع والعلاقات الخارجية والاقتصادية والثقافية والتي تضمن أيضا حقوق وحريات الفرنسيين المقيمين في مراكش

4 ـ حتى العمل بهذا الاتفاق، تبنى العلاقات الجديدة بين البلدين بموجب البروتوكول الملحق والذي خلاصته ما يلي :

1 ـ يمارس الملك السلطة التشريعية ولممثّل فرنسا ان يبدي الملاحظات في القرارات والمراسيم ذات العلاقة بمصالح الفرنسيين والأجانب.

2 ـ ينشأ في المغرب جيش وطني تساعد فرنسا في انشائه وتبقى حالة الجيش الفرنسي في المرحلة الانتقالية على ما هي عليه.

3 ـ تحدد تفاصيل انتقال السلطات ببيان مشترك إلى جانب هذا البيان والبروتوكول الملحق به تبودلت رسائل رئيسي الحكومتين تضمنت ما يلي :

1 ـ تشرف فرنسا أثناء المرحلة الانتقالية على الشؤون الخارجية.

2 ـ ليس لمراكش حق ادخال تعديلات على الأنظمة المالية قبل تحديد الشكليات الخاصة بذلك.

هذه هي أهم النقاط التي تمخضت عنها المفاوضات بين حكومة المغرب وبين الحكومة الفرنسية.

1 ـ ان أبرز انتقاد وجه إلى هذه الاتفاقية من طرف القوى الثورية داخل المغرب وخارجه ان هذا الحل هو حل اقليمي صرف يتمشى مائة بالمائة مع الخطة الفرنسية القاضية بتجزئة النضال في المغرب العربي.

فهذه الاتفاقية قد تجاهلت كليا نضال المغرب العربي الدامي ضد الاستعمار الفرنسي فهي بذلك ضربة لهذا النضال.

2 ـ ان البروتوكول الملحق بالبيان الأساسي والذي يتعلق بوضع المغرب حتى تطبيق الاتفاقية غير محدود باجل معلوم. فالمرحلة الانتقالية التي تطبق بعدها الاتفاقية غير

محدودة الزمن وهذه ثغرة كبيرة يمكن للاستعمار أن يتلاعب بها ان لم يكن بصراحة، فعلى الأقل بالمماطلة ريثما يتمكن من السيطرة على الوضع في تونس والجزائر.

3 ـ ان هذه الاتفاقية ليست دقيقة واضحة اذ ان الشكل النهائي لعلاقات البلدين سيوضح باتفاقات تحدد علاقات البلدين المشتركة في الميادين التي تتشارك فيها مصالحهما وهذا يعني ان مدى ما تناله المغرب من حقوقها في الاتفاقات المقبلة يتوقف على استمرار الشعب في نضاله الذي سيحاول الاستعمار كبته بشتى الوسائل ثم هل من الصحيح ان « الدفاع والعلاقات » هي من الميادين التي تتشارك فيها مصالح فرنسا والمغرب . .

ان جميع هذه المسائل هي من مظاهر السيادة الشعبية عند تنظيم هذه الأمور فكيف تكون فرنسا المستعمرة طرفا في تنظيمها إذا كانت مصلحتها ستؤخذ بعين الاعتبار حين تنظيمها كما تنص الاتفاقية ؟

3 ـ ان حكومة المغرب تعترف في الاتفاقية بوجوب ضمان حقوق وحريات الفرنسيين المقيمين في مراكش وهذه الفكرة تناقض كليا مبدأ السيادة الشعبية، اذ لا حق ولا حرية لأجنبي في أية دولة أخرى إلا ضمن حدود المصلحة القومية والوطنية.

5 ـ ان البروتوكول الملحق بالاتفاقية يعطي لممثل فرنسا في المغرب حق ابداء الملاحظات على التشريع الصادر عن الملك فيما يتعلق بالفرنسيين والأجانب وهذا يؤكد تحكم فرنسا بالسلطة فيما يتعلق بالفرنسيين والأجانب وبالسلطة التشريعيّة عن طريق ممثلها باسم ضمان « حقوق الفرنسيين المقيمين وحرياتهم ».

6 ـ ينص البروتوكول على انشاء جيش وطني تسهم فرنسا في انشائه ومن الطبيعي ان فرنسا لن تجعل من هذا الجيش جيشا حديثا قويا خوفا من ان يصبح قوة تزعجها وتهددها اما ابقاء الجيش الفرنسي في المغرب على حاله فهو لضمان تنفيذ هذه الاتفاقية التي هي من صالح فرنسا واملا في ان تنجح فرنسا بالغدر بالمغرب في المستقبل وهذا النص لا يعني مطلقا ان فرنسا لن تتمكن من سحب جيشها من المغرب إلى الجزائر مثلا.

7 ـ ان اشراف فرنسا على المرحلة الانتقالية التي لم يحدد أجلها على الشؤون الخارجية يعني ان المغرب لن تتمكن من مؤازرة النضال العربي في اجزاء المغرب الأخرى أو في أي جزء من الوطن العربي.

8 ـ ان منع المغرب من تعديل الأنظمة المالية الغاية منه هو ابقاء السيطرة الاستعمارية على استقلال البلاد الاقتصادي.

كانت في تونس ـ والمغرب في سنتي 1955 و 1956 تدور رحى حرب بين اتجاهين . . الأول يقول بامكان التفاهم والتفاوض مع الاستعمار والثاني باسلوب الكفاح المسلح وتوحيد جبهة القتال لحل مشكلة المغرب العربي كله.

ومن خلال هذين الاتجاهين تتصارع قوى الاستعمار من جهة وقوى الشعب العربي من جهة أخرى.

الطريق الأول يقف فيه أنصار المفاوضات والتعاون مع الأجنبي والتيار الثاني تقف فيه قوى الشعب المناضل والفريق المساوم هو المسؤول عن التآمر ضد الكفاح المسلح في تونس والمغرب مما سهل للفرنسيين تجزئة النضال والتفرغ للجزائر.

وفي هذا الفريق المنحرف فئة تؤمن بوجوب الانضمام إلى احلاف الاستعمار ومنظّمة شمال الأطلسي.

أما الفريق الثاني فموقفه واضـــح كل الوضوح فكان يقول عن هذه الاتفاقيات أنها مؤامرة استعمارية تريد من ورائها فرنسا تثبيت نفوذها في المغرب العربي وتريد عن طريقها التفرغ لمقاومة عرب الجزائر ويؤمن هذا الفريق بوجوب النضال في المغرب العربي كله ويريد لكافة أقطاره استقلالا كاملا . . وهو يدرك أعمق الادراك فداحة النكبة التي لحقت بالأمة العربية في فلسطين ويؤمن إيمانا لا يتزعزع بوجوب القضاء على الخطر الصهيوني من جذوره وعودة فلسطين لأصحابها العرب . . ويؤكد أيضا إيمانه بوجوب وحدة المغرب العربي كمرحلة انتقالية مؤقتة حتى تتم الوحدة الشاملة مع باقي أجزاء الوطن العربي وتحقيقا لهذه الأهداف النبيلة دعا هذا التيار المناضل إلى توحيد جبهة الكفاح المسلح وتخفيف الضغط على مناضلي الجزائر بتوسيع جبهة العمليات العسكرية في تونس والمغرب لتمتد ساحة المعركة إلى جبال المغرب وتونس وبذلك تشغل قوات كبيرة للاستعمار.

هذه هي المعركة التي كانت دائرة في كل من تونس والمغرب بين الاتجاهين :

لقد كان التيار الرافض للاتفاقيات والمفاوضات يؤمن أعمق الايمان بأن وحدة النضال في المغرب العربي هي الطريق الوحيدة لتحقيق هذه الوحدة العربية وبناء المجتمع العربي الاشتراكي الموحد من الخليج إلى المحيط. ومن يساوره الشك فيها

فليعد إلى التاريخ يسأله ليرى كيف انتصرت قوى الحرية في كل زمان ومكان وليعرف كيف تبددت قوى القهر والاستغلال والاستعمار وتشتتت معها صفوف الخونة والمساومين على حقوق شعوبهم.

الفهــرس

الصفحة

الفصل التاسع

الفصل العاشر

تم طبـع هذا الكتـاب على مطابـع
دار المعارف للطباعة والنشر
سوسة ـ الجمهورية التونسية

تم سحب 3000 نسخة من هذا الكتاب.

تدمك : 6 _ 067 _ 16 _ 9973 : ISBN

الثمن : 5.000 د. ت. أو ما يعادلها بالعملات الأخرى.